

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

# تاريخ شمال أفريقيا القديم

تأليف

اصْطيفان اگْصيل

ترجمة

محمد التازي سعود

# HISTOIRE ANCIENNE DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

## الجزء السابع

## الجمهورية الرومانية والملوك الأهالي

الرباط، 2007

محتويات أجزاء

# كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

## لاصْطيفان اڭصيل

الـجـزء الأول : – ظروف النماء التاريخي ـ الأزمنة البدائية
– الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الجزء الثاني : – الدولة القرطاجية

الجزء الثالث : – التاريخ العسكري لقرطاجة

الجزء الرابع : – الحضارة القرطاجية

الجزء الخامس : – الممالك الأهلية : نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الجزء السادس : – الممالك الأهلية : حياتها المادية والفكرية والروحية

الجزء السابع : – الجمهورية الرومانية والملوك الأهالي

الجزء الثامن : – يوليوس قيْصر وأفريقيا ـ نهاية الممالك الأهلية

# أكاديمية المملكة المغربية




**العنوان** : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

**تليفون** 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

**البريد الإلكتروني** : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

**فـاكس** 75.51.01 (037)


---


**اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»**

**أصله الفرنسي** : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

**تأليف** : اصْطيفان اڭصيل Stéphane Gsell

**ترجمه إلى العربية** : محمد التازي سعود

**التصفيف الضوئي** : أكاديمية المملكة المغربية

**السحب** : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

**الإيداع القانوني** : 2007/2386

**ردمك** : 9981-46-052-4 (المجموعة)

**ردمك** : 9981-46-061-3 (الجزء السابع)

## محتويات أجزاء

# كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

## لاصْطيفان اڭْصيل

## الكتـاب الأول

# ولاية أفريقيا تحت حكم الجمهورية

## الفصل الأول

# الولاية وحكومة رومة

### 1

لما اندحرت قرطاجة في ربيع سنة 146 ق.م، عيّن مجلس شيوخ رومة - وفقاً لقانون صوّت عليه الشعب - عشرة مندوبين، ذهبوا إلى إفريقيا ليتخذوا مع القائد الغالب، سيپْيون إيمليان، الترتيبات التي تفرضها الظروف. فجرى تهديم جميع ما تبقى من المدينة. أما المقاطعة التي كانت قرطاجة لاتزال تملكها في سنة 149، عند بداية الحرب البونيقية الثالثة، فإنها تحولت إلى ولاية رومانية. وقد حدد القائد والمندوبون حدودها بكل دقة، كما ضبطوا نظامها، واتخذوا القرارات بالنسبة للأماكن المسكونة، وللأشخاص والأراضي، فكان ذلك هو «قانون الولاية : Lex provinciae» ودعيت الولاية باسم الولاية الإفريقية Provincia Africus بجعل كلمة «إفريقية» صفة للاسم قبلها. وربما قيل أفريكا Africa بانفراد.

استعمل الرومانيون الصفة أفريكوس Africus قبل أن تسقط قرطاجة، كما أن أفريكانوس Africanus وهو مشتق منها قد أطلق لقبا

على سيپْيون القديم عند نهاية القرن الثالث. وهما صيغتان لاتانيتان ترتبطان بكلمة آفر Afer التي تأكد أيضا أنها كانت مستعملة قبل أواسط القرن الثاني : إذ نجدها عند پْلوت Plaute. ونعلم أن قريناً لِپْلوت، وهو طيرانْس Térence الذي أعتقه شخص يدعى ب، طيرانْتيوس لوكانوس P. Terentius Lucanus، وقد أضاف إلى اسم وليّه ولقبه لَقَبَ آفر Afer الذي يذكّر بأصله. وكذلك فإن أرض إفريقيا Africa terra كانت أرض من يسميهم الرومانيون باسم أفري Afri. وهو الجمع اللاتاني لكلمة آفر. وإطلاق كلمة أفري حتى على القرطاجيين يمكن استنتاجه من لقب أفريكانوس الذي أطلق على غالب حنّيبَعْل. غير أن لفظ أفري لم يكن يعني سكان قرطاجة فحسب، بل يكاد يتأكد أنه لم يطلق عليهم في أول الأمر. ثم إن الأفري الذين يذكرهم تيتْ ليڤ Tite-Live وجُسْتان Justin مُختصِر تاريخ طْروگ پومْپي Trogue Pompée، والذين يجعلهم الأول مغايرين للبونيقيين Poeni وللقرطاجيين Carthaginienses، كانوا هم الذين يدعوهم الإغريق باسم الليبيين Libyes وفي أدق معانيَ الكلمة هم الأهالي الذين كانوا يعيشون في المقاطعة البونيقية. إذن فأرض إفريقيا كانت هي هذه المقاطعة التي صارت هي الولاية الرومانية بعدما احتلتها رومة.

ومن أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا، أعطيت لكلمة إفريقيا اشتقاقات مختلفة : فقيل إنه لفظ لاتاني، وقيل إنه سامي، كما فسر بأسماء بعض الشعوب البربرية أو الأجنبية، أو باسم شخص قيل أنه فتح البلاد. وسنعفي نفسنا نحن من الرد على هذه الافتراضات، لأن اشتقاق الصفة أفريكوس ليس هو الذي يحسن البحث عنه، بل يحسن البحث عن اشتقاق الاسم آفر. أما أفريكوس، فإنما هو أحد مشتقاته اللاتانية، ومن المستبعد أن يكون لفظ آفر من أصل لاتاني، كما أنه من ناحية أخرى لم

يستعره الرومانيون من الإغريق الذين لم يستعملوه، وإنما استخدموا كما ذكرنا من قبل لفظ ليبيين Libyes. وعلى هذا يكون بعض أهل إفريقيا هم الذين عرفوا الرومانيين بهذا اللفظ الذي لابد أنه كان مستعملا بين الأهالي أو بين القرطاجيين أو لديهم جميعا. وحسب علمي، لا يوجد اللفظ في النقوش البونيقية، بينما يوجد بها : ل ب و.L. B. Y، وفي المؤنث : ل ب ت .L. B. T، وفي الجمع : ل و ب ى م L. W. B. Y. M. (لوبي، لوبة، لوبيم). فلاشك أننا أمام التعبير الإغريقي ليبي Libys ليبيين Libyes. وفسر بعض القدماء لفظة آفر باسم بطل أسطوري اختلق طبعا لهذه الغاية. وكذلك فإن بعض المحدثين اقترحوا اشتقاقا ساميا أو بربريا، وذكروا أسماء للأماكن والآلهة والقبائل التي ظهر لهم منها أنها تشبه آفر... ولكن يحسن أن نعترف بجهلنا الكامل لأصل هذا الاسم، وتبعا لذلك لاسم أفريقيا.

والاسم الرسمي «أفريكا» الذي هو اختصار لتعبير «الولاية الإفريقية» أصبح في سنة 46 ق.م يمتد إلى الولاية التي أنشأها يوليوس قيصر بعد استيلائه على مملكة يوبا الأول، ودعيت باسم أفريكا الجديدة Africa nova ثم ضمت بعد بضع سنين إلى أفريكا القديمة Africa Vetus. ومنذ ذلك الحين، فإن إفريقيا بالمعنى الإداري قد صارت تُحدّ غربا بالمجرى الأسفل لنهر أمْبساگا Ampsaga (الوادي الكبير) الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من رأس بوگارون Bougaroun الذي ذكره القدماء باسم ميطگونْيوم Metagonium. وفي الجنوب الشرقي حدّت إفريقيا بأضرحة فيلين Autels des Philènes بداخل سدرة الكبرى. وصار اسم أفري يطلق على سكان الولاية الإفريقية، أي ولاية سنة 146 ق.م، ثم الولاية التي كانت أكثر اتساعا في عهد الإمبراطورية.

ومع ذلك فإن اسم نوميديا بقي عالقا في الاستعمال العادي بذلك القسم من إفريقيا الرسمية، الذي سبق أن تكوّن من مملكة نوميديا. وحدث من بعد أن ولاية أفريكا هذه (أي القديمة والجديدة المتجمعتين) قد انقسمت في بداية القرن الثالث. فالغرب الذي منذ مدة لم يكن مرتبطا بها إلا بالارتباط الإسمي أصبح هو ولاية نوميديا Numidia، وفي نهاية ذلك القرن نفسه أنشئت في الجنوب وفي الجنوب الشرقي ولاية بيزَسين Byzacène وولاية طرابلس Tripolitaine.

وهكذا فإن المدلول الإداري لكلمة أفريكا، بعد ما اتسع باتساع الولاية، عاد فضاق بضيقها. فهو لا يقع إلا على شمال تونس وعلى الشمال الشرقي للجزائر. وبهذا المدلول وصل إلينا من التاريخ القديم. فإفريقية العربية كانت على وجه التقريب هي ولاية أفريكا في عهد الإمبراطورية السفلى.

وفيما عدا الاستعمال الإداري نجد كلمة أفريكا مستعملة للدلالة على جميع إفريقيا الشمالية، أي على بلاد البيض، في مقابلة أيثيوبيا Aethiopia بلاد السّود. وقد كان هذا الإطلاق قليل الاستعمال. أما الإغريق فكانوا يطلقون لفظ ليبيين Libyes (بالمعنى الأوسع لهذا اللفظ) على البيض الذين يسكنون شمال القارة، ولا يطلقونه على الأثيوبيين. فَنَفْهم إذن أنهم أطلقوا في بعض المرات كلمة ليبيا Libye على الأرض التي يسكنها هؤلاء الليبيون Libyes، كما يمكن من ناحية أخرى أن نفرض أن بعض اللاتانيين وجدوا في بعض المصادر الإغريقية كلمة ليبيا بهذا المعنى، فترجموها بكلمة أفريكا.

ولكن المعتاد هو أن كلمة ليبيا Libye كان لها مدلول أوسع من كلمة ليبيين Libyes، وأنها كانت تدل على القارة بمجموعها. ونفس

المعنى قد أعطي لكلمة إفريكا التي استعملت كأحد مصطلحات الجغرافية الطبيعية. وكذلك فإن اسم أفْري قد أطلق في بعض الأحيان على مجموع سكان القارة، السود منهم والبيض. وهو اتساع في المدلول لم يعرفه لفظ الليبيين Libyes. وفيما يتعلق بالحدود الشرقية لقارة إفريقيا، فإن اللاتانيين قد عرفوا بالطبع جميع الاختلافات التي عرفها الإغريق في شأن ليبيا. فالحدّ حسب رأي البعض هو النيل، وعلى رأي البعض الآخر هو اللسان الأرضي الموجود بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وغير هؤلاء ينتهون بإفريقيا عند الحد الغربي لمصر. وبينما اللاتانيون يتوسعون في لفظ أفريكا ويستعملونه لترجمة لفظ ليبيا Libye، إذا بالإغريق يضيّقون لفظ ليبيا ويستعملونه لترجمة التسمية الرسمية للولاية الرومانية «أفريكا». وقد سهل عليهم هذا، لأنهم سبق لهم أن اعتادوا إطلاق لفظ الليبيين Libyes (بالمعنى الضيّق) على الأهالي الذين بالمقاطعة القرطاجية، في مقابلة النوماديس Nomadès وهم الأهالي الأحرار. وهكذا نجد أن شبه تقارب قد حدث بين اللفظ الإغريقي واللفظ اللاتاني، فأصبحا مترادفين في معنييهما السياسي والجغرافي، كما أن بعض الشعراء اللاتانيين قد استعملوا نفس اللفظ الإغريقي ليبي Libye وليبيا Libya عوضا عن أفريكا، ونجد بعضا من الإغريق في عهد الإمبراطورية قد استعملوا من جهتهم لفظ أفريكا للدلالة على الولاية. ولكنهم لم يعمموا إطلاقه على القارة.

ولعل هذا الأستطراد حول اسم أفريكا، الذي واتاه كثير من الحظ، يمكن أن يكون مقبولا في تاريخ عن شمال إفريقيا. ولنعد للولاية الرومانية.

# 2

كانت الولاية الإفريقية التي أنشئت في 146 ق.م صغيرة جدا. ونحن نعلم إلى أي حد من الضيق أحال مسنيسّا المنطقة القرطاجية التي استولت عليها رومة. ولنذكر بأن الحدود تتجه بصفة عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ثم تتجه من الغرب إلى الشرق، وأخيرا من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، فتسير من مصب نهر توسْكا Tusca (الوادي الكبير) بالقرب من طبرقة Thabraca (طَبَرْقَة) وتمر أمام باجة Vaga وطبُرْسُق Thubursicu Bure ودُقّة Thugga (Dougga) ثم بجنوب جبل زَغْوان، وتنتهي عند مدخل سَدْرة الصغرى (خليج قابس) بالقرب من ثيناي Thaenae (هَنْشير تينا بجنوب الجنوب الغربي لصَفاقس)، وهي مدينة بقيت خارج هذا الخط. وكانت علامة الحدود هي الخندق الذي أمر سيپْيون بحفره مسايرا لمملكة نوميديا، ودعي باسم الحفير الملكي Fossa Regia. ولهذا فالمساحة التي يحدها هذا الخندق يمكن أن تقدر بعشرين ألف كيلومتر مربع، أو بخمسة وعشرين ألفا على الأكثر.

وقد كانت مساحة الولاية لاتزال على حالها من غير تغيير في نهاية القرن الثاني. وعندما أنشأ قيصر سنة 46 ولاية أفريكا الجديدة، كانت الأنصاب الموضوعة في عهد الإمبراطورية على الحدود المشتركة بين الولايتين القديمة والجديدة، تقوم على طول الحفير الملكي الذي حفره سيپْيون.

في سنة 111 ق.م انفصلت مدينة لِبْتيس الكبرى (لبدة)، الواقعة بين خليجي سدرة، عن يوغرطة الذي كان يحارب الرومانيين. فنالت بذلك صفة المدينة الصديقة والحليفة لرومة. ولكنها لم تضم إلى الولاية، وكذلك ساحل الخليجين. ونعلم أيضا أن المملكة النوميدية بلغت سدرة الصغرى

في سنة 88 وأن ثيناي Thaenae عند مدخل هذا الخليج Petite Syrte كانت في 46 جزءا من هذه المملكة، كما أن أراضي يوبا الأول كانت تتاخم منطقة لبتيس (لبدة) Leptis.

أما بموسطة تونس فإن مدينتين تقعان غربي توبرسكو بور (طُبُرسُقْ) Tubursicu Bure ودُقّة Tugga. وهما ثيبَريس المدينة الحرة Thibaris ومستعمرة أوكي مَيوس Uchi Majus(*) قد احتفظتا في عهد الإمبراطورية بلقب مَرْيانوم، ومريانا Marianum, Mariana. فللقائد مارْيوس Marius إذن يد في نموهما بصفة أو بأخرى، مع العلم أن هذا ليس حجة في أن يكون القائد مارْيوس غالِبَ يوغرطة قد ضم هذين المكانين إلى الولاية، خلافا لمن يؤكد أن حدود أفريكا لم يطرأ عليها تغيير بين 146 وعهد قصير. فلقد حارب مع ماريوس جنود مساعدون من الجيتوليين، جازاهم ماريوس بجعلهم مواطنين رومانيّين، وبإعطائهم الأرض. والأراضي المعطاة كانت من المملكة النوميدية التي مكنه انتصاره من التصرف فيها. وقد كان هؤلاء الجيتوليون مستقلين في أول الأمر، ثم أصبحوا بعد ربع قرن خاضعين لسلطة ملك نوميديا، الأمر الذي ينفي الافتراض بأنهم أسكنو داخل المنطقة الرومانية. ويمكن أن نفرض أن اللقب الذي حملته كل من ثيبَريسْ، وأوكي مَيوس يذكّر بإحسان مارْيوس إلى رفقائه في السلاح.

## 3

بعد عملية هذا التحديد الدقيق بواسطة الحفير الملكي، أخضعت ولاية أفريكا لعملية مسح يظهر أنها سبق أن تقررت مع الاستيلاء. وليس

(*) ثيبريس هي اليوم هَنْشير تيبار. وأوكي ميوس هي هَنْشير الدواميس.

لدينا ما يشهد بأن القرطاجيين قد أحدثوا تكسيرا cadastre رسميا لمنطقتهم، إذ لم يكن لديهم ما يدعو إلى مثل ذلك عند قبضهم من محكوميهم الضرائب التي كانت عبارة عن أجزاء من المحاصيل الزراعية. وفوق ذلك، فلو كان هذا التكسير موجودا عند سقوط قرطاجة، لما أتعبت حكومة رومة نفسها في إعادة فعله. لكن الأساس الروماني هو وحده الذي قام عليه التكسير الذي نجده مطبقا في شمال إفريقيا منذ القرن الثاني قبل الميلاد إلى نهاية عهد الإمبراطورية، أي على أساس الكَنْتوريا Centuria. وهو لفظ كان في أول الأمر يدل على مجموعة من مائة هيريديا Heredia. وهي ملك عقاري موروث عن الأبوين، ويسع كل منها فدانَيْن اثنين، لأن الهريدْيوم (مفرد هريدْيا) كان فيما سبق هو القطعة من الأرض التي اقتطِعت من أراضيَ مدينة رومة وأعطيت لرئيس العائلة.

وأرى من اللازم أن أذكر هنا باختصار كيف كان الرومانيون يقومون بعملية مسح الأراضي التي هي أساس التكسير.

تقسم إحدى المساحات على عدد من الوحدات المتساوية بواسطة شبكة من الخطوط المستقيمة. فيبدأون بجرّ خطين رئيسيين ينزل أحدهما على الآخر ويتقاطعان. ويسمّى الخط السائر منهما في اتجاه الطول باسم الديكومانوس الكبير Decumanus maximus، ويسمى الآخر باسم الكاردو الكبير Cardo maximus، ثم يضعون بموازاة هذين الخطين الرئيسيين العدد اللازم من الخطوط (من الديكومانوس والكاردو) فتتكون بذلك مساحات رباعية متساوية تُسمّى كنْتوريات Centuries. وكلمة خط التي عبرنا بها ليست صائبة تماما، لأن خطوط الديكومانوس والكاردو كانت في الحقيقة ممرات ملْكاً للعموم، والمحوران الرئيسيان أكثر اتساعا من التي تحدهما وتوازِيهما، وهذه الأخيرة تكون كل خامسة منها أوسع من الأخريات.

وبهذا يمكن أن تكون الشبكة على شكل يساعد على تكوين مربعات أو مستطيلات. أما في إفريقيا فإن المساحات المحاطة بالحدود أو الممرات كانت دائما عبارة عن كنتوريات مربعة، لكل ضلع منها 2400 قدم (أي : 40 ,710م)، وتشتمل على 200 فدّان ولها مساحة تفوت بقليل 50 هكتارا.

ويطلق لفظ بقايا Subseciva على القطع الأرضية التي تقل مساحتها عن مساحة الكنتوريا، والتي بقيت بشكلها غير المنتظم حتما داخل حدود الأرض الممسوحة بين مجموع الكنتوريات ذات الأضلاع المستقيمة كما أرادها القائمون بالعملية.

وبداخل نفس هذه المساحات التي قيست، كانت هناك أراض كثيرة اعتبرت – على الأقل أثناء القيام بالعملية – غير صالحة للزراعة، كالأراضي المغروسة بالأشجار، والتي بها مستنقعات أو كانت صخرية. هذه الأراضي كانت تدعى «أماكن مهملة» Loca relicta حينما تتعدى مساحتها كنتورية واحدة، أما التي من هذا النوع وتفوت مساحتها هذا القدر، ويمكن أن تمتد إلى ما يحيط بالمنطقة فتدعى «أماكن تتجاوز النطاق» Loca extraclusa. والأراضي الفاصلة بين التربات السيئة في الكنتوريات المتقاربة ويمكن أن تكون فيها قطع من الأرض الصالحة فإنها توصف بأنها من البقايا Subseciva.

فإذا انتهى عمل القائم بمسح الأراضي، شرع في وضع خريطة المنطقة، مع ذكر أسماء الأشخاص المعينين للتملك، أو الذين اعترف بأنهم المالكون الشرعيون للأراضي المغلة. ومن لغو الكلام أن نطيل في بيان مزايا هذا المسح المضبوط، وهذا التكسير لتثبيت الحدود العامة والخاصة ومراقبتها، وفي كراء الدولة أو هبتها أو بيعها

للأراضي التي هي تحت يدها، وكذلك في تقرير الضرائب التي تفرضها، وفي المراقبة السريعة لحقوق المالكين ومن بيدهم حيازة الأرض، وكذلك على سلامة البيوع.

والوثائق التي تشهد بوجود تكسير على أساس الكنتوريات في الولايات الإفريقية كثيرة ومتعددة. وأشد هذه الوثائق قدماً القانون الزراعي لسنة 111 ق.م. وسنذكره في هذه الدراسة عن إفريقيا في العهد الجمهوري. هذا القانون يذكر «كنتوريات» و«بواقي» في المنطقة التي أعطيت قبل ذلك بإحدى عشرة سنة إلى المستعمرة الرومانية بقرطاجة، والتي كان كيوس گراكوس C. Gracchus قد عمل لتأسيسها والشروع في تكوينها. وعلى هذا فسنة 122 ق.م تكون على أكثر تقدير هي السنة التي أجريت فيها عملية مسح المنطقة، لأن هذا المسح شرط ضروري لتوزيع القطع الأرضية على المعمرين. غير أن نصوصا متأخرة عن هذا العهد تشهد أن التقسيم بالولايتين الإفريقيتَيْن لم يكن مطبقا على أراضي الاستعمار فحسب، كما أن قانون 111 يبين لنا أن بعض أراضي إفريقيا التي لم تكن في هذا العهد جزاء من منطقة المستعمرة التي أنشئت سنة 122، كانت قد خضعت لعملية التكسير. ويشير هذا القانون إلى ما يسمى Formae publicae أي لوائح أو خرائط المصلحة العامة التي يجب على عضو لجنة الاثنين Duumvir المكلف بتطبيق القانون أن يسجل بها الأراضي التي سيعطيها لبعض الأهالي تعويضا لهم عن الأراضي التي سبق أن أعطتها لهم لجنة العشرة Décemvirs – وهم العشرة المنتدبون في سنة 146 – والتي كانت الضرورة قد دعت أو ستدعو إلى استرجاعها من يد من أُعطيت لهم. ولاشك أن هذه الأراضي الجديدة لايمكن أن تكون إلا ضمن الملك العمومي الفارغ، وخارج الاقتطاعات التي أعطيت للمعمرين الإيطاليين سنة 122. كما أن عملية

التعويض والتسجيل على الخرائط كان يجب أن تتم داخل 150 يوما من تعيين عضو لجنة الاثنين. وهذا يشهد أن هذه التصميمات والخرائط كانت موجودة من قبل، وإلا فإن المدة الزمنية تكون لاشك قصيرة جدا للقيام بعملية المسح الطويل الدقيقة. هل هناك من وقت مناسب لتحضير هذه العملية غير الوقت الذي أنشئت فيه الولاية ؟ من المحتمل أن يكون العشرة المساعدون لسيپْيون هم الذين أمروا بإجراء عملية المسح، كما نستطيع أن نفرض أن العمليات شملت كل الولاية، باستثناء أراضي المدن السبع التي أعلن أنها مدن حرة. فأراضيها ليست ملكا للشعب الروماني، خلافا للولاية التي تمثل هذه المدن فيها جيوبا.

من دراستنا للنقوش المكتشفة والخرائط المتقنة التي وضعتها المصلحة الجغرافية للجيش نطلع على وجود تقسيمين كنتوريين Centuriations قديمين بتونس، بكل واحد منهما كنتويات مربعة الشكل، وضلع كل مربع من 2400 قدم، غير أن الكنتوريات تتجه اتجاهات مختلفة.

فأحد هذين التقسيمين عمل متقن، تعرفنا عليه بواسطة أنصاب اكتشفت في أمكنتها بالجنوب التونسي بالقرب من شُطّ الفْجاج. وهي أنصاب أقيمت في عهد الإمبراطور تيبرْيوس Tiberius (تيبير) على يد عرفاء تابعين لجيش إفريقيا. وقد مكنتنا الأرقام العددية التي تحملها هذه الأنصاب من فهم الشكل الهندسي الذي تؤول إليه. فالديكومانوس الكبير يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويمتد من نقطة على الساحل تقع بين فيلبْڤيل Philippeville وعنّابة إلى نقطة بسَدْرة الصغرى قريبة من قَفْصة. أما الكاردو الكبير الذي يقاطعه في زاوية مستقيمة بناحية تْهالة، فينتهي عند الشمال الشرقي بالقرب من الرأس

الطيب. على أن هذه الأنصاب التي أسعفنا الحظ بالعثور عليها، يمكن أن يؤرخ لها بحقبة متأخرة عن وضع هذا النظام الذي زاد استعماله انتشارا مع تقدم الاحتلال العسكري نحو الجنوب. غير أن الذي لاشك فيه هو أننا هنا أمام تقسيم كنتوري متأخر عن سنة 46 ق.م وهي السنة التي شاهدت إنشاء ولاية أفريكا الجديدة، لأن الديكومانوس الكبير يوجد تماما خارج الولاية القديمة. ويظهر جليا أن نقطة انطلاقه في الشمال الغربي تتفق مع الحد الشرقي لمنطقة سِرْتا Cirta. وهي المنطقة التي أحدثت في 46 لمصلحة المتآمّر سِتْيوس Sitius ورفقائه. ولم تكن في أول الأمر تابعة للولاية الجديدة. فلما ارتبطت بها استمرت على حالها كإمارة صغيرة، معفية، – على ما يظهر – من الضريبة العقارية. ففي هذه العملية الواسعة من المسح والتكسير اللذين كلف بهما عرفاء عسكريون، لم تكن الصدفة على ما يظهر هي التي مرت بخط الكاردو الكبير بأمايدرا Ammaedara المعروفة اليوم باسم حَيْدَرا Haïdara، المكان الذي كان فيلق إفريقيا يقيم به في نهاية عهد الإمبراطور أوغُسْط Auguste.

والمسلّم هو أن هذا التقسيم الكنتوري يوجد أيضا في الولاية القديمة التي أنشئت سنة 146، حيث يشهد بذلك الاتجاه والاتساع بين بعض الممرات التي لاتزال مستعملة اليوم. وهي الممرات الرومانية القديمة التي كانت تفصل بين الكنتوريات. وقد ألقي سؤال عن هذا التقسيم : أَلَمْ يوضع على تقسيم مثله أقدم منه ؟ ولكن هذا الافتراض لا يدعو أَلَمْ مشكوك فيها وغير محتملة قطعا، لأن حب التناسق والتماثل في التقسيم لا يبرر المصاريف والاضطرابات التي يمكن أن يسببها تكسير جديد. فعملية المسح التي يمكن تأريخها ببداية العهد الإمبراطوري، لاشك أنها لم تنجز في الولاية القديمة إلا حيث لم يسبق للعرفاء أن

اشتغلوا، إذ الواقع أن الآثار الواضحة التي خلفتها العملية لا يعثر عليها إلا في الجنوب، خلف المدن البحرية التي أعلن في 146 أنها مدن حرة، ثم تناقصت حريتها كثيرا في عهد الإمبراطورية، حيث لم تعد تعفى إلا في القليل النادر من الضريبة العقارية التي لابد من مسح وتكسير لفرضها.

أما النظام الأخر للتقسيم الكنتوري فلم يلاحظ وجوده إلا في الولاية القديمة. فمنذ قرن من الزمن عَثَر فالْب Falbe بهضبة قرطاجة على آثاره التي هي عبارة عن ممرات وحدود تصور إلى اليوم جوانب الكنتوريات. ثم عثر بعد ذلك على آثار في الغرب والجنوب الغربي وفي جنوب مدينة تونس، وكذلك في أسفل شبه جزيرة الرأس الطيب، ثم في شبه هذه الجزيرة نفسها، وفي أنْفيدة Enfida (بالشمال الغربي لسوسة)، وفي أماكن قريبة جدا من الحفير الملكي الذي هو حد ولاية أفريكا القديمة Africa Vétus. فمجموعة الديكومانوسات الصغيرة تسير في اتجاه طول الولاية متجهة من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي. (فتكون مع خطوط التقسيم الذي حدث في عهد الإمبراطورية زاوية من ثماني درجات). ونتيجة لهذا فمجموعة الكاردوات الصغيرة تتجه من غرب الجنوب الغربي إلى شرق الشمال الشرقي. وحيث إننا لم نعثر على أنصاب تعطينا إيضاحات بواسطة أرقامها العددية، فإننا لا نستطيع أن نقول أين كان الديكومانوس والكاردو الكبيران.

والذي لاشك فيه أن هذا التقسيم الكنتوري قد وقع قبل مثيله الذي جرى في ولاية أفريكا الجديدة. وإلا فلو أن عملية عامة للمسح قد أجريت بالولاية القديمة في وقت واحد مع الولاية الجديدة، لتساءلنا : لماذا تطبق في إحداهما طريقة غير تلك التي طبقت على الأخرى، خصوصا وأن

طريقة الولاية الجديدة قد استعملت في بعض الأقسام من الولاية القديمة؟ ولا ننسى زيادة على ذلك، أن هاتين الولايتين سريعا ما اندمجتا بعد أعوام قليلة وكوّنتا ولاية واحدة.

والتقسيم الكنتوري الذي نراه حتى اليوم بشبه جزيرة قرطاجة لابد أن يكون هو نفس التقسيم الذي استعمله كيوس كْـراكـوس سنة 122 أثناء توزيعه للأرض. فإعادة التقسيم بعد ذلك أمر لا معنى له.

ومما تقدم يتلخص أنه قد بقي على الأرض آثار عملية للمسح جرت، حسب رأينا، مباشرة عقب الاستيلاء، وفرضت لاشك مجهودا دام عدة سنين.

## 4

تقرر في 146 أن يعين على رأس الولاية الإفريقية حاكم يكون إما واحدا من ولاة السَّنة Magistrats المعروفين باسم بريطور Praetor وإما أحد القدماء من بينهم. ففي كل سنة كان مجلس الشيوخ يعين المقاطعات في رومة والولايات التابعة لها والتي تسند للبريطورات الذين كانوا ينتخبون ليعملوا في السنة الموالية. وكان هؤلاء يجرون بينهم القرعة على هذه المقاطعات. ولاشك أن ولاية إفريقيا قد أدرجت أكثر من مرة في قائمة هذه المقاطعات، ولكن لم يكن هناك سوى ستة من البريطورات، لأن عددهم حدد في بداية القرن الثاني، ثم لم يرتفع هذا العدد قبل عهد سولاّ Sylla. ومنذ سنة 146 أصبح هذا العدد غير كاف لشغل المقاطعات البريطورية التي زاد عددها من بعد. فلزم إذن أن يجعل على رأس بعض الولايات نواب يحملون لقب بْروبْريطور Propraetore

عوضا عن البريطورات المزاولين. وكان مجلس الشيوخ يعينهم على وجه العموم لمدة سنة من بين البريطورات القدماء، وعلى الخصوص منهم الذين تنتهي مدة عملهم، وكان بمستطاعه أن يمدد لسنة أخرى عمل أحدهم على رأس ولايته، ونظرا لأن الحاكم لم يكن يغادر ولايته قبل قدوم خلفه، فقد كان يكفي أن لا يقع تعيين الخلف، ليستمر هو في المنصب عمليا. وحيث ان البريطور والبروبريطور كان لهما نفس السلطان فإن العادة جرت بدعوتهما باسم بريطور. ونظرا لعدم وجود معلومات دقيقة، فإننا لا نعرف بين العدد القليل من الولاة الذين بلغتنا أسماؤهم من سنة 146 إلى عهد سولاّ، أي هؤلاء الولاة حمل لقب بريطور عن استحقاق رسمي. ونعلم أن أحدهم وهو فابْيوس هَدْرِيانوس F. Hadrianus قد مكث على الأقل سنتين بإفريقيا حيث كان سنة 84 و82.

وفي سنة 81 نال سولاّ التصويت على القانون الكُرْنالي Lex Cornelia الذي غير هذا النظام. فرفع عدد البريطورات إلى ثمانية، زاولوا جميعا مهامهم برومة. وفي السنة الموالية كان كل واحد منهم على رأس إحدى الولايات الثمان التي أسندت إله بالاقترا ع. وصاروا في هذا العهد يحملون لقب بْروقُنْصُل Proconsule (لابروبريطور)، مما يدل لاشك على أنهم قد زودوا بالسلطة القنصلية، وصار لهم الحق في أن يسير أمامهم موكب الإثني عشر من حملة الأشعرة Douze Licteurs عوضا عن ستّ. ولكن، حيث إن عدد الولايات لم يلبث أن زاد على عدد البريطورات، فقد لزمَ الرجوع إلى عملية التمديد في مدة العمل. وفوق هذا، فإن البروقنصل حسب القاعدة القديمة، كان ملزما أن لا يغادر ولايته قبل وصول من يخلفه عليها.

كانت العادة أن لا يلتحق الوالي الجديد بولايته في بداية السنة، إذ كانت له مآرب يهيئها في رومة. ثم أن فصل الشتاء كان فصلا لا يفضل الناس أن يركبوا فيه البحر. ولهذا فمدة ولاية الوالي كانت تأخذ من سنتين.

وفي 52 أي السنة التي تولى فيها پومْپي Pompée قنصليته للمرة الثالثة، صدر قانون عرف بقانون پومْپي Lex Pompeia، جرد بمقتضاه البريطورات القدماء الذين جعلوا على رأس إحدى الولايات من لقب بروقنصل، واكتفوا بلقب بروبريطور، حتى أعاد لهم قيصر اللقب السابق. كما قرر القانون أن مدة الولاية يجب أن لا تتعدى سنة واحدة تبتدئ من يوم وصول الحاكم إلّى أرض الولاية التي يجب عليه أن يغادرها حينما تنتهي السنة، ولا ينتظر خَلَفه، وإن كان يجب عليه أن يترك وراءه مكلفا على وجه النيابة. وكذلك صار لابد من مرور خمس سنين تفصل بين تولّي المنصب في الحضرة (2 Urbs) وتولي حكومة الولاية، غير أن هذا الأمر الأخير لم يطبق في حينه. وبعد ثلاث سنين، قامت الحرب الأهلية ووضعت إفريقيا في ظروف استثنائية. ويظهر أن أفريقا Africa كانت في العهد الجمهوري ولاية قليلة الأهمية، ولم يحكمها سوى أشخاص من المستوى البريطوري Rang prétorien. وكان في استطاعة مجلس الشيوخ أن يقرر أنها إحدى الولايتين اللتين يقترع القنصلان عليهما. ولكن ليس هناك ما يؤكد أنه قد فعل هذا.

وقد توفي بإفريقيا بورْكِيوس كاطون Porcius Cato أحد قنصلي سنة 118 ق.م، وهي السنة التي توفي فيها أيضا مسِبْسا Micipsa ملك نوميديا الشيخ. وكان لابد لمجلس الشيوخ أن يتدخَل في الكيفية التي ستَسوّى بها تركة هذا الملك. ولا مانع من أن نفرض أن كاطون Caton

قد بعث لهذا السبب في مهمة مؤقتة، مهمة لم تكن لتحدث تغييرا في حكومة الولاية، ولذلك فلا داعي للاعتقاد بأن إفريقيا قد أسندت إليه طيلة مدته في منصب القنصل. وبمقتضى القانون الذي نال كيوس كْراكوس التصويت عليه سنة 123 ق.م، أصبح مجلس الشيوخ هو الذي يعين المناطق القنصلية قبل أن يجرى انتخاب القناصل الذين ستسند المناطق إليهم، إذن فبالنسبة لقنصلي 118 يكون تعيين المنطقتين قد جرى تقريبا في خريف 119 ق.م أي في عهد لم تكن تركة مِسِبْسا مما يهم الرومانيين، لأن الملك لم يكن قد مات.

وبعد بضع سنين زاول عدة قناصل سلطتهم بالولاية وهم لوكْيوس كَلْبُرْنيوس بِسْتيا L.C Bestia، وسَمْبُرْنيوس بُسْتومْيوس أَلْبينوس Sp. P. Albinus، وكْنتوس كيسيلْيوس ميتلوس Q. C. Métellus وكيوس ماريْوس C. Marius الذين كانوا قناصل لسنوات 111 و 110 و 109 و108 وكلفوا على التوالي بتسيير الحرب ضد يوغرطة. ولم يكلف الإثنان الأخيران بالحرب مدة كونهما قنصلين فحسب، بل كلف بها كل منهما من بعد بصفته بروقنصل. وكانت المنطقة التي أسندت إليهم جميعا هي نوميديا أرض العدو، لا إفريقية الرومانية، وإن كانت سلطتهم قد امتدت أيضا إلى هذه الولاية التي كانت الجيوش تنزل بها وتخترقها، وتتخذ فيها معسكرات الشتاء في السنين الأولى للحرب، وتأخذ منها لاشك قسما من مؤنها. ومع ذلك فقد كانت إفريقيا تحتفظ بحاكمها من المستوى البريطوري الذي كان في الحقيقة تابعا للقنصل أو للبروقنصل المسيّر للعمليات الحربية.

وقد اختلفت الحال في سنة 81 حينما جاء پومْپي Pompée ليحارب شخصين هما :

الروماني ضوميتْيوس أهينوبارْبوس Domitius Ahénobarbus الذي كانت الولاية تخضع له، والملك النوميدي هِيارْباس Hiarbas. لم يكن پومْپي الشاب قد سبق له أن زوال ولاية ما، ومع ذلك فقد خوّله مجلس الشيوخ السلط Impérium التي تمكنه من قيادة الجيش فقام بما انيط به في معركة سريعة، ولما عاد إلى أوتيكا Utique وصله أمر من سولاّ Sylla يأمره فيه بالمكوث بأوتيكا وانتظار البريطور (وعلى وجه التدقيق البريطور السابق) الذي سيخلفه. فنحن نرى أن پومْپي كان بالولاية التي استولى عليها من جديد يقوم بمهام الحاكم، فلما عاد لها السلام عادت هي إلى نظامها الإداري الاعتيادي. وقد أتيح لپومْپي أثناء حياته الباهرة أن يتدخل في شؤون الولاية مرتين أخريين.

ففي بداية سنة 67 نال النقيب گابينْيوس tribun Gabinius التصويت من الشعب على قانون تُحْدث بمقتضاه قيادة استثنائية لمدة ثلاث سنين ضد القراصنة الذين أصبحوا شرا لا يطاق، والشخصية القنصلية التي تسند إليها القيادة، عليها أن تزاولها لا بالبحر الأبيض المتوسط فحسب، بل تزاولها أيضا على جميع المناطق الساحلية إلى خمسين ميلا من البحر (74 كيلومتر داخل الأراضي). وهذا بالنسبة لأفريقيا Africa يكاد يشمل جميع مساحة الولاية. كما ينص القانون على أن يكون للقائد خمسة عشر مساعدا. وهذا البروقنصل يعينه مجلس الشيوخ. وكان پومْپي محط الأنظار، وفعلا عين لهذه القيادة، فقدم قانونا وقع التصويت عليه، يخول له الحق - إن رأى ذلك لازما - في أن يرفع عدد قطع الأسطول الموضوع رهن إشارته إلى 500 سفينة، وإن يرفع عدد رجال جيشه إلى 120.000، وإن يضم إليه (24 أو 25) مساعدا، فعينهم مجلس الشيوخ بعد ذلك باقتراح من پومْپي وحملوا لقب مساعد البريطور: Legatus propraetore، وأسندت لكل واحد منهم منطقة بحرية. ومن هؤلاء:

كن. ك. لنْتولوس مَرْسليـنوس Cn. C. Lentulus Marcellinus الذي كلف بالدفاع عن السواحلِ الإفريقية. وقد عثر على قاعدة لتمثال كان القورينيون نصبوه له اعترافا منهم بالفضل «لمنقذهم». كما طولب الملوك الحلفاء أي ملك نوميديا وملك موريطانية بالمساعدة في هذا المجهود الضخم.

أما پومْپي فقد ركب بنفسه البحر قبل نهاية فصل الشتاء، فذهب إلى صقلية وإفريقيا وسردانية وأقام بها محطات بحرية وحاميات، فاستطاع أن يطهر البحر الأبيض المتوسط الغربي من القراصنة في أربعين يوما. وفي بداية السنة الموالية كلف القائد المنتصر پومْپي بمقتضى قانون مانيليوس Lex Manilia بالحرب ضد ميتْريدات Mithridate. وإذا كانت هذه القيادة الجديدة لم تضع حدا للأولى، فإنها منعت پومْپي من مزاولة القيادة بالغرب. ثم إنّ السلطات الاستثنائية التي خولت له بمقتضى قانون گابينْيوس لم تجعل حكام الولايات رسميا تحت أوامره، فحاكم إفريقيا آنذاك – وهو كاتيلينا Catilina الذائع الصيت – كان يحافظ على سلطته ويستغلها كيفما أراد.

بعد عشر سنين من هذا التاريخ حدث من جراء انتعاش القرصنة واحتكارات أصحاب الصفحات قلق عظيم على الطعام برومة، إذ أن القمح الذي كانت تقدمه في هذه الحقبة كل من صقلية وسردانية وإفريقيا كان قليلا وغالي الثمن. فقدم القنصلان – بدعوة من مجلس الشيوخ – قانونا صوت عليه في خريف سنة 57، أسند بمقتضاه إلى پومْپي ولمدة خمس سنين مطلق السلطات ليسهر على التموين بالحبوب وليراقب جميع الموانئ وجميع الأسواق، وأن يكون له خمسة عشر مساعدا، وأن يزود بالمال والأسطول والجيش، والسلطة البروقنصلية في إيطاليا وخارج إيطاليا، كل هذا من غير أن يكون حكام الولايات تابعين له.

وفي أبريل سنة 56 (– حسب التقويم الرسمي، أي مارس حسب تقويم جوليان –) أخذ في السير وكان الجميع يعتقد أنه متجه إلى سردانية وإفريقيا. ولكنه ذهب إلى لوكس Lucques حيث التقى بقيصر وكراسوس Crassus وجدد معهما الاتفاق الثالوثي ثم قصد بعد ذلك سردانية وصقلية وإفريقيا حيث حصل على قمح كثير.

وفي سنة 55 حينما كان قنصلا بالاشتراك مع كراسوس صدر قانون تْريبونْيوس Lex Trébonia الذي أحدث لفائدتهما حكومتين كبيرتين يحتفضان بهما مدة خمس سنين، بحيث تشمل إحداهما سورية والأراضي المجاورة لها، وتشمل الأخرى ولايتَيْ أسبانيا اللتين أسندتا إلى پومْپي بعد الاتفاق بين الشريكين. ولم يغادر پومْپي إيطاليا، وإنما عَين بالولايتين مساعدين ينوبان عنه من غير أن يخضعا لقاعدة التجديد السنوي. وقد جدد له في سنة 52 توليه لهذه الحكومة مدة خمس سنين أخرى. وهناك عدة فقرات من بلوتارك Plutarque وأپيان Appien تضيف إفريقيا إلى الولايتين الإسبانيتين، يظهر أن پومْپي نالها في نفس الوقت لحقبتين متتاليتين من خمس سنين، كما يظهر أنه حكمها بنفس الطريقة. على أن كتابا آخرين لم يذكروا سوى الولايتين الإسبانيتين. ولاشك أنهم على صواب. فليس هناك ما يشير إلى أن المدة بين 55 و49، أي الحقبة التي اندلعت فيها الحرب الأهلية قد نال فيها پومْپي حكومة إفريقيا، وأنه زاول هذه الحكومة بواسطة مساعدين له. بل نجد على العكس من ذلك في هذه الحقبة حكاما اعتياديين من البريطورات القدماء الذين عينوا بالقرعة، ونصبوا في مهامهم لمدة سنة واحدة، ونرى أن واحدا منهم يصحَب معه مساعدا له عينه مجلس الشيوخ، وأنه بحكم

سلطته يكلفه بالنيابة عنه لما غادر الولاية سنة 50، وأن پومْپي لم يتدخل ولم يكن له أن يتدخل.

## 5

ذكرتُ منذ قليل المعتمد Legatus الذي يساعد الحاكم ويعينه الحاكم. والمعتاد في الولايات البريطورية أن لا يكون بها سوى واحد، وربما كان ذلك هو الأكثر استعمالا في إفريقيا. غير أن كيوس كَلْفيْسيوس سابِنوس C. C. Sabinus كان له معتمدان وربما ثلاثة في سنتَيْ 45-44، ومن بعده كان لِكِنْتوس كُرْنِفِسْيوس Q. Cornificius اثنان منهم على الأقل. ولعل الأمر قد جرى في بعض المرات على هذا النحو في عهود سابقة. وكان هؤلاء المعتمدون من أعضاء مجلس الشيوخ يختارهم الحاكم بحرية من بين أصدقائه أو من أقربائه، ويقترحهم على المجلس، وكانوا يقومون بجميع القضايا التي يرى رئيسهم أن يكلفهم بها. فهم مستشاروه، ومعاونوه أو نوابه خصوصا في الإدارة العامة وحفظ الأمن والقضاء المدني. فكانت لهم الصلاحية ليقوموا مقامه في كل شيء إذا لزم أن يتخلى عن مهامه بسبب ذهابه أو مرضه.

أما المتصرف المالي للولاية quaestor، فإنه على النقيض من المعتمدَيْن يتولى مهام من غير تدخل للحاكم. وهو للحاكم معين وتابع. وقبل أن يتولى المتصرفون الماليون المهام التي انتخبهم الشعب لها، يسجل مجلس الشيوخ كل سنة قائمة بالمقاطعات التي على هؤلاء المتصرفين أن يجروا القرعة عليها. ومهمتهم هي حفظ الخزينة والقيام بالأداءات، وتسيير صندوق الولاية. فهم يتلقون الاعتمادات المخولة للحاكم، ويتسلمون ما يتجمع في الضرائب، ويقدمون الأموال للازمة

للنفقات المدنية والعسكرية، ثم يدفعون الفاضل - إن كان - للخزينة الرومانية، وإذا ذهب الحاكم أو حدث ما يمنعه عنت العمل فبمستطاعه، أن يعين المتصرف المالي ليقوم مقامه، وإذ ذاك يحمل لقب «المتصرف المالي المعتمد للبريطور» quaestor propraetore، إذ أن المتصرف المالي كان أكثر صلاحية من المعتمد للقيام بالنيابة لأنه رسميا هو الشخصية الثانية بالولاية.

وهناك رومانيون آخرون، يختارهم الحاكم ويخبر مجلس الشيوخ بأسمائهم. هؤلاء هم «الأصدقاء والرفقاء» يعيشون على نفقة الدولة ويكونون حاشية البريطور وأتباعه، ويعينونه في تسيير القضاء على الخصوص. وكان من بين هؤلاء بضعة شبان من الأرستقراطية يزاولون تعلمهم السياسي بالمجان تحت سماء صافية الأديم.

هؤلاء الرجال من ذوي القيمة الذين كان لابد أن يندسّ بينهم بعض الدخلاء - وإن لم يكن عددهم كثيرا على كل حال - يجب أن يضاف لهم جميعا صغار الموظفين وحملة الأشعرة، والمنفذون، والمبلغون للأوامر، والعاملون بالمكاتب الإدارية وغيرهم. ويعتقد أن عددا كبيرا من هؤلاء كانوا يبقون بالولاية رهن إشارة الحكام والمتصرفين الماليين الذين يتتابعون عليها، والذين قد تنفعهم معرفة هؤلاء الموظفين الصغار بالأرض والناس. غير أن البعض من هؤلاء الموظفين الصغار كانوا يأتون مع الولاة ثم يعودون معهم، مثل كتاب خزينة رومة المكلفين بضبط حسابات الاموال التي خولتها الدولة.

وكل هذا الحشد من الناس كان يقيم بجانب الحاكم في أوتيكا Utique، ولا يستثنى منهم إلا من كان في جولة أو بُعث لمهمة. وقبل

سقوط قرطاجة كانت اوتيكا هي المدينة الثانية في إفريقيا، ثم أصبحت أولى مدنها في 146. لأن انفصالها المناسب عن قرطاجة في بداية الحرب البونيقية الأخيرة، خولها صفة المدينة الحرة، بحيث أنها كانت رسميا خارج أرض الولاية التي هي ملك للشعب الروماني. غير أن الخيرات التي كانت تتوفر عليها، وعلى الخصوص موقعها البحري في مقابلة صقلية، جعلها لاشك تعتبر صالحة لأن تكون عاصمة للولاية. ومن الطبيعي إذن أن لا يعامل بها الوالي وكأنه ضيف. فهو في قصره، وبموكبه الباهر المكوّن من الرومانيين، وبخدمه، وحرسه الفوارس والمشاة، وحملة الأشعرة الدالة على سلطته، كان يظهر بمظهر السيد.

والحقيقة أنه كان سيدا على جميع إفريقيا Africa بالرغم عن الحقوق التي يملكها مجلس الشيوخ في إدارة الولاية.

وهي حقوق واسعة جدا، نظريا على الأقل. لأن مجلس الشيوخ هو الذي كان يحدد سنويا عدد القوات العسكرية والبحرية التي تُجْعل رهن إشارة الحاكم. ويحدد الاعتمادات المخصصة للنفقات العامة (Sumptus Provinciae)، وجرايات الجنود، وأجور الموظفين الصغار، وشراء مؤن الجنود، ولشؤون المعتمدين، والمتصرف المالي، وحاشية الوالي، كما يعين له القدر المالي الإجمالي المخصص لمصاريف أسفاره وإقامته (Vasarium). كما أن مجلس الشيوخ هو الذي يراقب أعمال هذا الممثل للسلطة الرومانية، ويلزمه - إذا دعت الضرورة لذلك - باحترام قانون الولاية Lex provincia وجميع القوانين والمراسيم التي جاءت لتتمم أو تعدل القانون. وباستطاعة المجلس أيضا أن يبعث له بتعليماته وأن يطالبه ببعث القرارات، كما يراجع الحسابات التي يجب أن تقدم إلى المتصرف المالي بالحضرة تبريرا لما استعملت فيه الاعتمادات، (باستثناء اعتمادات

الأسفار والإقامة). والمجلس أيضا يستطيع أن يستمع لممثلي سكان الولاية الذين يقدمون تشكياتهم على يد القنصلين. وقد حدث ذلك فعلا في سنة 66 حين كان كاتلينا Catilina يشغل منصب بروقنصل بإفريقيا. ولعل مثل ذلك قد وقع أيضا بنحو ثلاثين سنة من قبل.

ولكن المجلس لم يكن عمليا يستخدم حقه في المراقبة، فقد كان ينقصه الوقت، وينقصه حب التدخل في الجزئيات الصغيرة الإدارية والمالية والقضائية، كما كان قليل الاستعداد لأن يعطي الحق للمحكومين ضد أحد أعضائه. وأخيرا، وحيث أن المجلس لم يكن بنفسه هيأة قضائية، فإنه كان مجردا عن أنجع وسيلة للمعاقبة على التفريط.

من المسلّم أن بعضا من الحكام القدماء كان بالإمكان اتهامهم باختلاس الأموال أو بغيره من الجرائم وتقديمهم للمحاكم الخاصة (Quaestiones perpetuae)، والحكم عليهم إذا ثبتت تُهْمتهم، بالنفي وبإعادة الأموال المختلسة، وربما بمصادرة جميع ما يملكون. وتقديمهم هكذا للمحاكم كان من حق المحكومين والمواطنين على السواء. غير أن هذا العمل كان يحدق به خطر كبير، حتى ولو كان المشتكون يعتمدون على مساعدة حماة عظام. فكثيرا ما يكون للمتهم أصدقاء ذوو نفوذ، وشركاء غالبا من مجلس الشيوخ أو من طائفة الفرسان، في حين أن هذه المحاكم تكونت على التوالي من أعضاء المجلس ومن الفرسان من 123 إلى 81، ثم تكونت من أعضاء المجلس من 81 إلى 80 وأخيرا من أعضاء المجلس والفرسان وطائفة أخرى من المواطنين. فأعلنت براءة كاتلينا الذي توبع بتهمة الاختلاس في 66-65، لأن ب. كلوديوس P. Clodius الذي تكفل بالدفاع عن قضية الأفارقة، خانهم واتفق على ما يقال مع البروقنصل السابق.

وعلى هذا فإن الحاكم يبقى حرا في استعمال سلطته وفي استغلالها، لأنها كانت واسعة جدا، وهي مع غير المواطنين تكاد تكون مطلقة. وليس لدينا في هذا المجال معلومات عن إفريقيا، ولكن ظروفها كانت لاشك هي نفس الظروف في الولايات الأخرى.

لقد كان القضاء وحفظ الأمن من بين المهام المختلفة الكبرى المنوطة بالبريطور، أو البروبريطور أو البرقنصل، الذي كان يساعده مستشاروه ويفصل في الخصومات في محل إقامته بأوتيكا، وربما في جلسات تعقد أيضا في مواقيت محددة بمدن أخرى كانت مراكز لدوائر قضائية. أما عن القضاء الجنائي الذي لا يستطيع فيه أن ينوب عنه، فقد كان له فيه حق الحياة والموت على المحكومين، لا على المواطنين الرومانيين. أما القضاء المدني فكان يتطلب أوسع حصة من وقته، حتى أن كورنيفسْيوس بروقنصل إفريقيا كان يلوم سيسرون Cicéron على أنه لم يكن يكاتبه إلا ليوصيه خيراً ببعض المتداعين. ومع هذا فإن الوالي لم يكن على العموم ينظر في أعماق القضايا، إذ كان يعين للأطراف المتنازعة قاضيا يبحث في الوقائع، وإذا ثبتت صحة الوقائع فإنه ينطق بالحكم الذي سبق أن يعينه له. ومن ناحية أخرى، كان الوالي يستطيع أن يعطي للمتصرف المالي وللمعتمد أو لروماني من حاشيته النيابة عنه فيزاول بمقتضاها سلطات الحاكم القضائية في المسائل المدنية. وكذلك كان للمتصرف المالي قضاؤه الخاص به المعني على الخصوص بالخلافات التجارية.

## 6

كان للحاكم قوة مسلحة يجدها رهن إشارته وتمكنه من حفظ الأمن.

أما الخندق الذي حفره سِيپْيون إيمليان، من طبرقة Thabraca إلى ثيناي Thaenae اتقاء للأخطار الخارجية، فلم يكن ناجعا لأنه كان حدا وليس منشأة دفاعية. ومن خلف هذا الخندق كانت المملكة النوميدية بالنسبة للولاية تكون منطقة حماية واسعة، إذ كان ملوكها في الحقيقة أتباعا لرومة. ومع ذلك فقد كان من الغفلة الركون إلى قوم تضرب الأمثال بخيانتهم التي كثيرا ما أعطوا عليها الحجج. وحتى إذا أمكن الاطمئنان إلى الملوك فهناك الخوف من هجمات رعاياهم العصاة الفتانين، وعلى الخصوص منهم الرحّل، الذين ينتقلون بسرعة ويميلون لغزوات السلب، أما شمال أفريقيا وشرقها فتمتد بهما سواحل طويلة معرضة لهجمات القراصنة الذين كانوا أثناء القرن الأخير من العهد الجمهوري يملكون أساطيل حقيقة يخشاها على السواء أهل سواحل البحر الأبيض المتوسط والسفن التي تحمل المسافرين والبضائع.

وأخيرا، فإن صفو السلام بالولاية نفسها، يمكن تعكيره على يد جماعات من المجرمين أو بالثورات. ونحن نجهل هل قام الأهالي بثورات بين أواسط القرن الثاني وأواسط الأول. ولا نعلم إلا بفتنة واحدة اندلعت بأوتيكا في 82، لم يقم بها الأفارقة، وإنما أحدثها مواطنون رومانيون أرادوا التخلص من حاكم أصبح متجبرا. أما أهل البلاد الخاضعون لرومة، فلاشك أنهم أظهروا كثيرا من الأناة. ومع ذلك فقد كان لازما أن تتخذ تجاههم الاحتياطات العسكرية، خصوصا وأن الجمهورية لم تنشئ أي واحدة من هذه المستعمرات التي كانت نقطا قوية للارتكاز وللمقاومة في الأراضي المفتوحة.

وعدد الجنود كان يختلف بحسب الحاجة والخطر المهدد. وقد قلنا من قبل أن مجلس الشيوخ كان يحدد عدد هؤلاء الجنود كل سنة. ففي

سنة 125، حسب قول أحد الكتاب الذي يروى قوله پول أوروز Paul Orose والقديس أغسطين St Augustin، اجتمع بالقرب من أوتيكا 30.000 جندي، وأن وباء خطيرا أودى بحياة 20.000 منهم في بضعة أيام، لكن لاشك في عدم صحة هذه الأعداد التي قد يكون تيت ليڤ Tite-Live أخذها من أحد الإخباريين الذين اعتادوا مثل هذه المبالغات، إذ لا يظهر في التاريخ المذكور ما يبرر الاحتفاظ بجيش كثير العدد كهذا في منطقة قليلة السعة. وحينما عاد پومْپي إلى أوتيكا سنة 81 بعد الحرب التي انتهت بانتصاره، تلقى من سولاّ Sylla الأمر بتسريح جيشه باستثناء فيلق Légion واحد يبقى معه في انتظار من سيخلفه على رأس الولاية. فمن المحتمل إذن أن هذا الفيلق كان يمثل عدد الجنود في وقت السلام. ويلوح جيدا أن أفريقيا لم يكن بها في بداية 49 سوى فيلق واحد، أي قرابة 4.000 رجل من المواطنين الرومانيين الذين يمكن أن يضاف إليهم بعض الجيوش المساعدة.

فإلى أي حد كان هذا الجيش يؤخذ من إفريقيا؟ لانستطيع الجواب على ذلك. إن المواطنين الرومانيين الصالحين للانخراط في الفيالق لم يكونوا منعدمين بهذه البلاد، رغما عن عدم وجود مستعمرات بها. وفي بداية الحرب الأهلية جند بها آتيوس فاروس Attius Varus فيلقَيْن اثنين بسرعة. ولكن الوقت كان آنذاك وقت أزمة وحشود استثنائية.

ثم إن المدن التي أعلن في سنة 146 أنها حرة، والتي يجب أن تضاف إليها لبدة (لبتيس الكبرى Leptis la Grande) منذ سنة 111 قد كان بإمكانها أن تبعث ببعض الجنود. وأثناء الحرب بين قيصر ويوبا الأول بعثت لبتيس بجيش إلى الملك النوميدي، كما يظهر أن بعضا من أهل أوتيكا قد عملوا سنة 81 تحت إمرة پومْپي حينما قدم إلى إفريقيا

للحرب. ولكن ليس هناك ما يقوم دليلا على أن هذه المدن قد وضعت جيوشا رهن إشارة رومة في وقت اعتيادي، ولا أنها كانت ملزمة أن تفعل ذلك حتى في الظروف الحرجة. وبحكم أن هذه المدن كانت تقع على الشاطئ (باستثناء واحدة هي تودَليس Theudalis) فيصح أن نتساءل : ألم يكن واجب صداقتها لرومة يفرض عليها أن تعينها بسفنها إذا احتاجت إليها؟ ولكن يجب أن نلاحظ مع هذا أننا لا نملك أي نص يبيح لنا تأكيد ذلك، بل لا نعلم هل هذه المدن التي نتحدث عنها كانت تملك سفنا حربية. فالميناء الداخلي المعروف باسم كوثون Cothon ومصنع السفن الذي ذكر أنه كان بـهَدْرميت Hadrumète يرجع عهدهما لاشك للعصر البونيقي، ثم لم يبق للمصنع وجود في نهاية القرن الثاني.

كانت قرطاجة قد أرغمت محكوميها من الأهالي على الخدمة العسكرية. أما الجمهورية الرومانية فكانت على العموم تعتبر من الحيطة عدم إلزام محكوميها بمثل هذا الواجب.

غير أن بعض الضرورات الملحّة هي التي جعلتها تقبل انخراطات المتطوعين في الجيش. أما أنصار پومْپي فإنهم عندما كانوا يستعدون لمحاربة قيصر لم يتوانوا في إلزام أهالي أفريقيا وإرغامهم على الانخراط في الجيش.

وكذلك فإن الأمراء النوميديين والموريين Maures حلفاء الجمهورية كانوا يقدمون لها في أوقات الحرب المساعدات إذا طلبتها منهم، لا لشمال إفريقيا فحسب، بل وحتى للخارج. وإذا حدثت فتن أهلية كان لهم أن يقدروا الجانب الذي تعتبره مصلحتهم هو رومة الحقيقية. ونجهل هل كان جيش الولاية يضم في أوقات السلام مساعدين نوميديين وموريين.

كل هذا الجيش حسبما يرويه پول أوروز P. Orose كان في 125 متجمعا بالقرب من أوتيكا. أما في العهد الإمبراطوري فإن أكثرية الجيوش، سواء بإفريقيا أو بغيرها من المناطق، كانت تقيم على طول الحدود. ولكن هذا كان مما استحدثه النظام الجديد. ومن المتأكد، علاوة على ذلك، أن معسكرا كبيرا كان موجودا من قبل بالقرب من أوتيكا، وكان رهن إشارة الحاكم. وأنه كان في سنة 49 يوجد عند أسوار المدينة نفسها، بين المدينة والملعب. ولعل هذا المعسكر قد نقل إلى هذا المكان بسبب الحرب التي كانت مندلعة آنذاك، ولزم على ما يظهر أن يضمن الاتصال المتين بين المدينة والجيش الذي قد يدعى للدفاع عنها، والذي كان يأخذ أوقاته منها. أما في أوقات السلام فإن هذا الجوار قد كان له من المساوئ أكثر مما له من المنافع. ولهذا يصح أن نتساءل : ألم يكن هذا المعسكر على بعد قليل من المدينة ؟ ولعل أنسب محل له هو الذي يبعد عن أوتيكا بثلاث كيلوميترات على خط مستقيم، وهو المرتفع الذي تحصّن به سيپْيون الإفريقي أثناء الحرب البونيقية الثانية، ثم استولى عليه من جديد أحد الجيوش الرومانية سنة 149.

ويصعب، زيادة على هذا، التصديق بأن الولاية لم يكن بجهات أخرى منها، جيوش مكلفة بحفظ الأمن بين المحكومين، وكذلك بصد الهجمات المباغتة التي قد تأتي من المملكة النوميدية أو من البحر.

فقد كانت هذه الهجمات تهدد على الخصوص المراكز الآهلة بالسكان، حيث يستطيع النّهاب أن يجمعوا بسرعة غنائم كثيرة. وفي العهد القرطاجي كانت عدة من المدن والأرباض في المنطقة البونيقية محاطة بأسوار تحميها. فلم يكن إذن للرومانيين من سبب لتهديم أسوار

هذه المدن التي أعلنوا في 146 إنها مدن حرة. وعمليا نجد كاتب مذكرات حرب قيصر نفسه يذكر بعد قرن من هذا الزمان أسوار أكثر هذه المدن مثل أوتيكا Utique، هَدْروميت Hadrumète، لِبْتيس الصغرى Leptis la Petite، ثَبْسوس Thapsus وأشولا Acholla. ولم تكن هذه الأمكنة وحدها هي المحصنة آنداك، لأن نفس المذكرات تخبرنا أن مدنا أخرى غيرها تقع بداخل البلاد قد كانت محصنة أيضا، مثل أوزيتا Uzitta، أگار Aggar، زيطا Zeta، تيسدْروس Thysdrus، وبْرادا Parada. وتطلق المذكرات كلمتي أوبِدا Oppida وكَسْتيلا Castella على مدن وأرباض تقع على الساحل وبالداخل، وهاتان الكلمتان تدلان على أن هذه الأمكنة كانت محاطة بالأسوار.

على أن بعضا من هذه المراكز قد جعله أنصار پومْپي Pompée من عهد قريب صالحا للدفاع، يشهد بذلك نقش عن مدينة كورُبيس Curubis بشبه جزيرة الرأس الطيّب، إذ يتحدث عن الخدمات التي أجريت هناك من أسوار، وحصون، وأبواب سرية، وخَنْدق أنجزت في 49-48 على ما يحتمل، ولا يتحدث النقش على أن هذه الخدمات كانت إصلاحات. ولكن كان خصوم قيصر يكتفون على العموم بإصلاح وتقوية الأسوار التي وجدت قبلهم، مثلما فعل كاتون Caton بأوتيكا.

إذن، فإذا كان الرومانيون أثناء الحرب البونيقية الثالثة وبعدها، قد هدموا قسما من تحصينات هذه المواقع الحصينة، فإنهم قد أذنوا لهم بحمل السلاح، إذ في كل مكان تقريبا، كان السكان هم الذين يدافعون عن أنفسهم. ولم يكن من عادة حكومة رومة الإكثار من عدد الحاميات وتوزيعها على الأراضي.

كما أن بعض المزارع الكبرى كانت محصنة. وقصة حرب سنة 46 تذكر واحدة منها بالقرب من أوزيتا Uzitta جنوبي هَدْرُميت، كان يقوم على جوانبها أربعة حصون.

وكذلك فإن القرطاجيين كانوا قد أقاموا على طول السواحل أبراجا للمراقبة، يرون منها السفن المشبوهة ويخبرون بها. وقد تحدثت عنها النصوص اللاتانية. وكانت تُدعى في بعض الأحيان باسم أبراج حنّيبَعْل، وكانت فائدتها أكبر من أن تسمح بالتخلي عن استعمالها.

هل كانت هذه الوسائل الدفاعية كلها ذات مفعول ناجع ؟ نشك في ذلك إذا علمنا أن پومْپي سنة 67، أثناء قيادته الاستثنائية ضد القراصنة، قد سارع بالقدوم إلى إفريقيا ليجعل بها حاميات ومحطات بحرية، أما البوادي فإن الأمن بها كان دائما معرضا للخطر. من ذلك أن رفيق قيصر لما تحدث عن عادة حفر المطامير تحت المزارع والحقول لخزن الحبوب، عزا هذه العادة للخوف من الهجمات المباغتة ومن السلب. ولكن يظهر، مع ذلك، ان المزارع المنعزلة قد كانت كثيرة، وقد سبق أن قلنا إن هذا النوع من المساكن لم يكن مستعملا بكثرة لدى الأهالي الذين كانوا يحرصون على سلامتهم فيتجمعون عادة بقرى تقع على المرتفعات كلما أمكن ذلك، الأمر الذي كان يعرضهم، طبعا، لإضاعة الوقت وللمشاق عند توجههم لأعمالهم. فإذا كان كثير من المزارعين بالمنطقة الرومانية قد جرؤوا على أن يعيشوا منبتين خلال البادية، فلأنهم لاشك كانوا يأملون أن لا يندموا على ما فعلوا.

## الكتـاب الأول

# ولاية أفريقيا تحت حكم الجمهورية

## الفصل الثاني

# المدن الحرة، الأهالي المحكومين، المواطنون الرومانيون

### 1

كانت سبع من المدن قد تخلت من ذات نفسها عن قرطاجة أثناء الحرب البونيقية الأخيرة. وبالنسبة لأوتيكا فإنها فعلت ذلك قبل أن تندلع هذه الحرب. وكما ينص على ذلك القانون الزراعي لسنة 111 ق.م، كانت هذه المدن قد أقبلت ومكثت في صداقة الشعب الروماني. وفي سنة 146، عند تسوية قضايا إفريقيا منحتها رومة «الحرية». وقد كان هذا العمل من جانب رومة تفضلا، يمكن أن يلغى بقانون بقرار لمجس الشيوخ، لأن الجمهورية لم ترتبط بميثاق Foedus يمكن أن يجعل هذه المدن مساويات لها قانونيا، ويلتزم به الطرفان.

وقد ذكر قانون 111 هذه الشعوب الحرة كما يلي :

"... populorum leiberorum Uticensium, Hadrumetinorum, Tampsitanorum, Leptitanorum, Aquilitanorum, Usalitanorum, Teudalensium".

بينما مصادر أخرى ذكرت أوتيكا، ولبتيس، وزيلا Zella، وأكيلا Acylla أو أشولا Acholla ووصفتها بأنها مدن حرة وهذه المدينة الأخيرة، يجب من غير شك، أن نسلم بأنها هي التي دعي سكانها في القانون الزراعي باسم أكيليتاني Aquillitani. أما صيغة أشولا فيظهر أنها أسلم صيغة لاسم كتب على عدة أشكال وكذلك مدينة من يُدْعون باسم أوزليتاني Usalitani فقد قيل إنها أوزليس Uzalis، أي المدينة التي ذكرت في وثائق ترجع لعهد الإمبراطورية وكانت تقع بين أوتيكا وبنزرت. وقد سبق أن أجبنا على هذا بأن الأراضي التي تخلت عنها رومة لأوتيكا في 146 كانت تمتد إلى بنزرت، فيستنتج من هذا أن لا محل لمدينة حرة بين المدينتين. ومن ناحية أخرى، فإن مدينة زيلا Zella الحرة التي يتحدث عنها سترابون Strabon، لابد أن تكون مذكورة في القانون الزراعي، وهي لا يمكن أن تكون سوى مدينة من دُعوا باسم أوزَليتاني Usalitani. ولكن مدينة زيلا Zella هذه، حسب ما يذكره الجغرافي سترابون كانت في نفس الناحية التي بها ثَبْسوس Thapsus وأشولا Acholla، فيحسن القول بأنها هي المدينة التي ذكرت في وثائق متأخرة باسم أوزولا Usula أو باسم أوزيلا Usilla. فقد طرأ تحريف على الإسم الوارد في النسخ المخطوطة من سترابون، وأخطر من ذلك أن التحريف طرأ حتى على النص الرسمي لقانون روماني، أي على نص ليس مجردا مع ذلك من الأخطاء. فعوضا عن أوزَليتانوروم Usalitanorum كان يجب أن يُكتب أوزيليتانوروم Usillitanorum أو أن تكتب بصيغة أوزوليتانوروم Usulitanorum.

من بين هذه المدن السبع كانت ستّ على البحر. فأوتيكا كانت على خليج تونس، بينما هدرميت، ولبتيس الصغرى، وثَبْسوس، وأشولا، وأوزولا تتابعت بفارق قليل بين خليجي حمّامات وقابس. وكانت كلها

مستعمرات قديمة للفينيقيين أو القرطاجيين. أما السابعة وهي تودَليس Theudalis فماضيها مجهول لدينا، وكانت تقع على بعض المسافة من الساحل خلف بحيرة بنزرت.

في سنة 111 أصبحت لبتيس الكبرى (لبدة) الواقعة بين خليجي سَدْرة، صديقة وحليفة للشعب الروماني. ويمكن أن يكون وضعها من الناحية القانونية أحسن من وضع المدن السبع، وأن تكون قد ارتَبَطت مع روما بميثاق صريح للتحالف، إذ أنها كانت في الحقيقة أكثر استقلالا، لأنها بقيت خارج الولاية، بينما المدن الأخرى كانت بالولاية كالجيوب.

وصفة مدن حرة، كانت روما تصبغها على بعض من المدن التي تتمتع بقليل أو كثير من الحرية. بينما لم تكن المدن الحرة Civitates liberae في إفريقيا على عهد الإمبراطورية سوى الجماعات (القرى) غير الرومانية، فلم تكن إذن تحمل لقب مستعمرة ولا مونكِبْيوم Municipe، غير أنها كان لها موظفونها المسؤولون الذين تنتخبهم هي، ولا يرجعون في أمورهم إلا لحاكم الولاية، لأن حرية هذه المدن لا تشمل الإعفاء من الضرائب. ولكن الحرية التي خولتها روما للشعوب السبعة كانت واسعة جدا. فأراضيها لم تدخل ضمن ملكية الشعب الروماني التي شملت الولاية كلها باستثناء هذه الجيوب، ولهذا لم تطبق عليها عملية مسح الأراضي والتقسيم الكنتوري اللذين قرر تطبيقهما على ما يظهر منذ الاستيلاء على الولاية. وليس لدينا معلومات دقيقة عن اتساع مناطق مختلف هذه الشعوب الحرة، غير أن بعض الإشارات تساعدنا على الاعتقاد بأن منطقة هَدْرُميت كانت تتغلغل بعيدا عن هذه المدينة نحو الشمال الغربي ونحو الجنوب.

وهذه المناطق التي لم تكن رومة ترى لنفسها عليها أي حق في الملكية، كانت معفية من الضريبة العقارية وكذلك الضريبة الشخصية، فإنها أيضا لم تطبق على الشعوب السبعة. وبذلك فإن هذه المدن التي كانت قرطاجة تفدحها لاشك بالأعباء المالية قد أصبحت (Librae et Immunes) أي حرة ومعفية.

فهي تتمتع باستقلال بلدي كامل، وتحتفظ بقوانينها وقضائها، على الأقل في القضايا المدنية وحينما لا يكون الرومانيون طرفا في الخصام. ومن المحتمل جدا أن هذه المدن قد كان بها - كما بالمدن الفينيقية على العموم - موظفون علاة يعرفون باسم شوفيط Sufètes، ومجلس بلدي أو مجلس شيوخ ومجلس للمواطنين. وقد حوفظ على هذا النظام. فهناك نصوص تذكر أن بأوتيكا مجلسا للشيوخ وأركونتات. وكلمة أركونت هي الترجمة الإغريقية للفظ شوفتيم Shofetim أي أسباط.

هل استطاعت هذه المدن الحرة أن تضرب نقودها وهو الحق الذي منعتها قرطاجة منه ؟ على كل لا شيء يؤكد بأنها استعملت ذلك في عهد الجمهورية الرومانية. هناك قطعة نقدية من البرنز من هَدْروميت قيل إنها من سنة 88 ق.م، عليها كتابات لاتانية ظن من قرأنها أنها اسم البريطور الذي كان آنذاك يحكم إفريقيا. ولكن هذه القراءة خطأ. إذ أن هذه القطعة إنما تؤرخ بعهد كانت فيه إحدى الجماعات تقيم بِهَدْروميتْ تحت حكم واحد من المثنيين Duumvir. فهي إذن رومانية أو لاتانية من عهد أغسطس أو تيبير Tibère. كما أن هناك قطعا نقدية غير متقنة الصنع، عليها كتابة بونيقية هي (T G، = ع ت گ،) يظهر أنها أكثر قدما، وقد عزيت إلى أوتيكا. ولكن الأمر ليس متأكدا. وعلى النقيض من ذلك لِبْتيس الكبرى التي يتأكد أنها ضربت دونيات من الفضة. وهو أمر فريد من

نوعه، لأن جميع النقود البلدية الإفريقية من البرنز. فلاشك إذن أن هذا العمل كان استثنائيا وقصير الأمد، إذ لم يعثر إلا على عدد قليل من هذه الدونيات. وكلها من نوع واحد. ويظهر أنها لم تُسَكّ قبل منتصف القرن الأول ق.م. ونحن أميل إلى الاعتقاد بأن لِبْتيس قد روّجتها أثناء الفتن التي يمكن ان تكون الخدمات التي قدمتها لبتيس آنذاك إلى الملك النوميدي يوبا وأنصار پومْپي ضد قيصر، قد دفعتها إلى أن تطمح لتلعب دور الدولة ذات السيادة.

وقد أضافت رومة إلى الحرية التي خولتها سنة 146 تفضلا آخر، وهو أن لجنة العشرة قد أعطت «للشعوب الحرة Populi liberi» أراضي خارج مناطق هذه الشعوب، وإن كانت هذه الأراضي قد بقيت من الوجهة القانونية ملكا للشعب الروماني، بحيث ليس لمن خُوّلت لهم سوى حق التمتع. ونحن نعلم أن الجمهورية الرومانية قد أظهرت كثيرا من الكرم في هذه المسألة مع أهل أوتيكا الذين استطاعت مزارعهم أن تمتد إلى قريب من مكان قرطاجة (أي إلى نحو من ثلاثين كيلومترا بالجنوب الشرقي من مدينتهم). وكذلك إلى قريب من بنزرت (أي نفس المسافة بالشمال الغربي).

ويمكن أن نسلم بأن رومة ألغت كليا العراقيل التي كانت قرطاجة قد فرضتها على تجارة هذه المدن البحرية، وإنها بهذا ساعدت على نمائها الاقتصادي، كما يتأكد من ناحية أخرى أنها لم تحسن تطهير البحر الأبيض المتوسط الذي كان القراصنة يعيشون به.

ومن الطبيعي أن تجد المدن الحرة في رومة حاميا لها. ففي سنة 108 عجز حكام لِبْتيس الكبرى عن صيانة الأمن فبعثوا إلى ميتِلّوس Métellus الذي كان يقود الحرب ضد يوغرطة، يطلبون منه أن يرسل

إليهم حامية. ونفس المدينة كان لها بعد نصف قرن من هذا التاريخ مصاعب مع جارها يوبا الأول، فبعثت تشكو لمجلس الشيوخ الذي أرسل عنه وسطاء قضوا لصالح لبتيس. ورغما عن كون أهل أوتيكا كانوا في قبضة أنصار پومْپي أثناء الحرب الأهلية، فإنهم كانوا يميلون إلى قيصر، وذلك بسبب الفوائد التي كانوا يجنونها من القانون اليوليوسي Lex Julia الذي كان يوليوس قيصر استصدره، في سنة 59 على الأكثر، أي في سنة قنصليته، لأنه كان خارج رومة بعد ذلك. ونحن نجهل المنافع التي خولها هذا القانون لأوتيكا. غير أن مومْسِن Mommsen وآخرين معه افترضوا أن هذه المنافع هي دمجها في القانون اللاتاني الذي من بين منافعه تخويل حق المواطنة الرومانية لقادة المدينة Magistrats municipaux وهو افتراض واهم لأن سيسَرون Cicéron في إحدى خطبه الدفاعية التي ألقاها سنة 54 ق.م وصف أوتيكا بأنها : «صديقة الشعب الروماني ومدينة حرة». إذن فقانون المدينة لم يطرأ عليه تغيير منذ 146. والتغيير الذي حدث كان سنة 36 أي حينما تحولت المدينة إلى مونكبيوم رومانية. نعم إن بعض أهل أوتيكا قد نالوا حق المواطنة الرومانية ولكن ذلك كان استفادة شخصية.

ولم يكن هذا الموقف الطيب الذي اتخذته رومة حيال المدن الحرة بإفريقيا ليجر عليها أي خطر، لأن جميع هذه المدن - باستثناء لبتيس الكبرى - تحيط بها الولاية. بل إنها كانت في الحقيقة جزءاً منها، ولو أن منطقتها لم تكن قسما من التراب الذي يملكه الشعب الروماني. فقد كانت تخضع للسلطة العليا للحاكم الذي لم يكن يخشى استغلالها. ففي إحدى هذه المدن وهي أوتيكا كان الحاكم يقيم، وبالقرب من أوتيكا يعسكر معظم الجيش الموضوع رهن إشارته. كما أن هذه المدن البحرية كانت حتما هي أبواب الولاية. منها يخرج الرومانيون، ومنها

يدخلون بكل حرية، وبها يضعون الدواوين البحرية. وليس من المحتمل أن تكون هذه المدن والمناطق التابعة لها مناطق بحرية حرة Zones Franches، وإلا لسهّل ذلك عمليات التهريب. فيظهر إذن أن حصانتها المالية لم تكن تامة. ويصح أن نتساءل: ألم يكن لهذه المدن التزامات عسكرية وبحرية ؟ وهل القضاء الجنائي لم تكن فيه القضايا المهمة من اختصاص الحاكم ؟ وسنرى أن المواطنين الرومانيين المقيمين بهذه المدن كانوا يكوّنون بها جماعة متميزة تحمل اسم «الجالية Conventus» ويحتمل أنهم كانوا لا يرجعون إلا للحاكم. وأياً ما كان فإنهم لم يكونوا يخضعون للقضاة المحليين. ذلك أمر لاشك فيه بالنسبة للقضايا التي يختصم فيها جانب روماني مع آخر من أهالي المدن الحرة، ذلك ما نَفْتَرضه على الأقل، لأن ما يتعلق بإفريقيا بخصوص هذه المسألة، لم يوضحه لنا أي نص.

## 2

وجدت رومة بالمنطقة التي استولت عليها سنة 146 - زيادة على المدن السبع التي أعلنت أنها حرة - عدة من المستعمرات البحرية الفينيقية والبونيقية التي كان لها نظام بلدي، ولها منطقة ترابية، كما وجدت رومة بها الأهالي الخاضعين لقرطاجة Sujets وهم الذين كان الإغريق يطلقون عليهم لقب ليبيين Libyes ويسميهم اللاتانيون باسم أفري Afri.

ولاشك أن هؤلاء الأهالي كان عددهم لايزال كثيرا بالرغم عن ثلاث سنين من الحرب. وكان أكثرهم يعيشون في قرى وأرباض ويتعاطون الزراعة. وقد تكون الدولة البونيقية أعلنت ملكيتها العقارية لجميع التراب

الإفريقي الذي امتدت إليه سيادتها، باستثناء مناطق مستعمرات الساحل والأملاك الخاصة ببعض المواطنين القرطاجيين. وعلى هذا فما كان للأهالي سوى حق الانتفاع بالأراضي التي يستثمرونها، ولو أنها عمليا لم تنتزع منهم ولا من ورثتهم إلا بسبب خطير. كما كانوا ملزمين بأن يدفعوا للجمهورية البونيقية قسما من محاصيلهم هو الربع في الأوقات الاعتيادية وقد يبلغ النصف في أوقات الأزمات. وكانت الضرائب تجبى في «المدن» أي حيث يتجمع السكان. ونحن نجهل ماهيتها. (فهل كانت ضرائب شخصية ؟ Capitation).

وكذلك لا ندري كيف كان هؤلاء الناس يُحكمون. هل كانت قرطاجة تجعل عليهم موظفين قرطاجيين، أو رؤساء من الأهالي ؟ أم كانت تسمح بإقامة جماعات قروية Communes Villageoises – مع مراقبتها – كالتي نجدها عند كثير من البربر المستقرين بمجلس مكون من القدماء (الشيوخ) وشيخ ينتخب في الغالب؟ ولعل هذا الشيخ، اقتداء بالأنظمة البونيقية، قد كان يدعى بلقب سوفيط Sufète (سبط). كما يصح أن نفرض أن هيأة من عضوين او أكثر، كانت على وجه الاقتداء أيضا، تقوم هنا وهناك مقام الموظف المسؤول الوحيد Magistret unique وبهذا تكون الجماعة الليبية قد اقتربت من المدينة الفينيقية. وهو افتراض محتمل ولكنه غير ثابت بالطبع.

بعدما انتصرت رومة، قررت تهديم جميع المدن – كل المدن البونيقية والحلل الأهلية – التي بقيت مستميتة في وفائها لقرطاجة، والتي لزم أن تؤخذ عنوة، وفوق ذلك، فقد سبق لعدد من المدن أن هدمت بمجرد سقوطها. ومن المتأكد أن من لم يمت من سكانها قد سيق مع القرطاجيين إلى الاسترقاق، وبذلك أصبحت الأراضي التي كانوا يزرعونها خالية.

غير أن أغلب الليبيين كانوا في هذا الوقت أو ذاك أثناء الحرب قد تقدموا بخضوعهم. فهم إذن مستسلمون déditicii بأشخاصهم وبما يملكون. وبمستطاع رومة أن تفعل بهم ما تريد. وكل ما تتنازل لهم عنه قابل لأن يلغى. أما الأرض فقد أعلنت أنها ملك لها. وعلى هذا فإن الاستيلاء لم ينتج عنه سوى أن تحول الملكية من يد الجمهورية القرطاجية إلى يد الجمهورية الرومانية، إذا كانت الأراضي التي يستثمرها الأهالي ملكا للدولة.

ويظهر أن رومة قد قسمت هذه الأراضي إلى قسمين، أوّلهما خصت به نفسها لتستعمله فيما تريده في المستقبل. والثاني، وهو الأكبر على ما يحتمل، تركته عمليا بين أيدي محكوميها وخولته لهم قانونيا وكأن لم يكن في حيازتهم من قبل.

ولكنها فرضت على الأشخاص والأرض اسْتيبانْديوم Stipendium. ويطلق الرومانيون هذه اللفظة على الضريبة التي يطالبون المغلوبين بدفعها تأدية لمصاريف الحرب. وقد كانت من قبل تستعمل في أداء جرايات الجنود. ثم حولوها إلى ضريبة دائمة على الشعوب المغلوبة. فهي كما قال عنها سيسَرون Cicéron (ثمن الانتصار، والعقاب المنزل عقب الحرب). ولكون الأفارقة ألزموا بأداء ضريبة اسْتيباندِيوم، فإنهم صاروا يدعون باسم اسْتيبانْدياريي Stipendiarii. بهذا اللفظ عرفوا في عدة نصوص متقدمة على عهد الميلاد المسيحي : أي في قانون 111، وفي الكتابات التي نقشت بإفريقيا، وفي سيسَرون وقصة حروب قَيْصر.

ونلاحظ في قانون 111 أن الأراضي المخولة للأهالي (اسْتيبانْدياريي) كانت ضمن الأملاك العامة تكوّن صنفا متميزا جدا. فالدولة لم تتخل مطلقا عن حق ملكيتها لهذه الأراضي، وهي تستطيع

استرجاعها من أيدي حائزيها، وقد فعلت ذلك. لكن، وفي صالح الأمن العام، كان يجب أن لا يعيش الأهالي (اسْتيبانْدياريي) مهددين دائما بخطر الطرد. وباستثناء ما قد تدعو له إحدى الضرورات القصوى، فإنهم كانوا – مثلما كان عليه أجدادهم في قرطاجة على ما يحتمل – يبقون على حيازتهم للأراضي التي يزرعونها، والتي هي مسجلة بهذه الصفة في لائحة التكسير، بحيث يستطيعون أن يورثوها لذريتهم. وينص قانون 111 على أن الأراضي المخولة للستيبانداريي، إذا أخذت أو كانت ستؤخذ منهم لتصير ملكا لأحد المواطنين، فإن لهم الحق في نيل عوض معادل لها من الملك العمومي، وأن هذه الأراضي المخولة الجديدة يجب أن تسجل في لائحة التكسير. وهكذا تتحول الأراضي المعوض بها إلى صِنْف مزارع الستيباناديوم Agri Atipendiariorum. وسنرى أن هذه المَزارع تتحمل التزامات خاصة، لأن الدولة كانت ستتضرر إذا كانت الأراضي، من غير تدخلها، تخرج من هذا الصنف لتدخل في صنف آخر أكثر فائدة. وعلى هذا فيجب أن نفرض إما أن مزارع الستيبانديوم كانت تبقى على وضعها حتى ولو آل اقتناؤها لغير اسْتيبانْدياريي، وإما أن هؤلاء وحدهم هم الذين يمكن أن يقتنوها، بحيث إذا كان لهم حق بيعها، فإنهم لا يستعملون ذلك الحق إلا لفائدة اسْتيبانْدياريي مثلهم. وفائدة هذه الأوامر هي عرقلة إزعاج الأهالي عن أراضيهم، الأمر الذي يمكن أن ينشأ عنه اضطراب اجتماعي.

وقد فُرض على هذه الأراضي ضريبة دعيت مرة باسم اسْتيبانْديوم Stipendium (أي العقاب المنزل بالمغلوبين) ومرة باسم ڤيكتيگال Vectigal (أي الدخل الذي يستفيده المالك من أملاكه). أما قرطاجة فكانت فرضت على محكوميها حصة فيما تنتجه الأرض، بينما لم تنهج رومة هذا النهج. وقد لاحظ سيسرون أن معظم الأفارقة (غير الشعوب

الحرة المعفية تماما) لم يُلزَموا بنفس ما ألزم به أهل صقلية فيما يتعلق بالضريبة العقارية. إذ كانت هذه الضريبة في صقلية عبارة عن قسم من الثمار تتغير قيمته كل سنة طبعا، وهذه الطريقة هي التي طبقها القرطاجيون في كل من إفريقيا وصقلية وسردانية. في حين أن رومة كانت على النقيض من ذلك تجبي من محكوميها الأفارقة ضريبة ثابتة. إذن فسواء أكانت المحاصيل جيدة أم رديئة - وهي بإفريقيا كثيرة التفاوت - فإن على الأفارقة أن يؤدوا نفس القدر، اللهم إلا إذا حدثت ظروف بالغة القسوة، فيسعفهم مجلس الشيوخ بتخفيض استثنائي.

كان القدر المالي يحدد لمجموع الولاية، وذلك، على ما يظن، هو ما عناه سيسرون Cicéron بعبارة Vectigal Certum وكان من اختصاص مجلس الشيوخ أن يثبت ذلك القدر من المال - وبذلك جرت العادة لاشك - أو أن تغيره عند تصويته على الميزانية السنوية لإفريقيا. ومن الواضح أن تحديد هذا القدر من المال لم يكن يتخذ من غير تبصر، فقد كان أساسه إحصاء مزارع استيبانْدياريوم Agri Stipendiariorum المقسمة - على ما يحتمل - إلى عدة طبقات حسب قيمة الأراضي. وهذا الإحصاء قد ساعد عليه عملية المسح التي أجريت بالولاية عقب الاستيلاء عليها. وبعد تحديد المجلس للقدر المالي الإجمالي المفروض، يشرع في توزيعه على مختلف الدوائر المالية التي كان يجب أن تحدث (أو أن يحافظ عليها إذا كانت قد أحدثت في العهد البونيقي). ويظهر أن هذه الدوائر كانت تدعى باسم باگي Pagi. وإذا كان أهل ثلاث من هذه الباگي - وهم اسْتيباندياريي - قد أقاموا حوالي سنة 60 ق.م ثمثالا للمتصرف المالي، فلاشك أن هذا العمل كان منهم اعترافا بجميله عليهم أثناء قيامه بمهامه المالية. إذ في كل منها كان تقسيم الأعباء المالية يقع

بين الستيبانْدياريي ويراعى فيه مساحة الأرض، وربما قيمتها. وتبقى الضريبة الإجمالية على الولاية سنة عن سنة هي هي، إلا إذا حدث سبب خطير يدعو المجلس للتغيير، فينشأ عن ذلك أن مزارع اسْتيباندياريي لا يطرأ على مجموعها تغيير، وإن الضريبة التي حددت إجمالا، تبقى فحسب، بل حتى بالنسبة لهذه أو تلك من قطع الأرض التي يمكلها أحد المؤدّين.

ويمكن أن تكون الضريبة قد أديت بالغلات في هذه الأرض الإفريقية التي كانت تساهم مساهمة واسعة في تزويد رومة بالطعام. وفي هذه الحالة يصح أن نتساءل : هل حددت بإمداد القمح الذي كانت قيمته النقدية تتغير بحسب المحصول في كل سنة، أو حددت بالعملة ؟ وهذا هو الأصوب. وبهذا يكون القدر المالي قابلا للتحويل إلى حبوب بحسب السعر الرسمي. ولكننا لا نجد في النصوص جوابا على هذا السؤال.

وقد طولب الأهالي بالضريبة على نحو آخر. فالمؤرخ أپْيان Appien يذكر أن رومة لم تفرض الضريبة على الأرض فحسب، بل فرضتها كذلك على الأشخاص من رجال ونساء. ونحن لا نعلم شيئا عن هذه الضريبة الشخصية التي لا يمكن أن تُؤدَى إلا نقدا، والتي كانت – بالنسبة للمزارعين – تضاف إلى ضريبة اسْتيبانديوم المفروضة على المزارع. وهل كانت تفرض بشكل واحد ؟ أم كانت – وذلك أقرب إلى الصواب – أخف على الفلاحين منها على أهل المدن الذين لا يملكون أرضا؟ هل كان لهم اعتبار قياسي ؟ ذلك أن الضريبة على العبيد مثلا، كانت أخف من الضريبة على الرجال الأحرار، وهؤلاء كانوا مقسمين إلى عدة طبقات، كل بحسب ثروته. فكل هذه أشياء نجهلها.

أما لجباية هذه الضرائب فكانت هناك ثلاث طرق ممكنة :

1) جباية مباشرة على يد وكلاء للدولة، وهذه تفرض وجود عدد كبير من الموظفين، وإدارة متشعبة لم تكن من عادة الجمهورية الرومانية، وقد لا يحسن تسييرها المتصرفون الماليون الذين لا يمكثون بالولاية إلا سنة واحدة.

2) الجباية على يد السلطات المحلية. وسنرى أن رومة على ما يظهر، ولمدة طويلة لم تكن ترى لهذه السلطات وجودا رسميا.

3) وأخير هناك الجباية ببيعها La ferme، وهي الطريقة المعتادة في العهد الجمهوري لجباية المداخيل العامة. فهناك نقش لا يرجع للعهد الذي ندرسه هنا، وإن كان ليس متأخرا عنه، لأنه يؤرخ بأوائل عهد الإمبراطورية على الأكثر، هذا النقش يشهد ببيع الجباية بولاية إفريقيا. فيصح الافتراض بأن هذه هي وحدها التي كانت مستعملة.

ونحن نعلم أن هذا البيع كان يتم بالمزاد، وأن هذا المزاد – كما قال سيسرون سنة 63 – لا يمكن أن يقع إلا برومة، غير أن هذا ليس صحيحا، لأن المزاد كان يقع بسِرَقوسَة Syracuse بالنسبة لأعشار صقلية، كما يخبرنا بذلك سيسرون نفسه في الفيرّينيات Les Verrines. والمزايدات في رومة من مهام الناظر Censeur، غير أن سيسرون في أحد فصول الفيرينيات عارض بين الضرائب العقارية التي كانت بولاية آسيا تجري مزايداتها على يد الناظر، وبين الضرائب التي كانت تطلب من أكثرية الأفارقة. فيمكن أن نستنتج من هذا أن النظار لم يكونوا يتدخلون في ضرائب اسْتيبانْديوم بإفريقيا، وأن المزايدات كانت تقع بإفريقيا نفسها. أما في صقلية فالمزايدات لتحصيل أعشارها Dîmes

كانت تجري سنويا على يد البريطور بالنسبة لقسم منها، وعلى يد المتصرفين الماليين الاثنين للقسم الآخر. وتكون المنطقة التابعة لكل مدينة منطقة مزاد، والمحصلون يتقاضون فائدة مئوية فيما يحصلونه. ومن غير أن أؤكد أي شيء، أراني أميل إلى القول بأن نظاما مشابها قد كان معمولا به بالنسبة لمزارع اسْتيبانْديوم بأفريقيا، وأن دوائر التحصيل هي الباگي Pagi، وأن المتصرف المالي كان على ما يحتمل يجري المزايدات ويقبض المتحصل من الضرائب. وربما كان يقوم ببعض المراقبة، بل لعله كانت له سلطة قضائية على كيفيه التحصيل، وذلك هو ما يفسر نصب تمثالين لاثنين من هؤلاء المتصرفين الماليين، أحدهما نصبه المؤدّون من عدة دوائر، والثاني نصبه المحصلون للستيپانديوم بالولاية.

كيف كانت إدارة هؤلاء الأهالي المغرمين بين أواسط القرن الثاني وأواسط القرن الأول ؟ تلك مشكلة فيها كثيرا من اللبس، فبينما قانون 111 ينص على أن بعض الأراضي قد خولت للشعوب الحرة Populi liberi أي لجماعات، وعليها (أي الشعوب الحرة) أن توزع تلك الأراضي بين مواطنيها، إذا بالقانون لا يذكر أن جماعات أو قبائل قد حصلت، وفي نفس الأحوال، على مزارع اسْتيبانديوم. إذ كانت اللجنة التي ساعدت سيپْيون سنة 146 ق.م قد أعطت هذه الأراضي (أي مزارع ستيبانديون) لأشخاص بأعيانهم Hominibus. ومن هنا وقع استنتاج يظهر أنه على صواب، وهو أن رومة لم يعترف آنذاك بالوجود القانوني لأي جماعة بولاية إفريقيا غير المدن الحرة. ومع ذلك فيحسن أن نذكر أن رومة كانت تنفر من إدخال التغيير على أنظمة الشعوب المغلوبة، وأنها قليلا ما كانت تودّ إدارة محكوميها بالحكم المباشر.

لاحظنا من قبل وجود دوائر تدعى باسم الباگي Pagi. فهل كانت ميراثا عن الجمهورية القرطاجية التي لم تستطع - كما لم تستطع

روما – أن تدير مقاطعتها كتلة واحدة، ومن غير أن تجزئها ؟ إن الأمر ممكن، ولكن لاحجة لنا عليه. لقد ظهرت لنا الباگي على أنها دوائر مالية، *ولربما كانت بالمراقبة والفصل في الخصومات في واحد أو أكثر من* هذه الباگي ويجب القول بأننا لم نعثر لذلك على أثر.

فإذا كان هؤلاء الولاة قد وجدوا، فإنهم غير كافين لحكم قوم لا يعرفونهم ولا تستمر علاقاتهم بهم طويلا، ويجهلون حتى لغتهم، فيستسلمون إذن للمترجمين الذين غالبا ما تكون مصلحتهم في تغليطهم. فالمدن والأرباض والقرى التي يسكنها المغرمون (ستيبانْدياريي) لابد أن يوجد فيها من بين هؤلاء الأهالي أناس صالحون لحفظ الأمن، ولتبليغ إرادات الحكومة وتشكيات المحكومين، وللسهر على تنفيد الأوامر، وإعطاء المعلومات اللازمة للذين يوزعون الضرائب ولمن يحصلونها. فروما كانت إذن مرغمة على قبول وحفظ وضع قائم، تظهر أنها كانت تتجاهله.

وعلينا أن نضع سؤالا: هل دامت هذه الملهاة قرنا بكامله؟ هل أَلَمْ يقع الاعتراف رسميا، في حقبة لا يمكننا تحديدها، أو في حقب مختلفة بحسب الجهات، بالأنظمة المحلية ؟ ذلك الاعتراف الذي هو الوسيلة الوحيدة لجعل السلطة ومسؤولية الرؤساء غير موفوضين. فقد أشار كاتب مذكرات حرب َقيْصر إلى أن إفريقيا توجد بها مدن Civitates أي جماعات ويوجد بها كبراء Nobiles ورؤساء Principes على رأس مدنهم. وكانت إحدى هذه المدن وهي ثيسْدروس Thysdrus قد حكم عليها الديكتاتور بأداء غرامة، وذلك لاشك نوع من الاعتراف بوجود المدينة. هذه الأنظمة يمكن أن تكون هي أنظمة القرى البربرية. فمدن الساحل، ذات الأصل الفينيقي أو البونيقي والتي لم يعلن أنها حرة، كان بها على

مايحتمل النظام البلدي القديم بمجلس للشيوخ وسوافيط Sufètes (أي أسباط). ولعل هذا النظام وُجِد حتى بالمراكز التي كان الأهالي يسكنونها وحدهم.

تشهد بعض النقوش اللاتانية أن عددا من المدن في العهد الإمبراطوري الروماني، كانت من ضمن ولاية إفريقيا القديمة وكان لها مجلس شيوخ. كما بها سِبْط Sufète أو أكثر يُعيّن لسنة واحدة. غير أن لفظ سبط لا يمكننا أن نستتنج منه جماعات حافظت على نظام أحدث في إفريقيا جماعات جديدة على الطراز البونيقي بسوافيط (أسباط)، مثال ذلك ما أحدثته بقرطاجة سنة 28 ق.م.

ومع ذلك، فلدينا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الولاية قد وجد بها منذ العهد الجمهوري جماعات يسيرها أسباط، فهناك نقش بثلاث لغات هي اللاتانية، والإغريقية والبونيقية عثر عليه بهَنْشير عْويّن قريبا من أودية Oudna بالجنوب التونسي مؤرخ بسنة حكم السّبْطَيْن المسمَّيَيْن عبد ملْقارت Abdmelqart وأدونيبَعْل Adonibaal. غير ان النص الذي باللغة الفينيقية قد كتب بخط في حالة تطور، وهو إلى الخط البونيقي أكثر قربا منه إلى البونيقي الجديد، ويمكن أن يرجع على وجه التقريب إلى بداية القرن الأول ق م. وفي النص اللاتاني نجد (facta L.M. Cos) فإذا قرأنا هذه الجملة المختصرة على أنها: (facta lucio Marcio Consule) تأكدْ تاريخ النقش بسنة 91. وبالقرب من الحمامات يوجد الإهداء المنقوش باللغة الفينيقية على ضريحين أقامهما مواطنو تينسْموت Tinismut في سنة حكم السبْطَيْن خِيملْك Himilk وخيملْك ابنَ أَنْكان Himilk fils d'Ankan. فيظهر من الأسماء المذكورة في هذا النقش أن تينسْموت لم تكن مدينة ذات أصل بونيقي، وإنما هي محلة لقوم من الإهالي الذين

اتخذوا العادات البونيقية. لكن هنا أيضا نجد أنفسنا أمام خط يتطور، ولاشك أنه ليس متأخرا عن منتصف القرن الأول ق م. وإذا كانت المحال Bourgs والمدن قد وجد فيها قضاة حقيقيون فلمزاولة القضاء المدني وعلى نطاق ضيق. أما الدعاوي المهمة فكانت على ما يظهر مخصصة للحاكم الذي كثيرا ما كان يسندها لمفوّضيه. وعلى كل حال، فالأهالي من سكان أقاليم الولاية قد حافظوا على حقوقهم، بحيث كانوا إذا حكموا لدى الرومانيين، كان على هؤلاء أن يحيطوا أنفسهم بمستشارين قادرين على أن يوضحوا لهم الغوامض.

وهل كان الخاضعون لرومة أسعد حالا من آبائهم تحت السيطرة القرطاجية ؟ للإجابة على هذا السؤال، يجب أن نعرف قدر الضرائب المفروضة عليهم، وأن نعرف إلى أي مدى بلغ إطلاق العنان الذي كان يسمح به لأنفسهم محصلو هذه الضرائب ورجال الحرب، والحاكمون وحاشياتهم، وربما حتى السلطات المحلية على الخصوص. وكلها أشياء نجهلها.

إن الجمهورية لم تكن تهتم بتحسين الأحوال المادية والأخلاقية للأهالي، وكانت تكتفي بمطالبتهم بأداء واجباتهم، وبأن يمكثوا هادئين حتى ولو كان لديهم ما يسوغ غضبهم.

ولقد نال البعض منهم، جزاء على خدماته العسكرية، حق المواطنة. وخلف هذا الحق لأبنائه. فلابد أن هؤلاء الرومانيين المحدثين كانوا بأخلاقهم يريدون تبرير وضعهم الجديد بعض الشيء. وحيث لم يقع العثور بجميع ولاية إفريقيا القديمة على أي نقش لاتاني يتعلق بهم، فإن ذلك يكفي لأن نعتقد بأنهم لم يكونوا كثيري العدد.

# 3

إذا كانت رومة لم تحاول إدخال الأفارقة في العائلة الرومانية، فإنها
كذلك لم تكن تريد توطين جالية مهمة من الرومانيين في إفريقيا لقد
حاولت في هذا الصدد محاولة واحدة بين سنة 146 و46 ق.م. ولكن هذ
المحاولة قضت عليها في مهدها الأرستقراطية التي كانت آنذاك متحكم
في الدولة.

بعد ان هدم سيپْيون مدينة قرطاجة أعلن أن مكانها حرام، لا يسكن
أحد بأرضها، ولا يمر بها محراث، وربما لا ترعى بها ماشية. ولكن بعد
مرور 23 سنة قرر النقيب الشعبي كيوس گراكوس G. Gracchus أن يقيم
بها مستعمرة للمواطنين الرومانيين، تكون أول مستعمرة تؤسس خارج
إيطاليا. وإلى ذلك العهد كانت المستعمرات الرومانية عبارة عن نوع من
المعاقل أقيمت لمراقبة الشعوب المغلوبة. أما التي أراد النقيب إحداثها
فتكون مساكن للعمال الذين يفدحهم البؤس، وتعطى لهم الأرض
فينتعشون بالعمل، ويصيرون قوة للجمهورية عوض أن يكونوا خطرا
عليها. ولاشك أيضا أن كيوس قد فهم أن من الخطأ العظيم المخالف
للمصالح الحقيقية لرومة، أن يحكم بالدثور الأبدي على هذه البقع
الجميلة لقرطاجة المقابلة لصقلية والتي هي على عتبة حوضي البحر
الأبيض المتوسط، عند مدخل إفريقيا، كما فهم أن انتصار سيپْيون
إيمليان لابد فيه، لكي يكون خصبا، من إعطاء رأس لاتاني لهذه المنطقة
البونيقية العتيقة. فقد كانت الأرض المحيطة بقرطاجة تتمتع بكونها كثير
الخصب. ولكن قبل سنتين أي في 125 ق.م انتشر وباء شديد أودى بعدد
كثير من سكانها. إذن فمن الممكن القيام بتوزيع للأرض على نطاق
واسع، ومن غير أن يحرم الأهالي من الأراضي التي يحتاجون إليها.

إن القانون الذي تأسست قرطاجة بمقتضاه قد أذن على ما يحتمل لمؤسسيها أن ينشأوا بإفريقيا مستعمرات أخرى غيرها. وقد اقترحه النقيب روبْريوس Rubrius الذي كان يعمل بإيعاز من زميله كيوس، ووقع التصويت عليه سنة ق.م، ولا ندري بالضبط عدد المعمرين الذين حددهم القانون، فهم لاشك عدة آلاف، وإن كانوا أقل من 2000، وأقصى ما كانت تبلغه مساحة القطع هو 200 يوجير، أي مساحة كنتورية واحدة (أكثر بقليل من 50 هكتارا). ثم انتخب الشعب بعد ذلك ثلاثة قادة استثنائيين لتأسيس المستعمرة Illviri coloniae de ducendae. وكان أحد هؤلاء الثلاثة كيوس گْراكوس الذي أعيد انتخابه نقيبا للسنة الموالية. أما الإثنان الآخران فنجهل اسميهما. وبالرغم عما ذكره أپْيان Appien فإن من المشكوك فيه أن أحدهما هو م. فُلْفيوس فْلاكوس M. Fulvius Flaccus الذي كان نصيرا متحمسا للگراكيين وزميلا لكيوس منذ سنة 130 باعتباره أحد الثلاثة المكلفين بتوزيع الأراضي العمومية بإيطاليا، كما كان قنصلا سنة 125 ونقيبا مثل كيوس سنة 122. فَبْلوتارك Plutarque خلافا لذلك يقول : إن فُلْفيوس لم يصاحب كيوس إلى قرطاجة.

كان على المكلفين الثلاث أن يعينوا المنطقة الشاسعة للمستعمرة المراد إنشاؤها. فإذا كانت أرض الولاية سبق أن قسمت إلى كنتوريات، وهذا هو رأينا، فإن الخدمات التمهيدية يمكن أن تسير بسرعة، إذ يكفي أن يقع الاختيار على الكنتوريات وتقسيمها إلى قطع. غير أن بعضا من هذه الكنتوريات كان بيد الأهالي الذين يجب أن يعوض لهم بمكان آخر من أراضي الشعب الروماني، وكان يحسن أن تؤسس المأوي لهذه الآلاف العديدة من الرجال الذين سيفدون على الولاية إذ أن كيوس ورفيقه يجلبون منهم 6000، وهو عدد يفوق ما حدده قانون روبْريوس Lex Rubria وكان من بين الوافدين المواطنون الرومانيون كما كان من

بينهم عدد من الإيطاليين. ولا نعلم هل نال المكلفون الثلاثة حق تخوي
المواطنة الرومانية لهؤلاء الإيطاليين أم لا.

وكان الرحيل في أوائل ربيع 122 عند افتتاح الفصل المناسـ
للملاحة البحرية. وقد أخطا أپْيان Appien لما ادعى أن كيوس وفلفيوس
انتقلا إلى قرطاجة قبل اختيارهما للمعمّرين، الذين لم يرحلوا – مع ذل
– إلى إفريقيا، نظرا لإلغاء المستعمرة، فهناك نصوص أخرى تشهد بأ
المكلفين الثلاثة قد قاموا على وجه التدقيق بالواجبات المنصوص علي
في تسميتهم، والتي تفرضها في مثل هذه الحال تعليمات قديمة. فق
كانوا على رأس المعمرين وقادوهم عسكريا، يتقدمهم الشعار – بع
نزولهم للبر – إلى المكان المعيّن وقاموا بالطقوس المعتادة من ذب
القرابين، واستخارة العرّاف للتأكد من رضا الآلهة، وغير ذلك، ث
خططوا نطاق المدينة وهيأوا الإقامة النهائية لمن سيسكن بها.

وتم تأسيسها بنفس المكان الذي كانت به قرطاجة البونيقية، وذل
بالرغم عن كون سيپْيون أعلن أنها حرام. وأحرزت اسم يونونيا Iunonia
لأن الرومانيين كانوا يرون أن يونو Iuno ربّتَهم، هي تانيتْ بيني بَعْ
Tanit Péné Baal المعبودة الكبرى للقرطاجيين. ولعل كيوس لما سم
قرطاجة الجديدة بهذا الاسم، أراد أن يجلب إليها رعاية الربّة الت
هيمنت على المدينة القديمة.

ووزع المكلفين الثلاثة عن طريق القرعة قطع الأرض على المعمري
سواء بالكنتوريات أو بالبواقي وجعلوهم مالكين لها. وقد كانت جمي
هذه القطع صالحة للزراعة، (– ولم يوزع غيرها عند تأسيس
المستعمرات –) غير أنها لم تكن جميعا متساوية القيمة، الأمر الذي نا
حظه من الاعتبار عند تحديد المساحة، ويظهر أن الحد الأقصى الذ

قرره قانون روبريوس وهو 200 يوجير، قد وقعت مجاوزته احيانا، غلا ان القطع كانت بصفة عامة غير متسعة.

وفي إيطاليا كانت القطع التي أعطيت آنذاك من الملك العمومي لا تتجاوز 30 يوجيرا. لكن هذا العدد لم يكن يكفي في إفريقيا لضمان معاش أسرة بزراعة الحبوب. وبعد عشرين سنة طالب أحد النقباء أن يعطي لقدماء المحاربين بولاية إفريقيا قطع من الأرض تبلغ 100 يوجير (أزيد بقليل من 25 هكتارا). فإذا كان هذا هو معدل مساحة القِطَع بمستعمرة قرطاجة، فإنها تكون مجموعا من 150.000 هكتار.

وبعد سبعين يوما، كان كيوس قد انتهى جميع ما أوجب حضوره. فعاد إلى رومة التي حل بها في أواسط الصيف، إبان الانتخابات لمنصب النقابة الشعبية. وقد تقدم للانتخابات وفشل فيها.

كان الأرستقراطيون يكرهونه إلى حد أن هذا السبب وحده جعلهم يكرهون المستعمرة التي كان هو منشئها الحقيقي. وكانوا لاشك يخشون أن هذه الآلاف من المواطنين المتشبثين جميعا بالحزب الديمقراطي يحوّلون ولاية إفريقيا إلى معقل لهذا الحزب. كما كانوا يذكرون الإنذار الذي كثيرا ما صاح به كاتُون Caton منذ ثلاثين سنة خلت، وهو : «يجب تدمير قرطاجة». ولم يكونوا يفهمون أن الظروف تغيرت، وأن قرطاجة الجديدة ليست معرضة لأن تسقط في أيدي مسنيسّا فيجعلها عاصمته، بل على النقيض من ذلك، إنها ستكون أحسن سنَد ودعامة للقوة الرومانية في إفريقيا. وكثيرا ما كانوا يرددون أن مدينتي صُور Tyr وفوقيا Phocée اللتين أسستا قرطاجة ومرسيلية، قد تضاءلتا أمام مستعمرتيهما، وأن من الإجرام تهيئة نفس الحظ لرومة، وأن الولايات يجب أن تكون ملكا للشعب الروماني السيد، لا أوطانا لقسم من هذا الشعب.

ويفشل كيوس في الانتخابات تجاسر أعداؤه الذين عزموا على تحطيم ما قام به من أعمال، وعلى الخصوص منها مستعمرة قرطاجة، وذلك عندما خرج من منصب النقابة في نهاية السنة. فأحدثوا ضجة عظيمة حول ظهور بعض العلامات الغيبية Présages التي تؤكد، حسب قولهم، شِدة غضب الآلهة على الإثم الشنيع الذي ألغى العمل العظيم الذي حققه سيپْيون. من هذه العلامات الغيبية، أن المعمرين لما وصلوا هبّت عليهم ريح انتزعْت الشعار الذي كان يتقدمهم من أيدي الرجل المكلف بحمله وكسرته، وأن الزعازع شتت القرابين الموضوعة على المذابح، ورمت بها خارج النطاق المحدد للمدينة الجديدة، وأن الذئاب – ولنقُل إنها بنات آوى Chacals لأن الذئب غير موجود بإفريقيا – اقتلعت أوتاد الخشب التي وضعها ماسحو الأرض، وزادوا أنها قضمت هذه الأوتاد. وادعى البعض أن هذا جرى على الأراضي التي كانت ستعطى للمعمرين، وأن الأمر يتعلق بالأوتاد المخصصة لتحديد القطع الأرضية، وجرى ذلك – حسب قول الآخرين – على أرض قرطاجة نفسها حيث كان الأمر أشد خطورة، لأن هذه الذئاب بعثتها الآلهة لتبين بوضوح أن الآلهة تكره أن يقع التعدي على تراب حرام. وأستشير العرّافون فلم يجيبوا بخير عن هذه المستعمرة المهددة بمثل هذه الأهوال.

وخرج كيوس من منصب النقابة، فوجد خصومه الميدان أمامهم واسعا، وإن كان يظهر أن مسألة قرطاجة لم تطرح على البساط رسميا إلا بعد بضعة أشهر. ولعل واحدا من القنصلين لسنة 121 وهو لوسيوس أوبيميوس L. Opimius قد دعا الشعب بطلب من مجلس الشيوخ للنظر في المسألة. ولا داعي لأن نذكر هنا الأحداث التي تلت، ولكن بعد يومين مات كيوس مقتولا، وألغي قانون روبريوس، وأُقْبِرت مستعمرة يونونيا.

ومرة أخرى اعلن أن تراب قرطاجة حرام. واستثناه القانون الزراعي لسنة 111 من بين الأراضي العمومية التي توخذ عنها الأعشار وضرائب الرعي، فلا يؤذن بالزراعة في أرضها ولا بإدخال الماشية إليها. وعلى أنقاض قرطاجة المخربة، كان ماريوس سنة 88 يعرض شقاءه على الأنظار. وبعد سبع سنوات جدد پومپي تكريس سيپيون للمكان، فأقام معابد للآلهة التي كرست لها أرض قرطاجة. كما أن سيسرون Cicéron وهو قنصل لسنة 63 قد رد بغضب مفتعل على النقيب سرفيليوس رولوس Rullus Servilius الذي طالب ببيع أرض المدينة اللعينة.

ولكن النبلاء لم يستطيعوا مع ذلك أن ينتزعوا القطع الأرضية من أولئك الذين سبق للمكلفين الثلاثة ان أسكنوهم بإفريقيا. ولعل بعض المنتدبين أو القضاة الاستثنائيين قد كلفوا بتسوية القضايا الناتجة في نفس الحين عن إلغاء المستعمرة وبقاء المعمرين. وهناك قطعة مشوهة من نقش لاتاني عثر عليها في قرطاجة، نقشت في وقت متأخر جدا، احتفظت لنا جزئيا بأسماء ثلاثة رجال لزمهم أن يتخذوا بمفردهم أو مع زملاء لهم تدابير مهمة، واستحسن الناس، ولو بعد مدة، حفظ ذكراها وهم : «... Galba (..Pa) pirius Carbo, (...Calp) urnius Bestia» فلاشك أن الأخير هو لوكيوس كَلْبورنْيوس بيسْتِيا L. Calpurnius Bestia الذي كان نقيبا سنة 121 وقنصلا سنة 111، وأن النقش يرجع لحدث متقدم على عهد قنصليته الذي انحطت فيه سمعته بسبب سلوكه مع يوغرطة، مما أوجب الحكم عليه بعد ثلاث سنوات. أما الشخص الثاني فيمكن أن يكون كنيوس بَبيْريوس كارْبو Cn. Papirius Carbo الذي أصبح قنصلا في 113. ولنا الخيار فيما يتعلق بالأول بين سرفيلْيوس سولبيسْيوس كَلْبا Ser. Sulpicius Galba قنصل سنة 108، وبين كيوس سولبيسْيوس

گلبا C. Sulpicius Galba الذي حكم عليه في نفس الوقت مع كلبورنيوس بيستيا L. C. Bestia فلابد إذن أن قدوم هذه الشخصيات إلى إفريقيا تلا عن قرب القرار الملغى لمستعمرة يونونيا. ولنا أن نتساءل : ألم يكن على رأسهم بوركيوس كاتو P. Cato الذي مات بإفريقيا وهو لم يزل قنصلا في بحر سنة 118 ؟

ويتضمن قانون 111 مجموعة وافرة من الشروط المتعلقة بالأراضي المخوّلة بمقتضى قانون روبريوس. ومن المؤسف أن النص مبتور بترا يجعل فهمه غامضا. ومع ذلك، فإن ما بقي منه يشهد أن المعمّرين حافظوا على ملكية قطعهم الأرضية وتمسكوا بها، وكان بمستطاعهم طبعا أن يمكّنوها لورثتهم، كما كان بمستطاعهم بيعها. (ولعل هذا البيع كان ممنوعا عليهم في قانون روبريوس) : وحيث أن الأرستقراطيين لم يكونوا يرغبون في بقائهم، فإن البيع كان أحسن السبل لجعلهم يرحلون بلطف. ونعلم أن الأراضي العمومية المخولة للأفراد في إيطاليا بمقتضى قوانين الگراكيين، هذه الأراضي كانت تخضع لأداء رسم الفيكتيگال (vectigal) الذي كان مع ذلك خفيف العبء، وكان المقصود منه التذكير على وجه الخصوص بأن الأراضي لاتزال من الوجهة القانونية ملكا للدولة غير أن ليفْيوس دْروسوس Livius Drusus زميل گايوس في سنة 122 كان قد أسقط أداء هذا الرسم. ونحن نجهل هل القطع الأرضية المخولة بالمستعمرة التي أنشئت في نفس السنة فوق تراب ولاية إفريقيا كانت مزارع فيكتيگالية agri vectigales، أي خاضعة لأداء الرسم ؟ أو كانت معفية تماما من الأداء agri privati ex iure Quiritium، وللمعمرين عليها الحق المطلق في الملكية ؟ غير أن المتأكد – وقانون 111 يشهد لذلك – هو أن هذه الأراضي كانت بعد بضع سنين مزارع خصوصية فيكتيگالية agri privati vectigalesque سواء أكانت

من قبل على هذا الوضع وبقيت عليه، أو أنها تحولت إليه. ولم يقع إعفاؤها من ذلك إلا بعد زمان طويل أي في عهد الإمبراطور سِبْتيم سِڤير Septime sévère الذي أسبغ على المستعمرة الرومانية بقرطاجة القانون الإيطالي Ius Italicum فنقل ترابها على جناح الخيال إلى إيطاليا وأنشأ بها، نظرا لذلك، الملكية الخاصة.

هكذا كان حظ مستعمرة يونونْيا Colonia Iunonia. وأكثر المعمرين لم يكونوا بالتأكيد فلاحين، متعودين على العمل الفلاحي، وقادرين على الاستفادة منه، بل كانوا يتألمون من منفاهم بالبادية الإفريقية. ولاشك أن الكثيرين من بينهم قد استعملوا إمكانية البيع المتوفرة لديهم، ثم عادوا إلى إيطاليا. ولابد أن هذه القطع الأرضية اشتراها أصحاب رؤوس الأموال الذين لم يقيموا بإفريقيا، وإنما استعملوا لحراثتها العبيد أو الأهالي. وفيما عدا أراضي المعمرين كذلك، حصل في الأراضي العمومية التي وقع بيعها بروما على يد المتصرفين الماليين. وهكذا أمكن تكوين المزارع الشاسعة التي يملكها رومانيون، ولم يكن بها سوى القليل من ذوي الأصل الإيطالي من أمناء ومسيرين وغير ذلك. ولم تنشأ مستعمرة أخرى بالولاية قبل عهد يوليوس قيصر.

وكانت القوانين وقرارات مجلس الشيوخ تستطيع أن تقرر أن بعضا من الأراضي العمومية لا تخصص لمنطقة إحدى المستعمرات، بل تُعطى مجانا لأفراد لا يكونون جماعة للمواطنين الإيطاليين. ولا نعرف إلا حالة واحدة جرت على هذا المنوال بإفريقيا في العهد الجمهوري. ففي سنة 103 اقترح النقيب لوسْيوس أبولْيوس ساتورْنينوس L. Appuleius Saturninus قانونا تم التصويت عليه، يأمر بتوزيع قطع من 100 يوجير في إفريقيا على الجنود القدماء Vétérans الذين عملوا تحت إمرة

ماريوس. ولم ينفذ هذا القانون على عجل، لأن ماريوس كان في حاجة إلى جنوده الأبطال لمحاربة التوتونيين والسِّمْبِريين، لكن من المحتمل أن تكون هذه الأراضي قد دفعت لمن خولت لهم، بعد الانتصار الذي حصل عليه مارْيوس في معركة ڤِرْكاي Verceil في يوليوز 101، وينبغي أن لا نخلط بين هذا القانون الصادر في 103، وبين غيره من القوانين الصادرة سنة 100، أثناء قيام أبوليوس بمهام النقيب للمرة الثانية، والتي ترمي إلى إنشاء المستعمرات وتوزيع الأراضي في عدة ولايات لم تذكر إفريقيا من جملتها، على أن هذه القوانين قد ألغيت من بعد. وإن صح أن بعضا من قدماء المحاربين قد نالوا أراضي من الملك العمومي بإفريقيا، فإنهم لم يخلفوا من ورائهم، لا هم ولا ذريتهم، أي أثر قطعي. فهم أيضا استطاعوا أن يستفيدوا من إمكانية بيعهم لأراضيهم.

نستنتج من هذا الذي عرضناه أن عدد الرومانيين والإيطاليين الذين ثبتوا على الأرض الإفريقية يحرثونها، كان عددا ضعيفا لاشك. إذ لم يعثر على نقوش لاتانية لا من أنصاب أو إهداءات، بل ولا من شواهد قبور تشهد بوجودهم. وهناك ثلاثة نقوش لم تحل، نقشت على ما يظهر بإحدى اللهجات الإيطالية، عثر عليها بأمكنة يقرب بعضها من بعض، بوادي نهر مِلْيان Miliane بالجنوب الغربي من قرطاجة. وهذه النقوش تتشابه محتوياتها، أما الحجارة التي تحمل هذه الكتابات فيلوح عليها أنها كانت أنصابا، غير أنها لم تكن أنصابا رسمية لأن لغتها ليست هي اللاتانية. هذا كل ما عثر عليه بمجموع الولاية. ولنضف أنه ليس من المؤكد أن هذه الكتابات المعماة ترجع للعهد الذي ندرسه.

وتَوارُد الجنود في وقت الحرب يجتذب من مختلف الجهات البعيدة المتأخرة غيرَ المرغوب فيهم ممن يتطلعون للأرباح، وينفضون بعودة السلام.

لقد سبق أن كان بقرطاجة البونيقية تجار إيطاليون، ولما تكونت الولاية قدم إليها عدد من الرومانيين والإيطاليين باحثين عن الثروة، فكان منهم تجار يصدرون القمح على الخصوص، ويجلبون الخمور وغيرها من منتجات الهضبة الإيطالية، كما كان منهم رجال أحرار ينتمون لمؤسسات مختلفة كالنقل البحري أو البري، ومزودو الجيش أو الحاكم وحاشيته، ومشترو الضرائب والعائدات العمومية، وأصحاب البنوك الذين كانوا يتعاطون الربا الفاحش. كان هؤلاء جميعا أصحاب مؤسسات ورؤساء مصالح، أما الوظائف الصغرى فمخصصة بالمعتقين أو العبيد، وأكثرهم من أصل شرقي. على أن أكبر الأعمال كانت بين أيدي الفرسان Chevaliers الذين لم يكن الكثير منهم يتقاعسون عن الهجرة. وكذلك كان لبعض الأعضاء من مجلس الشيوخ مصالح بالولاية، يسيرونها على يد رجال ثقات، وربما رحلوا بأنفسهم، وفي هذه الحالة كانوا يطلبون (البعثة الحرة Legatio libera) التي تخول لهم التشريفات، وتخولهم حتى بعض الاقتصاد في نفقات سفرهم، فمن خلال عدد من الرسائل المكتوبة في المدة المتراوحة بين 44-43 نجد كاتبها سيسرون يوصي كورْنيفيسْيوس Cornificius بروقنصل إفريقيا بمجموعة من هؤلاء الرومانيين وهم: شخص يدعى ت. بينارْيوس T. Pinarius المكلف بحسابات وشؤونه «ديونيسْيوس صاحبنا» (لعل هذا كان أحد العتقاء الأغنياء). وشخص آخر هو: سكستوس أوفيديوس S. Aufidius الفارس الموصى به وبجميع شؤونه بإفريقيا، ثم ورثة شخص يدعى ك. توريوس Q. Turius الذي كانت له مصالح بالولاية، والمهم منع معتقه توريوس أروس Turius Eros من تحويل الميراث، ثم ل. أيليوس لاميا L. Aelius Lamia العضو بمجلس الشيوخ، يوصي سيسرون الحاكم خيرا به وبشؤونه وبوكلائه ومعتقيه وعبيده. ثم ك. أنيسيوس C. Anicius عضو آخر بمجلس الشيوخ، نال من «أجل شؤونه» البعثة الحرة إلى إفريقيا، فالرجاء من كورنفسيوس أن يقدم إليه حَمَلَة الأشعرة Licteurs.

أما الذين لم يكن يكفيهم المرور على استعجال، فإنهم كانوا يقيمون بالمدن مددا متفاوتة الطول. فقد كان يقيم بمدينة ثيسْدروس Thysdrus مثلا، إبان الحرب بين أنصار پومْپي وقيصر، عدد من الإيطاليين الذين يشتغلون بتجارة القمح. وقبل ذلك بربع قرن كان يقيم بمدينة لبتيس Leptis شخص يدعى ل. هيرِنْيوس L. Herennius الذي كانت له علاقات بطائفة الفرسان، ويشتغل بالعمليات البنكية في لِبْتيس التي لا ندري هل هي الكبرى أو الصغرى. وفي أواسط القرن الأول كان عدد من الرومانيين يقيمون بهَدْرُميت Hadrumète، وثَبْسوس Thapsus وهما مدينتان حرتان مثل مدينتي لبتيس. ولكي يعاقب قيصر هؤلاء الرومانيين على موالاتهم لأنصار پومْپي، فإنه أنزل بهم جميعا غرامة كانت في كل مدينة أشد مما فرضه على المدينة نفسها، الأمر الذي يجعلنا نفرض أن هؤلاء الإيطاليين - وإن لم يكن عددهم فائقا جدا - كانوا على العموم أكثر ثروة من باقي سكانت المدينتين.

وفي مدينة أوتيكا Utique على الخصوص كان عدد الرومانيين والإيطاليين كثيرا، إذ كانت في آن معا مدينة حرة وعاصمة للولاية. كانوا كثيرين (كثرة تتجاوز المعتاد لاشك بسبب ضرورات الحرب)، في 108-109 أي في العهد الذي كانت تجري فيه محاربة يوغرطة. فكان هناك الببليكانيون Publicani مشترو الضرائب وعائدات الدولة، ومزودو الجيش، والمتاجرون، وأصحاب الصفقات المالية، وكان لرسائلهم التي يبعثونها إلى رومة عن كيفية تسيير العمليات الحربية تأثير على الرأي العام. وفي سنة 82 ثار المواطنون الرومانيون المقيمون بأوتيكا على البروبْرِطور فابْيوس هادْرِيانوس Fabius Hadrianus وأحرقوه في قصره. كما أن الرومانيين المقيمين بنفس المدينة قد وقع الحديث عنهم عدة

مرات أثناء الحرب الأهلية ما بين سنة 49 و 46. ولاشتغالهم بقضايا متنوعة، فإنهم كانوا يكوّنون داخل الشعب جماعة مهمة جدا من بينها عدد من الفرسان.

وكان من بين هؤلاء الرومانيين جماعة من كبار التجار ومجهزي السفن وأصحاب الأموال والثروات الطائلة القادرين على تقديم السلف لحزب پومْپي والمالكين لعدد كثير من العبيد، هؤلاء كانوا يكونون جماعة من ثلاثمائة عضو، يعقدون اجتماعاتهم، ويستشيرهم كاتون Caton المكلف بالدفاع عن أوتيكا. وقد ذكر كاتب إغريقي مجمعهم باسم يطابق كلمة سينَتوس Senatus اللاتانية وقد أخطأ الذين ظنوا أن هؤلاء الثلاثمائة هم مجلس الشيوخ الروماني، وأن حزب پومْپي نقله إلى أوتيكا، وأنه كان مكوّناً من بعض الأعضاء الشيوخ الذين لجأوا إلى إفريقيا ويتممه بعض الفرسان. فبلوتارك Plutarque يميز، بين الثلاثمائة وبين أعضاء مجلس الشيوخ، ويقول إنهم أشخاص يتعاطون التجارة والمعاملات البنكية. ولما انتصر قيصر واستولى على أوتيكا فرض عليهم مجتمعين أداء غرامة من 200 مليون سيسْتيرس Sesterces تدفع على ستة أقساط في مدة ثلاث سنين.

فلاشك إذن أن هذا القدر الضخم من المال الواجب أداؤه في هذه المدة الوجيزة يشهد على أن الرومانيين كان بمستطاعهم أن يحصلوا على ثروات طائلة بإفريقيا، لكن إفريقيا كانت لاشك بالنسبة لأكثرهم حقلا خصبا للعمليات، ولم تكن أرضا يشعرون فيها حقيقة أنهم في أرضهم. والأموال التي يقتنونها بوسائل غالبا ما تكون مجردة عن أي وازع أخلاقي، كانوا يذهبون هم أو ورثتهم لينفقوها في رومة. فهم في هذا كالطيور الكواسر تنقض على الولاية ثم تعود إلى الأعشاش حاملة فريستها.

كان الرومانيون المقيمون بمنطقة غير رومانية يستعملون للتعريف بأنفسهم عبارة : Cives romani qui consistunt (en tel lieu) أي المواطنون الرومانيون المقيمون في... (منطقة كذا...) موضحين بهذا أنهم أجانب بهذه المنطقة. بحيث نجد هذا التعبير منطبقا على الرومانيين بأوتيكا، وسوى ذلك ففي مدينة صغيرة بإفريقيا ذكر التعبير في عهد أوغسطس مع بعض التغيير : Cives romani qui Thinissut) (negotiantur، أي المواطنون الرومانيون المتاجرون بتينِسُّوت. وكذلك فإن نصوصا من أواسط القرن الأول ق.م، قد ذكرت فيها جماعات المواطنين المقيمين ببعض المدن الحرة بإفريقيا ولقبوا بلقب Conventus أي جالية، فمن ذلك جالية أوتيكا وجالية هَدْروميت وجالية ثَبْسوس. ونتساءل : هل يتعلق الأمر بلفظ مبهم ليس له مدلول سياسي، أي «مجموع» المواطنين الرومانيين الساكنين بمكان ليس منطقة رومانية ؟ أو هو لفظ رسمي يطلق على هيأة منظمة لها مجلس ورؤساء ؟ أما في الشرق فإننا لا نلقى قبل العهد الإمبراطوري هذه الجاليات الرسمية التي كان على رأسها مسيرون Curatores، ولهذا فنحن أميل إلى الاعتقاد بأن الحرب بين قيصر وأنصار پومْپي قد كانت لها هذه الميزة. ذلك أن الديكتاتور حكم بالغرامة على جاليتَيْ ثَبْسوس وهَدْروميتْ حكما جماعيا، كما حكم على المدينتين الحرتين. فلابد إذن أنهما كانتا تكوّنان – كالمدينتين – هيأتين منظمتين مزودتين بالإدارة الصالحة لتوزيع الذعيرة وقبضها. ولعل الثلاثمائة كانوا مجلس جالية أوتيكا (أو مجلس شيوخها كما يقول أپيان). والحقيقة هي أن هذا العدد أي 300 مرتفع جدا ويمكن أن يبعث فينا شكوكا حول قيمة ما افترضناه، ولكن يجب أن لا ننسى أن جالية أوتيكا كانت مهمة جدا.

# الكتـاب الأول

# ولاية أفريقيا تحت حكم الجمهورية

## الفصل الثالث

## وضعية الأراضي

### 1

تحوّل جميع تراب الولاية المحدثة سنة 146 إلى ملك للشعب الروماني، ولا يستثنى من ذلك سوى مناطق المدن الحرة. وكانت لجنة العشرة، المكونة من أعضاء مجلس الشيوخ الذين انتدبوا لدى سيپْيون، قد اتخذت من وقت باكر التدابير المتعلقة بهذا الملك. فأقطعت منه قسما كبيرا، كما وقع الاحتفاظ بالباقي إلى أن يبت في أمره من بعد. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الاقتطاعات بقيت ملكا للدولة، تحتفظ بحقها الثابت فيه لتستعمله. ولذلك فقد صدر عدد كبير من القوانين والقرارات وأحكام القضاة في شأن الملك العمومي للشعب الروماني Ager publicus populi Romani في إفريقيا طوال القرن الذي عقب الاستيلاء. ولكننا لا نعرف سوى البعض من هذه الوثائق القانونية والإدارية.

ومن أهمها قانون روبْريوس Lex Rubria الذي قرر سنة 123 إنشاء مستعمرة قرطاجية، يصحبها توزيع عدة آلاف من القطع الزراعية. على

أن إلغاء المستعمرة سنة 121، لم يصحبه كما قلنا إلغاء الاقتطاعات الأرضية. ومع أنه أوجب اتخاذ حلول لعدة قضايا، فإننا - بالنسبة للمدة المتراوحة بين 121 و111 - لا نستطيع سوى الإدلاء ببعض الفروض الضعيفة جدا.

غير أن الحظ حافظ لنا على بقايا من ألواح برنزية تحمل نص قانون صُوّت عليه سنة 111، باقتراح من النقيب سَمْبرونْيوس ثورْيوس Sp. Thorius على ما يحتمل، ويتعلق بالملك العمومي في إيطاليا وإفريقيا ومقاطعة كورَنْثيا Corinthe. وسنهتم هنا بالقسم الثاني من هذا القانون الذي يشمل نصف المجموع (51 سطرا من 105). ولم يبق من هذا النص الثمين سوى أجزاء استطاع بعض العلماء، وعلى الخصوص منهم رودورف Rudorff وموِمْسِن Mommsen، بعملهم ومهارتهم أن يصححوه تصحيحا جزئيا، يترك مع ذلك بعض الشكوك.

قرر هذا القانون إحداث قاض ثان استثنائي (دومْفير duumvir) تخوّل له سلطات واسعة على الملك العمومي بإفريقيا. (إذ يكون له زميل يكلف بمنطقة كورنثيا).

وتتلخص هذه السلط قبل كل شيء في التأكد من حقوق الذين بيدهم حيازة الأراضي المخصصة للمعمرين، سواء أكان هؤلاء هم المعمرين أنفسهم، أم ورثتهم، أم من اشتروا أراضي المعمرين، أم ورثة المشترين. وكذلك فإن مساحات القطع وعددها على ما يحتمل قد وجب أن تعود إلى القدر الذي سبق أن حدده قانون روبريوس، ولو أن هذا القانون قد ألغي، وكانت لجنة الثلاثة في 122 قد تجاوزته، وكذلك وجب جعل حد للتعديات التي كان يأتيها بعض الأفراد. ويأمر القانون الدومْفير أنه بمجرد مزاولته لمهمته، يصدر قرارا يأمر فيه من بيده الأرض حاليا

أن يقدم تصريحا في مدة يظهر أنها 75، ومن لم يقدم التصريح جرد من أرضه. والدومفير – بعد المراجعة والتأكد – يقر لهم حقوقهم إذا كانت شرعية. وكل تصريح زائف يجر طبعا إلى التجريد من الأرض، كما أن من أبلغ به الخبر فإنه ينال قسما من تلك الأرض.

كما أن هناك مسألة خطيرة كان على الدومفير أن يهتم بها، ذلك أن الدولة كانت قد باعت برومة بعضا من الأراضي العمومية في إفريقيا، وأنها تنوي أن تبيع أخرى منها بعد التصويت على القانون. وكانت هذه البيوعات لا تقع على الأراضي الفارغة فحسب، بل حتى على التي هي في أيدي بعض المواطنين الرومانيين وبعض الأهالي المحكومين، وفي أيدي غيرهم جميعا، حازوها عن حق أو عن إنعام وقع بصفة قانونية. ونحن نفرض أن هذه الكيفية في العمل، دعا لها حب تكوين قطع أرضية واسعة متصلة بقصد بيعها، لأن البعض من هذه الأراضي، وهي أملاك خصوصية للمعمرين أو لمن انتقلت إليه حقوقهم، قد وقع بيعها إمّا عن خطأ أو بإكراه. وأما الأراضي الأخرى التي احتفظت الدولة بملكيتها، فإن الدولة استعملت حقها في استرجاعها. غير أن التطبيق الصارم لهذا القانون يكون في نفس الحين جائرا وخطيرا. ولذلك تقرر أن الذين انتزعت أو تنتزع منهم الأراضي ولهم وثائق صحيحة ينالون على وجه التعويض أراضي عمومية فارغة، تعطي لهم بنفس الشروط التي أعطيت لهم بها تلك التي أخذت أو تؤخذ منهم اليوم. وكلف الدومفير بإجراء هذه التعويضات، لا بالنسبة للبيوعات السابقة، بل حتى بالنسبة للتي كانت العمومية التي وقعت في رومة، وتثبيت السابقين من المالكين أو من بيدهم الحيازة للأراضي التي سبق أن بيعت ولكن بشرط أن يعوض للمشترين.

وأخيرا، فإن الدومفير يجب عليه أن يهيئ في مدة 250 يوما لائحة بالأراضي العمومية التي تبقى في إفريقيا، بعد هذه العمليات المختلفة، رهن الإشارة المباشرة للشعب الروماني، ويفرض عليها هذا الشعب الأعشار وضرائب الرعي.

بعد قانون 111 هذا، يأتي في 103 قانون أبوليوس Lex appuleia الذي أمر باقتطاع الأرض في إفريقيا لقدماء المحاربين في جيش مارْيوس Marius، ثم الاتفاق الذي جرى سنة 75 بين القنصل كَيوس أوريليوس كوتا C. Aurelius Cotta وهيمْبسال Hiempsal ملك نوميديا حول أراض من الملك العمومي للشعب الروماني Ager publicus populi Romani يمكلها الأمير النوميدي بولاية إفريقيا. وسنعود للحديث عن هذا. وكذلك يجب أن نشير إلى مشروع قانون قدمه سرْفيلْيوس رولوس S. Rullus إذ في نهاية سنة 64 اقترح هذا النقيب شراء بعض الأراضي في إيطاليا لتأسيس مستعمرة وللقيام باقتطاعات. ويدخل ضمن الوسائل الكفيلة بإيجاد الأموال اللازمة لهذا الشراء، بيع جميع الأراضي العمومية التي بقيت بيد الدولة خارج إيطاليا، أي في إفريقيا. ويدخل رولوس فيها حتى التربة الحرام بقرطاجة، ولا يستثني من ذلك سوى ما يملكه هيمْبسال. غير أن سيسرون Cicéron الذي تولى منصب قنصل في فاتح يناير 63 ألقى أربع خطب ضد هذا المشروع فسحب رولوس اقتراحه.

## 2

كانت لجنة العشرة المؤلفة سنة 146، قد أعطتْ للأهالي داخل تربة الولاية قطعا أرضية كوّنت طبقة خاصة خاضعة لضريبة اسْتيبانْديوم، فبإخراج هذا القسم، يبقى أن أملاك الشعب الروماني في إفريقيا

باستثناء الحديث عن تراب قرطاجة الحرام أي الذي يمكن استثماره، تتكون مما يلي :

1) أراضي المواطنين القرطاجيين، بحيث أن الذين لم يموتوا في الحرب قد أخذوا عبيدا. ولاشك أن هذه الأراضي كانت قريبة من المدينة الكبيرة، وكانت على ملك الأرستقراطية البونيقية الغنية، ومع ذلك فيظهر أن هذه المزارع لم تكن على وجه العموم واسعة الأرجاء.

2) الأراضي التي كانت بأيدي سكان المدن والقرى التي بقيت على وفائها لقرطاجة مدة الحرب الأخيرة. وهذه الأراضي أخذت.

3) قسم من الأراضي التي كانت من قبل بأيدي الأهالي الذين قدموا خضوعهم. هذه الأراضي استولت عليها رومة على أنها غنية. ولعل من الواجب أن يضاف لجميع ما ذكر الأراضي التي ربما كانت جمهورية قرطاجة حافظت فيها على حقها الثابت في الملكية، فاستثمرتها هي أو باعت حق الاستثمار.

ومن مجموع هذه الأراضي الفارغة، وزع العشرة بعضها كما يلي:

1) على المدن الحرة، وقد قلنا أن هذه الأراضي بقيت متميزة عن تراب المدن.

2) للموالين Transfuges الذين جوزيت خيانتهم على هذا النحو. وكانت هذه إنعامات على أشخاص بأعيانهم، لأن هؤلاء الأفراد لم يجمعوا في جماعة شبيهة بالمدن الحرة ومزودة مثلما بمنطقة خاصة. والأراضي التي نالها هؤلاء الموالون بقيت ضمن الملك العمومي، مثلما في ذلك مثل الأراضي التي نالتها المدن الحرة. فالشعب الروماني يمكنه

أن يسترجعها. وقد استعمل حقه هذا فعلا، ولكن مع تقديم تعويض. وهل كانت خاضعة لأداء الفيكتيگال، أي لضريبة كانت خفيفة جدا، بل كانت لا تكاد تذكر، وإنما قررت لتأكيد ملكية روما ؟ هذا ما لا نعرفه وعلى كل حال فإنها لم تكن ملزمة بالأعشار المفروضة على أراضي عمومية أخرى سنتحدث عليها من بعد، ومن الطبيعي أنها لم تكن ملزمة بالستيبانديوم الذي يفرض على الأراضي المعطاة للأعداء القدامى.

3) لأبناء الملك مسِنيسّا. وينص قانون 111 على أن هذا اللإقطاع قد وقع لهم على يد سيپْيُون (رئيس لجنة العشرة). وبعد مرور زمن طويل نجد الملك هيمْبسال ابن حفيد مسِنيسّا يملك على الساحل أراضي قال عنها سيسرون: إن سيپْيون ملّكها Adjugées للشعب الروماني. فهي على هذا تكون قسما من الولاية. وكل شيء يبعث على الظن أنها هي الأراضي التي نالها أبناء مسِنيسّا في 146 من الملك العمومي، وورث منها هيمْبسال. وقد عبر عن حقوق الأمراء النوميديين بألفاظ هي (Habere Fruive et possidere نال وتمتّع وحاز). فيبقى أن الشعب الروماني هو المالك. والمتأكد أن هيمْبسال في سنة 75 قد عقد مع القنصل كيوس أوريليوس كوتا C. A. Cotta حول هذه الأراضي اتفاقية ضمنت له عدم استرجاعها. غير أن هذه الاتفاقية لم تقدم لمصادقة الشعب عليها. فاعتبرها الكثير في رومة غير معمول بها. ومع ذلك فإن النقيب رولوس كان في 64-63 يعتبرها حسنة، واستثنى في مشروعه الأراضي التي كانت تحت يد هيمْبسال من البيع العام للملك العمومي في إفريقيا. وفي هذا الشأن لم يكن سيسَرون يتورع عن القول بأن هذا من تأثير الذهب الذي جلبه إلى رومة يوبا ابن ملك نوميديا.

ولقد أشرنا إلى الإقطاعات التي أعطيت للمعمرين من الملك العمومي بإفريقيا سنة 122 بمقتضى قانون روبريوس، وكذلك التي أمر بها قانون

أبوليوس سنة 103. ولا نعلم بوجود إقطاعات مجانية أخرى غير هاتين حدثت من قبل أو من بعد، وأعطيت للمواطنين الرومانيين أو للإيطاليين.

وكان عدد من الحروب قد انتهى في إيطاليا لفائدة رومة، فبيعت أراض زراعية كثيرة برومة كانت على ملك المغلوبين في هذه الحروب، وكان بيعها يجري على يد إدارة المتصرفين الماليين، فدعيت باسم أراضي المتصرفين Agri Quaestorii. فهل أمر مجلس الشيوخ أو الشعب الروماني سنة 146 بإجراء بيوعات مماثلة على بعض أراضي الملك العمومي بإفريقيا ؟. وهل جرت في نفس هذه السنة المذكورة ؟ إنها فرصة حسنة تسمح للنبلاء بأن يشتروا الأراضي الخصبة التي كانت على ملك الأرستقراطية القرطاجية ولكن ليس هناك ما يسوغ لنا أن نؤكد أنهم استفادوا من ذلك.

غير أن قانون 111 يخبرنا بأن عددا من البيوعات قد سبقته، وبأن بيوعات أخرى كثيرة ستعقبه مباشرة، وكلها من الملك العمومي بإفريقيا. فخزينة الدولة كانت لاشك في حاجة إلى أموال كثيرة.

وكانت هذه البيوعات لا يمكن أن تجري إلا برومة، وأن تكون عمومية، وبالمزاد، وعلى يد المصلحة الإدارية للشعب الروماني التي ينص قانون 111 أنها المتصرف المالي أو البريطور.

وحيث أن مرتبة المتصرف المالي أدْون من مرتبة البريطور، فهناك استنتاج قد لا يعدو الصواب. وهو أن القانون لم يذكر المتصرف قبل البريطور إلا لكونه هنا يقوم بالدور الأهم، كما في بيع مزارع المتصرفين Agri quaestorii، أما البريطور المدني أو قاضي الحضر Preteur urbain فإنه – على ما يحتمل – لم يكن يتدخل إلا للتأكد من أن

من وقع عليه المزاد قد أدى الثمن. ويتضمن القانون أوامر حول المسطرة التي يجب أن تتبع، وحول الشروط وحول ضمانات الأداء والمشترون يجب أن يكونوا رومانيين، غير أن هناك فقرة مشوهة تسوغ الافتراض بأن اللاتانيين والإيطاليين أيضا كان يسمح لهم بالشراء.

ويصبح هؤلاء المشترون ملاكا حقيقيين، إذ تصير الأرض - مثلها في ذلك مثل القطع المعطاة للمعمرين مجانا - ملكا خصوصيا Ager privatus. ومع ذلك فالدولة تحتفظ بحقها الأعلى، بسلطة المالك dominium. فالأرض ليست ملكا خصوصيا فحسب، وإنما هي ملك خصوصي فيكتيگال Ager privatus vectigalisque أي خاضع للفيكتيگال Vectigal وهو الدخل الذي يستفيده المالك من عقاراته. وهل كان هذا الفيكتيگال لازما ؟ لقد شك في ذلك، مع العلم بأنه ذكر صراحة في التعبير الذي يعرف قانونيا هذه الأراضي، إلى حد أنه يصعب علينا قبول كون الدولة تخلت عن جبايته، ولابد أن يكون قدره ضئيلا جدا.

هذه هي أصناف أراضي إفريقيا التي استمر الشعب الروماني يحافظ على حقوقه فيها، ولكن لم يعد يتصرف فيها إلا في حالة ظروف استثنائية. ولاشك أن جميع هذه الأراضي كانت زراعية، وأنها كانت داخلة في التقسيم الكنتوري الذي أنجز، على أغلب الظن، بمجرد ما تم الاستيلاء على الولاية.

## 3

يميز قانون 111 بأكثر ما يمكن من التفصيل والتطويل الأراضي التي درسنا آنفا وضعياتها المختلفة، وبقية الأراضي العمومية بإفريقيا

أما هذه الأخيرة، فهي التي حافظ فيها الشعب الروماني في آن معا على الحق القانوني والحق العملي. وقد قلنا من قبل إن القانون يدعو الدومفير لأن يهيئ لائحة بهذه الأراضي، بعد أن يخرج منها التعويضات المعطاة للذين انتزعت منهم الأرض بسبب البيوعات الواقعة في رومة. ولكن يجب أن لا نبالغ في تقدير عدد هذه الأراضي نظرا لقلة سعة الولاية، وللجيوب التي تكونها بها مناطق المدن الحرة، ونظرا كذلك للإقطاعات أو للبيوعات التي نزعت يد الدولة منها.

ولاشك أن الأراضي التي عوض بها عن الأراضي الصالحة للزراعة، قد كانت هي أيضا صالحة للزراعة. لكن، حيث أن رومة كانت تفرض ضريبة الأعشار على بعض الأراضي، فنستنتج أنه قد بقي منها ما يمكن أن يزرع، بينما هناك أراض لا تمكن من الزراعة أو لا تصلح لها، كالأمكنة التي بها حجارة أو مستنقعات او أشجار أو أعشاب كثيفة وحينما تكون هذه الأراضي المغطاة بالنباتات الطبيعية واسعة المدى، فالإسم الذي يطلقونه عليها هو : سالْتوس Saltus (الديسة) بالمعنى الحقيقي للفظ. وكذلك المساحات الواسعة الوعرة، التي لاتُغل، والتي توجد خارج النطاق الكنتوري، فإنها تكون ما يسمى بالأماكن المهملة Loca relicta أو الخارجة عن النطاق Extraclusa ولا تدخلها الدولة في الأراضي التي تقطعها أو تبيعها. فهي في ذلك مثل الأراضي الصغيرة غير المغلة التي تكون بجانب الكنتوريات او بداخلها. وكل هذه الأراضي، مما لايمكن أن يغل أو التي لم يتناولها الإنسان بالاستصلاح، ولا تستعمل - إذا أمكن استعمالها - إلا للرعي.

وكان بمستطاع الحكومة أن تخصص بالمجان قسما من هذه الأراضي لبعض الأهالي أو للرومانيين الذين تجاورها أراضيهم الزراعية

مباشرة، متقبلة هكذا أن يقوم على هذه الأراضي ذات القيمة الضئيلة حق التملك لأحد الأفراد ـ كأحد كبار الملاك الرومانيين – أو لإحدى الجماعات – كجماعة ملاك – أو لسكان قرية أهلية. بل وكان أيضا بمستطاع الحكومة أن تغير العادة القديمة فتدمج فيما تبيعه أراضي الرعي وأراضي الزراعة. غير أننا ليس لدينا حجة بأن الحكومة قد فعلت هذا في إفريقيا في العهد الجمهوري.

لكن المتأكد هو أن الحكومة احتفظت لنفسها بأراض فرضت عليها لمصلحتها هي ضريبة الرعي Scriptura pecoris التي ذكرت في عدة مناسبات في قانون سنة 111.

وهل كانت الحكومة تتخلى عن هذه الأراضي ليستعملها عموم الناس، فتترك لمن أراد أن يدخل إليها ماشيته مقابل أداء عن كل حيوان؟ إن الرعي المشترك في أيطاليا عادة قديمة. وقد سمح به أيضا قانون 111 في الأراضي العمومية التي لم يقع كراؤها. وفي إفريقيا، كان باستطاعة هذه الطريقة أن تنفع الرحّل جدا، إذ تمكنهم من أن يبقوا قطعانهم قسما من السنة على هذه الأراضي التي هي ملك للشعب الروماني. ولكن ليس هناك ما يدل على أن الرحّل كانوا يعيشون بالولاية للانتجاع. بل يظهر أن جميع محكوميها من الأهالي كانوا مستقرين بالأرض.

بل على النقيض من ذلك، نجد قانون 111 يؤكد أن الضريبة كانت تؤخذ عن الأراضي التي يستعملها أفراد في مصالحهم الخاصة، وبهذا فحينما يمنع القانون على القضاة الذين سيقع تعيينهم أن يغيروا شروط الرعي بما يخالف إرادة هؤلاء الأفراد، فمعنى ذلك على ما يحتمل هو منع جعل الرعي المشترك يحل محل النظام القائم. وعمليا، فإن حق

التصرف يطالب به على الخصوص ويستعمله الملاك او جماعة المزارعين المتجاورين.

وكانت الدولة تتقاضى الأعشار على أراض أخرى اختصت بها. حيث أن المزارعين المستقرين بهذه الأراضي كانوا يستثمرونها، إما لأنهم استصلحوها بأنفسهم للزراعة، وإما لأنهم وجدوها على حالة تمكن من الإغلال.

ومن بين الرجال الخاضعين لأداء الرسوم والذين كانوا يشتغلون بتربية الماشية أو بالزراعة هناك الرومانيون، وهناك غيرهم ممن ذكرهم القانون في فصل مبتور اليوم، وهم لاشك أيطاليون وأفارقة أيضا. فالأهالي الذين لم تكن لهم أراضي اسْتيبانْديوم يمكنهم بهذا أن يجدوا وسيلة للعيش.

والوضع القانوني لهؤلاء الرجال على الأملاك العمومية يعبر عنه بألفاظ habere، frui، وpossidere (أي نال - تمتع - حاز -) وكلمة حاز possidere أكثر استعمالا، لأن الأرض التي تحت يده هي حوزته possessio.

وفي هذا حجة على أنهم لم يكونوا متعاقدين fermiers، يتمتعون بالأرض بمقتضى عقد ثنائي ولمدة محددة من خمس سنين على العموم، ويمكن أن يتجدد بعدها العقد بعقد مثله أو بمواصلة العمل بالأول. فالمتعاقد fermier ليس محتازا possessor.

وقد عرفت رومة القديمة، لغاية القرن الثاني قبل الميلاد قانونا للاستيلاء على الأراضي المفتوحة التي هي ملك للدولة وبقيت غير محروثة. هذه الأراضي يستولي عليها ويحرثها من أراد، بعد أن يصرح بذلك، أي بعقد من جانب واحد، ولكن مقابل أداء حصة مما تغلّه وهي

سدس صابتها أو الخمس مما تنتجه الأشجار، والدولة التي تحتفظ بملكيتها لهذه الأراضي، لها الحق في استرجاعها متى أرادت. غير ان كثيرا ممن استولوا عليها استغلوها في رعي ماشيتهم، كما أن الدولة من ناحية أخرى كانت تهمل المطالبة بأداء الحصة الواجبة لها، ولم تستعمل حقا في الاسترجاع. ومعمّرو هذه الأراضي كان يطلق عليهم «المحتازون Possessores» وعلى الأراضي نفسها «الحوزات Possessiones» ويظهر أن قانون الاستيلاء قد عدل عنه بإيطاليا منذ سنة 133، ولكنه ألغي منها نهائيا بقانون 111. فهل كان العمل به مقبولا في ولاية إفريقيا القديمة قبل هذا القانون وبعده ؟ ليس هناك ما يسوغ لنا هذا الاعتقاد. بحيث لا نلاحظ وجوده إلا أثناء القرن الثاني الميلادي فحسب بإفريقيا البروقنصولية، إذ سَنّه الإمبراطور هادْريان Hadrien.

وقبل ذلك، في المقاطعة التي صيّرها قيصر سنة 46 ق.م ولاية تحمل اسم ولاية إفريقيا الجديدة، والتي ضمت بعد قليل إلى إفريقيا القديمة، نجد قانون مانْسيانا Lex Manciana قد أحدث نظاما جديدا، يستطيع بمقتضاه معمرو إحدى المزارع – لا غيرهم – أن يحرثوا الأقسام غير المستصلحة أو المهملة، أما استعمالها للرعي فغير مقبول. ولكن يجب عليهم قبل حرثها أن يقدموا بذلك عريضة طلب، وأن يمكنهم المالك من الأرض. إذن، فهذا غيّر حقا الاستيلاء. ولاشك أن قانون مانسيانا كان قبل عهد تراجان Trajan، بل لعله أقدم منه بكثير، ولربما كان راجعا إلى أوائل عهد الإمبراطورية، وكان نظاما فرضته الدولة على من اشتروا الأراضي العمومية التي كانت قد باعتها داخل الحدود التي وضعها قيصر لولاية إفريقيا الجديدة.

ومن غير أن نستطيع الإدلاء بالحجة، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن وضعية أصحاب الحيازات Possesseurs بالملك العمومي في إفريقيا

القديمة قد كانت على وجه التقريب مثل هذه، مع فارق هو أن الأمر يتعلق هنا، ليس فحسب بأراض مَوات يراد استثمارها، بل بأراض بعضها يمكن استثماره حالا، والبعض الآخر غير صالح إلا للرعي، وعلى الذين يودّون استغلالها، إما بزرعها بالحبوب أو بغرسها بأشجار الفاكهة أو باستعمالها في الرعي، أن يقدموا بشأنها عريضة طلب بعد أن يخبروا بإعلان عمومي، - على ما يحتمل - بأنها أرض شاغرة، وتكون حيازتهم لها برخصة قطعية Concession formelle. وهذا الافتراض يصير يقينا إذا امكن التأكيد - من غير تردد - بأن فقرتين من قانون 111 تنصان حقيقية على هذه الأراضي، إذ نجد فيهما الكلام على عطاءات تخولها السلطات العامة بمقتضى قرار يتخذ.

وهكذا فإن الشعب الروماني كان يحافظ بالطبع على ملكية ما تنازل عنه بصفة غير نهائية. غير أن قانون 111 قرر أن يعطي التعويض المعادل لجميع الذين كانوا يحتلون أرضا بصفة قانونية ثم جردوا منها بسبب بيع الأراضي الذي وقع برومة. ومن الصعب القول بأن من كانت بيدهم الحيازة قد أذن لهم أن سبيعوا، كما أنهم إذا كانوا عمليا قد خلفوها لورثتهم، فلاشك أن ذلك لم يكن عن حق قطعي.

وكان يجب عليهم أن يؤدوا للدولة رسوم الفيكتيگال. وهي: إما الأعشار فيما تنتجه الأرض من حبوب، وخمر، وزيت وربما حتى في الخضر، وإما الضريبة على الماشية المحددة بقدر يدفع عن كل حيوان. ثم إن قانون 111 كان على ما يظهر يمنع من سيعين في المستقبل من المسؤولين من تغيير قدر رسوم الفيكتيگال التي سبق أن حددها النظار Censeurs السابقون (في 115-114)، كما كان يمنع على البوبليكانيين Publicains أن يطالبوا بأكثر من القدر المقرر في الفيكتيگال على

العموم، أي في الأعشار والالتزامات Scriptura. وكنتيجة لذلك، فإن هذه الأعشار التي تحدد ويطلب عدم تغييرها، لم تكن أعشارا بالمعنى الحقيقي للفظ، أي عشر المنتج، بل كانت حصة أكثر من ذلك لاشك. فقد كان على ثلث المحصول في الأرض أو ثلث غلة الأشجار. كما أن إحدى مواد قانون 111 المنطبقة على الذين (بمقتضى قانون سامبرونيوس Lex sempronia، والذي ربما كان قانون أحد الأخوين الگراكيين) لم يتعودوا أداء الفيكتيگال قد أكدت هذا الإعفاء. ولكننا لا ندري بأي شيء يتعلق الأمر. ويظهر أن المؤدين كانوا ملزمين بنقل حصتهم التي يدفعونها إلى أمكنة معينة. كما أننا ليس لدينا معلومات عن التدابير المتخذة ضد الذين تخلوا عن الأرض أو ضد الذين لا يحسنون القيام بزراعتها (وهي خسارة كبيرة لأصحاب الحق من الشعب الروماني الذين ينالون حصة في المنتج)، ولا ضد الذين لا يؤدون واجباتهم.

والدولة لم تكن تتكلف بجميع هذه الواجبات ولم تكن تتوصل بها، بل كانت تبيعها في رومة بالمزاد. وهكذا فإن أعلى مزايد كان يحل محل الشعب في تملكه للفيكتيگال. فيقبضه هو على عهدته ومسؤوليته. والألفاظ الرسمية المعبر بها عن هذه البيوعات هي : Vectigalia publica fruenda locare Vendere. وكانت البيوعات تجري على أيدي النظار censeurs الذين يهيئون سلفاً دفترا بالتحملات يشتمل على الشروط المفروضة على المتزايدين. ويمتد العمل بالعقد من 15 مارس الذي يتلو المزايدة إلى أن يجري النظار الجدد مزايدة جديدة. فكانت المدة الاعتيادية للعمل بالعقد هي خمس سنين. لكن، حيث أن المدة المتراوحة بين النظار المتتابعين ليست ثابتة، فكان من الممكن تقصير مدة عمل العقد أو تمديدها بسنة، وربما بعدة سنين، وعلى كل فإنها كانت دائما تمتد على حقبة من سنوات كاملة، نقطة البدء فيها هي 15

مارس. ويمكن في المدة المتراوحة بين النظار أن تقع مزايدات إضافية على أيدي مسئولين آخرين. ويذكر قانون 111 واحدة منها أجراها كنيوس بابيرْيوس كارْبو Cn. Papirius Carbo قنصل سنة 113.

ويحدد النظار في دفاتر التحملات قدر رسم الفيكتيگال الذي يجبى، وقد أشرنا إلى أن قانون 111 قد منع على ما يظهر من تغيير هذا القدر في المستقبل. ولكنه أذن للمسئولين الذين سيعينون أن يطالبوا المتزايدين بأكثر مما كان يفعله سابقوهم، أي أن أعلى مزايد كان يأخذ الصفقة. فلاشك أن التحديد، إنما كان القدر الأدنى الذي تنطلق منه المزايدات، ويمنع أن تحصل اتفاقات تضر بالدورة.

والمتزايدون في مصالح العائدات والمصاريف العامة، كان يطلق عليهم لفظ بوبْليكانيين Publicani، وبهذا عمليا كان يسمى أولئك الذين يشترون عائدات الملك العمومي بإفريقيا. وحيث أن الصفقة أكبر من أن تبقى بين يدي رأسمالي واحد، فإن الشخص الذي يذكر رسميا أنه المشتري، كان من ورائه شركة تتكون غالبا من الفرسان. أما أعضاء مجلس الشيوخ فلا يمكن أن يكونوا أعضاء بها. وإن كانوا لا يمتنعون عن المساهمة فيها بواسطة. وكان البعض من هذه الشركات قويا جدا، حتى أن إحداها مثلا كانت قد استولت على الأعشار، وضريبة الحيوانات، والجمارك بولاية آسيا، بينما شركة أخرى كانت تقبض واجب الجمارك وضريبة الحيوانات في صقلية. وكان على رأس كل شركة رئيس Magister سنوي، هو مديرها العام المقيم في رومة. أما الولاية فبها نائب المدير Pro-magistro المتحكم في عدد كبير من رجال الشركة، وجلهم من المعتقين والعبيد. وليس لدينا معلومات دقيقة بالنسبة لأفريقيا. غير أن سيسرون Cicéron في إحدى الرسائل التي بعث بها سنة 56 إلى بروقنصل إفريقيا نجده يوصيه بشخص اسمه

كوسبيوس Cuspius الذي أقام، حسب قوله، بإفريقيا مرتين، وذلك حين كان يدير الشؤون المهمة جدا لإحدى الشركات. فلربما كانت هذه هي الشركة التي اشترت الفيكتيگال.

ولم يكن البوبليكانيون ليهتموا بغير جباية الواجبات لمصلحتهم فليس هناك ما يدل على أنهم أكتروا، أو أنهم استثمروا أراضي عمومية بإفريقيا، أو أنهم تدخلوا في إقطاع هذه الأراضي لمن يحرثونها أو يرعون فيها قطعانهم ولم يكونوا يستطيعون تغيير قدر العائدات. وفي حالة عدم الأداء كان لهم حق الرهن، لا حق الطرد من الأرض، ويجب عليهم أن يتابعوا أمام القضاء المتخلف عن الأداء أو الممتنع منه.

وقد جرت العادة بروما أن المتزايدين في العائدات العمومية يؤدون ما عليهم للدولة نقدا. ولا شك أن هذا كان هو المعمول به بالنسبة للبوبليكانيين الذين يشترون الفيكتيگال بإفريقيا. فكانوا – من جانبهم – يتقاضون الضريبة على الحيوانات نقدا، أما حصص الغلال التي كانت تقدم لهم، فكان بمستطاعهم أن يحولوها إلى نقد إن أرادوا. وحيث أن هذه الحصص تتكون على الخصوص من القمح اللازم لطعام رومة، فقد كان من السهل بيعها إما بإفريقيا وإما بروما نفسها إذا كانت شركة البوبليكانيين تقوم أيضا بتجهيز السفن.

## 4

في العهد الجمهوري أدخلت إضافات على الملك العمومي بإفريقيا، منها الأملاك التي لم تجد وارثا، والأملاك المصادرة أثر أحكام الرعب في عهد ماريوس وعهد سولاّ Sylla وعهد الحكم الثالوثي Triumivirat، وبسبب ظروف أخرى غير هذه. ومن الواضح أن الأراضي التي كانت قد

أعطيت لأبناء مسِنيسّا، ثم أكد من بعد إعطاؤها لهِمْبسال أبي يُوبَا قد أرجعت للملك العمومي بعد الانتصار الذي ناله قيصر في ثَبْسوس، المدينتين الحرّتين خارج منطقتهما، وكان نزع هذه الأراضي من المدينتين عقابا من قيصر لهما على تشبثهما بحزب پومْپي Pompée.

ولكن سبق أن رأينا أن العطاءات والبيوعات والتعويضات التي أعطيت للرومانيين وللإيطاليين أو للأهالي قد ضيقت كثيرا من مساحة الملك العمومي منذ القرن الثاني. وقد استمرت عملية الأخذ من الملك العمومي حتى صار التنقيص منه يفوق بكثير الإضافات التي ربما كانت تُفوّت في الحين. والمتأكد هو أن كتاب العهد الإمبراطوري ونقوش هذا العهد تسكت عن الملك العمومي الذي كان موجودا من قبل في ولاية إفريقيا القديمة. ولا محل للاعتقاد بأنه قد انتقل إلى أيدي الإمبراطور، لأن هذا الانتقال يكون غير قانوني في ولاية مخصصة لمجلس الشيوخ. وفوق هذا، فقليلا ما كانت الأملاك الإمبراطورية تذكر في منطقة كونت في عهد الجمهورية الولاية الإفريقية. ويمكن أن تكون هذه الأملاك قد آلت إلى الأمير بصفة شخصية كميراث. وعلى هذا فالملك العمومي قد آل كله أو كاد إلى أيدي بعض الأفراد كملاك حقيقيين، ولو أن الدولة من فوقهم قد احتفظت بالسيادة Dominium، أي بالتملك القانوني Propriété de Droit.

ويمكن أن يكون تأسيس المستعمرات والإقطاعات للأفراد، في عهد قصير وأوغسطس، قد ساعدت كثيرا على هذا الضياع، إما مباشرة وإما بسبب المبادلات التي أوجبتها هذه العمليات. ومع ذلك فليس هذا متأكدا، لأن الأراضي اللازمة لحلول المعمرين وغيرهم من المستفيدين يمكن أن تكون قد اشتريت. وعلى هذا فيجب أن نصدق إما بحدوث اغتصابات في الملك العمومي، وهو أمر يصعب تفسيره، وإما بحدوث

بيوعات أو تغييرات في وضعية الأراضي، بحيث إنها عوض أن تكون تحت أيدي مستفيدين غير نهائيين ملزمين بأداء الواجبات، تكون قد أصبحت مزارع خصوصية فيكتيگالية agri privati Vectigalesque أو مزارع ستيباندیوم Agri stipendiariorum بحسب وضعية حائزيها الرومانيين أو الأهليين. الأمر الذي ينشأ عنه بالطبع إلغاء بيع الواجبات (الضرائب) للبوبليكانيين الذين لهم عادة من الحول ما يمنع من تجريدهم من أحد مصادر أرباحهم. وقبل هذا الإلغاء، لا تستطيع الدولة تغيير وضعية أراضيها إلا أثناء مزايدات جديدة، لأن البوبليكانيين يشترون الفيكتيگال بثمن معلوم ولمدة معلومة. فلا يسوغ إذن التنقيص من أرباحهم أثناء هذه المدة. وعلى هذا فليس في مقدورنا أن نأتي إلا بافتراضات ضعيفة حول اختفاء الملك العمومي بولاية إفريقيا.

وقد تأكد أن مزارع كبرى grands domaines على ملك الخواص قد وجدت بإفريقيا في القرن الميلادي الأول، وتحوّل عدد كبير منها من بعد إلى أملاك إمبراطورية Domaines impériaux. غير أن أكثرها - إذا اعتمدنا على الوثائق المنقوشة - كانت عند احتلال مملكة نوميديا سنة 46 ق.م، توجد عند الحدود المعطاة لولاية إفريقيا الجديدة التي ضُمّت من بعد إلى إفريقيا القديمة. وفي حدود هذه الولاية، كانت المزارع الكبرى الخصوصية قليلة الوجود على ما يظهر في عهد الإمبراطورية. فهل كانت في عهد الجمهورية أكثر عددا وأوسع مساحة ؟ هناك ما يدعونا لهذا الاعتقاد، على الأقل بالنسبة لأواخر هذا العهد. إذ يظهر على الخصوص أنها كانت على ملك بعض الفرسان Chevaliers وأعضاء مجلس الشيوخ. فقد قال سيسَرون سنة 56 إن م. كايْليوس روفوس M. Caelius Rufus ابن أحد الفرسان وقد أصبح هو أيضا عضوا بمجلس الشيوخ، كانت له بإفريقيا أملاك وأراض نالها من أبيه. وفي

سنة 43 كان الفارس ل. يوليوس كالدوس L. Julius Calidus مهدَّدا بالنفي لأن «أملاكه الكبرى بإفريقيا» تثير أطماع أحد قادة جيش أنطوان Antoine عضو الثالوث. فمن المحتمل أنها إذن كانت توجد بالولاية القديمة، لا الجديدة التي كونت منذ ثلاث سنين فحسب. ولم يكن يسمح لأعضاء مجلس الشيوخ أن يشغلوا جهرا بالعمليات البنكية والتجارية. لكن، إذا كان أحدهم وهو ك. أنيكيوس C. Anicius قد أحرز على البعثة الرسمية عند ذهابه إلى إفريقيا لقضاء شؤونه سنة 44، ورجا أن يحيطه حاكم إفريقيا بحَمَلة الأشعرة، وإذا كان عضو آخر بمجلس الشيوخ – وقد كان فارسا إلى عهد قريب – وهو ل. أيليوس لاميا L. Aelius Lamia يكلف سيسرون سنة 43 أن يوصي هذا الحاكم بشؤونه ونوابه ومواليه وعبيده، إذا كان كل ذلك، فهناك احتمال بأن كلا منهما قد كانت له أسباب وجيهة في أن يتمتع بالحماية الرسمية بإفريقيا، ولأنهما يملكان بها أملاكا عقارية وذلك حق لهما. ولنُشِرْ أيضا إلى هذه المزرعة الكبيرة جدا، المزودة بأربعة أبراج، والتي كانت سنة 46 توجد بالقرب من أوزيتا Uzitta بالجنوب الشرقي لِهَدْروميت. فلاشك أنها كانت مركز إحدى الضيعات. ومن المسلم به، مع ذلك، أنها ربما كانت على ملك مواطن إحدى المدن الحرة بالساحل، لا على ملك الرومانيين.

وخارج مناطق هذه المدن، فإن ضيعات رومانية متفاوتة الأهمية أمكن أن تتكون بالولاية عن طريق الشراء برومة من البيوعات العمومية، أو في إفريقيا نفسها حين يتراضى المواطنون الرومانيون أو بعض الإيطاليين على بيع الأراضي التي يملكون مما أقطعتهم الدولة بالمجان أو باعت لهم. أما الأراضي التي خُوِّلت للستيباندياريي (الأهالي الذين يؤدون ستيبانديوم) وفرضت عليها ضريبة العقار، فليس للرومانيين

سوى فائدة ضئيلة في شرائها، على فرض أن هذا الشراء كان مأذونا لهم به.

وقد قلنا إن الشعب الروماني كان مالك الأراضي المَوات incultes المغطاة بالأحراج والأشجار، والتي تدعى باسم سالْتوس Saltus وتستعمل للرعي، لكن في العهد الإمبراطوري، منذ القرن الميلادي الأول. نجد لفظة سالْتوس Saltus مستعملة بكثرة - على الخصوص في إفريقيا - للدلالة على الضيعات الكبرى، خصوصية كانت هذه الضيعات أو إمبراطورية. ولنا إذن أن نتساءل عن هذه الضيعات الإفريقية التي لاشك أن كلها أو بعضها كان يحرث : ألم تتكون من مساحات واسعة من الأرض المَوات التي قد تكون الدولة أعطتها لبعض الأفراد، أو باعتها لهم ؟ ولكن هذا الاستنتاج لا يلزم، إذ يظهر أن معنى «المزرعة الكبرى» غير مشتق مباشرة من معنى «المساحة التي فيها أشجار وأعشاب». ومنذ العهد الجمهوري كانت لفظة سالْتوس تستعمل للدلالة على مجموعة من الكنتوريات، على أربع منها حسب ڤارّون Varron (فتساوى أكثر من 200 هكتار). وربما على أكثر من ذلك. وقد علق هذا المعنى باللفظ، لأن المجموعات التي تكونت هكذا كانت أرضها رديئة، فاعتبرت غير صالحة للزراعة. وعلى ذلك، وإذا خولفت العادة وأعطيت، فيحسن أن لا تعطى مجزأة إلى قطع صغيرة. وبهذا المدلول أصبحت كلمة سالتوس لفظا من ألفاظ تكسير الأرض، ومع الزمن استعملت للدلالة على مساحة قيست بغض النظر عن عدد الكنتوريات التي تشتمل عليها، وبدون اعتبار لنوعية الأرض. ومن هنا سهل اتخاذ المعنى «ضيعة كبرى» نظرا لأن هذه الأملاك كانت كبقية المنطقة تقسم في ولايات إفريقيا الرومانية إلى كنتوريات. وينتج عن ذلك، أننا كلما لاقينا كلمة سالْتوس للدلالة على

ضيعة كبرى إفريقية، فلا يكون ذلك حجة على أن تلك الأرض كانت من قبل أرضا مَواتاً أعطتها الدولة أو باعتها لبعض الأفراد. وفوق هذا، إذا كانت كلمة سالتوس قد ذكرت عدة مرات في منطقة ولاية إفريقيا الجديدة، فإنني لا أعلمها ذكرت إلا مرة واحدة في المنطقة التي كونت من 146 إلى 46 ولاية إفريقيا القديمة، الأمر الذي لا يمنعنا من أن نفرض بأن الدولة قد فوّتت، من غير أن نعلم متى وكيف، الأراضي التي كانت تتقاضى عليها واجب الرعي Scriptura pecoris، إذ ليس هناك ما يشهد بأن الدولة كانت لا تزال تملك هذه الأراضي في عهد الإمبراطورية.

## 5

وبالإضافة إلى هذه الدراسة عن وضعية الأراضي، نشير أو على الأصح نأتي ببعض الافتراضات تتعلق بالطريقة التي كانت تستثمر بها.

كانت مزارع الأرستقراطية في العهد القرطاجي تحرث بواسطة العبيد. وليس لدينا حجة على أن هذه الأراضي الخصوصية كان بها رجال أحرار يؤدون للمالكين حصة من المنتج.

وعلى النقيض من ذلك، كانت الدولةالبونيقية تتقاضى حصصاً من المنتج يؤديها الأهالي، وهم قوم في المرتبة الدنيا، يعملون بأيديهم في الأرض التي يقيمون عليها.

فلما أصبحوا خاضعين لرومة، أُلْزِموا بأداء ضريبة محددة، واستمروا بالحقول التي خولت لهم سنة 146، يحيون حياة الفلاح القاسية التي عاشها آباؤهم. وحتى الرومانيون والإيطاليون الذين حازوا مجانيا قطعا أرضية، كان يلزمهم أن يشتغلوا فيها بأنفسهم، أو على

الأقل من لم يبع منهم تلك الأراضي، وهم بدون شك ليسوا عديدين. وهؤلاء المزارعون الصغار، من الأهالي أو المهاجرين كانوا يعملون مستعينين بأُسَرهم، وربما حتى بعبد واحد أو عبدَيْن حينما يكون ذلك بمستطاعهم. كذلك على ما يحتمل أكثر الذين اقطعوا أراضي من الملك العمومي مقابل أعشار يؤدونها. أما الرومانيون الذين كوّنوا لأنفسهم مزارع إفريقية - بالشراء في رومة أو في الولاية - فقد كانوا من الكبراء ولا يمسون المحراث بأيديهم. كما أنهم لم يكونوا على العموم يقيمون بإفريقيا. وإذا كانت مزرعتهم أو مجموعة مزارعهم مهمة فإنهم كانوا يُنيبون عنهم مفوّضاً Procurator من الرجال الأحرار. وربما أن عددا منهم كانوا يستعملون العبيد في حرث أرضهم. ويكون هؤلاء العبيد تحت إمرة مقدم عليهم Vilicus، يكون هو ايضا من العبيد. وإذا كانت مزارع النبلاء القرطاجيين قد بيعت بالمزاد بمجرد ما تم الاستيلاء على الولاية، فإن العبيد الذين كانوا مرتبطين بهذه المزارع قد ادخلوا في هذه البيوعات، وإن كانت الحقيقة هي أننا لا نعلم شيئا عن هذا الموضوع. ونحن نعلم إلى أي حد من السعة بلغ استغلال المزارع الكبرى بواسطة اليد العاملة المستعبدة في إيطاليا وصقلية أثناء القرنين الأخيرين قبل الميلاد. كما نعلم الثورات الجارفة التي قام بها العبيد في هاتين المنطقتين. ولكن يظهر أن ولاية إفريقيا لم تعرف مثل هذه الأزمات. لأن العبيد الذين يقال إن الحاكم فابيوس هادريانوس Fabius Hadrianus قد جندهم سنة 86 في مؤامرة واسعة ضد أسيادهم، قد كانوا يسكنون كأسيادهم مدينة أوتيكا، ولم يكونوا يعملون في الزراعة.

ثم إن كراء الأرض كان أنسب في استثمارها غيابيا، لأن الكراء يحرر المالك نهائيا من وساوس الفلاحة وأخطارها. وفي هذه الحالة يستطيع أن يكري أرضه لفلاح كبير يستطيع الإقامة والاستثمار كما يريد، أو يكريها لجماعة من صغار الفلاحين الذين يتقاسمونها فيما بينهم.

على أن هناك طريقة أخرى يمكن - حسب ظننا أن تكون هي التي عمل بها في الأراضي العمومية، وأعني بها الإذن بالحرث المعطى لمزارعين مؤقتين مقابل أداء قسم من المحاصيل. بل يمكن أن نفرض أن الدولة عند بيعها برومة للأراضي التي كان يستثمرها مزارعون مؤقتون، لم تعوض لهؤلاء المزارعين بأرض أخرى وإنما نصّت من جملة شروط البيع على بقائهم بالأرض المبيعة.

أما فيما يتعلق باستثمار الأراضي في عهد الأباطرة فإن معلوماتنا عنه أوسع. لكنني أرى من غير المعقول أن نطبق على الولاية القديمة، وفي المدة المتراوحة بين أواسط القرن الثاني وأواسط الأول، المعلومات التي تتعلق بناحية أخرى من إفريقيا - وهي التي كانت تُدْعى إفريقيا الجديدة - والتي ترجع لعهد أكثر حداثة. والسبب هو أنه: إذا كان القانون العام للاستثمار، المدعو بقانون مانْسيانا Lex Manciana، قد صدر في شأن مزارع إفريقيا الجديدة، وذلك أقرب إلى الصواب، فمن الطبيعي أن لا يكون صدوره متقدما على سنة 46، أي على تاريخ إنشاء هذه الولاية. وهل أدخل قانون مانسيانا في اعتباره الحالة التي قد يكون وجد عليها الأراضي التي كانت قبل ذلك على ملك نوميديا؟ هل يكون هذا القانون بحث لنفسه عن نماذج يحتذيها من خارج إفريقيا كمصر وآسيا؟ هل استعار هذا القانون بعض محتوياته من إفريقيا القديمة ؟ ليس في هذا الافتراض الثالث ما قد ينكر، ولكن ماذا عسانا نستطيع أن نعرف عن هذا الموضوع ؟

الكتـاب الأول

# ولاية أفريقيا تحت حكم الجمهورية

## الفصل الرابع

## الحالة المادية، الحضارة

### 1

كانت المنطقة التي جعلت منها رومة ولاية إفريقيا مزدهرة في عهد الحكم القرطاجي. وكان الأهالي يشتغلون بها بصفة خاصة بزراعة القمح والشعير. كما أن مزارع الأرستقراطية البونيقية كانت تنتشر بها البساتين، ومغارس الزيتون والكروم، وتكثر بها الماشية. وشهرة كتَاب ماگون Magon (في الفلاحة) تؤكد استخدام أحسن الطرق في الاستثمار.

ونعلم أن مجلس الشيوخ الروماني قد أمر بعد تهديم قرطاجة بترجمة *هذا الكتاب إلى اللغة اللاتانية. ولا شك أن هذه الترجمة قد* أفادت الفلاحين بإيطاليا فوائد كثيرة. غير أن فائدتها كانت أكثر لاشك للرومانيين والإيطاليين الذين حصلوا على أملاك عقارية في الولاية الجديدة، لأن كثيرا من تعاليم ماگون تجد تطبيقها في إفريقيا على الخصوص. ومما يؤكد أن تعاليم هذا العالم الفلاحي الشيخ لم تنس في

وطنه، أن شخصا من أوتيكا يدعى كاسْيوس ديونيسْيوس Cassius Dionysius قد أصدر لهذا الكتاب سنة 88 ق.م ترجمة إغريقية أهداه للبريطور سيكْستيلْيوس Sextilius حاكم إفريقيا.

لكن من المؤكد أن الملاك الرومانيين في العهد الجمهوري كانو يشاركون بمجهود أقل من جهود القرطاجيين في إدارة أراضيه الإفريقية. بل إن أكثرهم لم تكن لهم سوى معرفة ضئيلة بأراضيهم ولاشك أنهم لم يكونوا يهتمون بالاستفادة من قراءه ماگون. أما صغار الفلاحين من الأهالي أو المهاجرين فإنهم كانوا يتعلمون حرفته (الفلاحية) بالعمل التطبيقي، لا في الكتب سواء أكانت مكتوبة بالبونيقي أم الإغريقية أو اللاتانية.

وكانت إفريقيا الشمالية – وعلى الخصوص منها الولاية – في نظر الرومانيين آنذاك أرض حبوب قبل كل شيء (ager frugum fertilis) كما يقول سالوسْت، حتى إن أنصار بومبي قد سكّوا نقدا في أواسط القرن الأول ق م، وجعلوا به صورة رأس إفريقيا ومعه سنبلة ومحراث.

وفي سنة 49، عند بداية الصيف وجد كوريون Curion مساعد قيصر، بادية أوتيكا مليئة بالقمح ينتظر الحصاد. وكان الحديث في ذلك الوقت يجري عن عطاء للمحاصيل بنسبة مئة للواحد في بيزاسيو Byzacium بناحية هَدْروميت. والحقيقة هي أن يوليوس قيصر بنفسه ناحية هَدْروميت كان يجد صعوبة شديدة في إيجاد المؤن الضرورية لجيشه سنة 46. غير أن تلك الظروف كانت استثنائية. لأن أنصار بومبي كانوا في السنة السابقة قد دعوا للجندية عمّال المزارع، فكادت المحاصيل تكون منعدمة. وكانوا من ناحية أخرى قد أصدروا الأمر بنقل القمح الذي أمكنهم جمعه من الولاية إلى عدد صغير من المدن

الحصينة. ولهذا أمكن أن يوجد قليل أو كثير من التموين بأوتيكا وهَدْرُميت، وتيسّدروس، وآشولا، وأوزيتا، وسَرْسورا Sarsura. وقد وجد مثل ذلك في جزيرة قَرْقَنّة أيضا. ومع ذلك فقد بقي كثير من القمح والشعير في المزارع المنتشرة في البوادي التي كان جنود قيصر وجنود أنصار بومبي يقومون فيها بعمليات تفتيش مجدي، خصوصا إذا وقعت أيديهم على المخابئ والمطامير التي كان الفلاحون يخزنون بها قسما مهما من حبوبهم.

وكانت رومة تجد في الأوقات العادية منافع عظيمة في قموح الولاية. إذ بتغير إيطاليا إلى أرض لغراسة الأشجار وتربية الماشية، أصبحت الحبوب اللازمة لحياة المدينة العظيمة تأتي مما وراء البحر، وصارت سردانية وصقلية وإفريقيا تدعى باسم "ولايات القمح".

وقبل عهد الأخوين الگراكيين، كان القمح برومة يباع على يد الباعة الذين كانوا يستجلبونه من حيثما أرادوا، ولا يتدخل فيهم مراقبوا الأسواق Ediles إلا لمنع الزيادة الفاحشة في الأثمان. فلا تتدخل الدولة إلا في الظروف الحرجة جدا، عند تهديد المجاعة مثلا أو عندما ترتفع الأسعار ارتفاعا فاحشا، فتشتري هي الحبوب وتبيعها بخسارة على يد المكلفين بتموين المدينة Ediles.

غير أن الدولة تكلفت هي منذ سنة 123 بنصيب كبير من تموين المدينة بالقمح، إما ببيعه بثمن زهيد فيستفيد منه جميع المواطنين، وإما بتوزيعه مجانيا على الفقراء ومن هم في حكم الفقراء. والحصة التي كانت تباع أو تعطى لكل شخص في كل شهر هي خمسة بواصو Boisseaux (44 لتراً على وجه التقريب). وقد صدرت إلى عهد قصير عدة قوانين عن القمح Lois frumentaires لا نعرف عنها شيئا كثيرا، أوحى

بإصدار بعضها ترضيةً للشعب، وأوحى ببعضها الآخر ضرورة التخفيض من النفقات الطائلة. ونحن نعلم ان هذه النفقات ارتفعت سنة 63 ق.م فبلغت ثلاثين مليونا من السيسْتِرس Sesterces. كما نعلم أن 320.000 من المواطنين كانوا بعد بضع سنين يتوصلون بالبواصوهات الخمسة شهريا، وإن قيصر قد نقص عددهم سنة 46 إلى 150.000.

على أن قسما من القموح التي كانت ولاية إفريقيا تدفعها لمصلحة توزيع الحبوب Annone ربما كان مفروضا كضريبة على المحكومين. ولعل الدولة – وهي ممثلة بالتصرف المالي – كانت تتقاضى هذه الضريبة من المتأجرين في الضرائب Fermiers مقابل فائدة مئوية ينالونها. وهذا إنما هو مجرد افتراض منا. أما القسم الآخر من القمح فكان يشترى، إذ الأعشار التي كانت تجبى من أراضي الشعب الروماني كانت ملكا للبوبليكانيين الذين باعها لهم المسؤولون في رومة. وبعد إسقاط الضرائب أو الواجبات تبقى المحاصيل ملكا كليا للمزارعين. على أن الدولة كان باستطاعتها أن تحتجز القموح وأن تؤدي ثمنها، ولكنها لم تكن تقرر ذلك إلا في الأحوال الاستثنائية. ونحن نجهل هل أتيحت لها فرصة القيام بذلك في إفريقيا.

وكانت الدولة على العموم تكتفي بالشراء، لا من المنتجين أنفسهم – لما في ذلك من مصاعب جمة – بل من التجار والشركات التي كانت تعقد معها الصفقات لتزودها بمقادير معلومة من الحبوب، لأن هذه الشركات كان لها موظفوها ووسطاؤها ووسائل النقل الضرورية للقيام بعملياتها في الولاية نفسها أو في نوميديا. وعمليات هذا الشراء، كانت الدولة تستطيع أن تنجزها في رومة، ولكن المؤكد أنها كانت تنجزها في إفريقيا أيضا، وفي هذه الحالة كان عليها أن تعقد صفقات أخرى للنقل

بالبحر، على أن البوبليكانيين المهيمنين على الأعشار، والمتاجرين الكبار في القمح، ومجهزي السفن، غالبا ما كانوا يؤلفون الشركات، بل ويندمج بعضهم في بعض ليخصوا أنفسهم بالعمليات الهامة. ولاشك أنهم لم يكونوا يزودون المصلحة الرسمية لتوزيع الحبوب فحسب، بل يحسن الاعتقاد بأنهم كانوا يشترون الحبوب بروما وغيرها من مدن إيطاليا. وبهذا كانت الفلاحة الإفريقية تجد أسواقا موثوقا بها. وإن كانت الحقيقة هي أن المنتجين كانوا يستفيدون أقل بكثير مما يستفيده المضاربون وأصحاب الصفقات الذين يمكن أن يتفقوا فيها بينهم، ويفرضوا على المنتجين أثمانا منخفضة.

ولما نزل قيصر بناحية هَدْرُميت، لم يجد بها الأخشاب التي كان لابد له منها لصنع الآلات الحربية، الأمر الذي يجعل هذه الجهة صالحة لأن تنطبق عليها كلمة سالوست : «أرض تنعدم بها الأشجار»، على النقيض من ذلك، كانت الأشجار كثيرة بالقرب من أوتيكا. وكانت على الخصوص أشجار الفواكه. وأياً ما كان قول پْلين الشيخ، فإن الطبيعة لم تسلم لسيريس Ceres جميع تراب إفريقيا. فالقرطاجيون وغيرهم من الفينيقيين الذين كانوا يقيمون بهذه الناحية لم يهملوا الكرم والزيتون والتين والرمّان. وهناك ما يشير إلى أن استثمار هذه الأشجار قد استمر العمل به في عهد السيادة الرومانية. وفي نص مشوّه يتعلق على ما يحتمل بالأراضي العمومية، يذكر قانون 111 محاصيل الخمر والزيت. وحتى في جنوب هَدْرُميت، أي في بيزاسيوم Byzacium الذي لم تكن به أشجار على العموم، وكان مخصصا في الأغلب لزراعة الحبوب، فإن قصة معارك يوليوس قيصر تذكر هناك بستانا قديما وكثيفا من الزيتون. وفي نفس الجهة عثر جنود الدكتاتور عند زيارتهم للضيعات المحيطة

بحلة أكًـار Bourg d'Aggar كثيرا من الزيت والخمر والتين. كما أن
كونْسيدْيوس Considius أحد قادة جيش بومبي لم يكن عنده بمعسكره
وهو يحاصر أشولا، القمح فحسب، بل حتى الخمر والزيت.

وكانت حكومة الجمهورية الرومانية قد منعت على الأهالي بجنوب
بلاد الغال أن يغرسوا أشجار الزيتون والعنب «لتزداد قيمة بساتين
زيتوننا وعنبنا» كما قال سيسرون. وليس هناك ما يؤكد أن أمرا كهذا قد
اتخذ بالنسبة لإفريقيا. وعلى كل حال، فحتى إذا فرضنا أن الغرس
الجديد قد منع، فمن المتأكد أن المغارس القديمة قد بقيت واستثمرت
ويحسن مع ذلك أن نلاحظ أن إيطاليا في هذا العهد كانت تنتج الخمر
والزيت بكثرة، وأنها – حتى قبل تهديم قرطاجة – كانت تستجلب خمر
إفريقيا. فعلى هذا لم تكن الزيوت والخمور الإفريقية تجد لها سوقا في
شبه الجزيرة الإيطالية، بينما كانت زراعة القمح تظهر أنها الأفضل
لتأكدها من هذه الأسواق.

أما تربية الماشية، فمعلوماتنا عنها تتلخص في بعض الإشارات
التي وردت عنها في قانون 111، وفي سالوسْت، وفي يوميات حرب قيصر.

كما أن مصايد سمك التونة Thon التي أنشئت بدون شك في العهد
القرطاجي قد ذكرت بأنها كانت على الساحل الشرقي لتونس بالقرب من
المُنَسْتير ورأس كبوديا. ذكر ذلك سترابون أو أرتيمدور Artémidore
على ما يحتمل، الذي كتب في أقصى نهاية القرن الثاني.

وليس هناك نص يذكر أن المعادن قد استغلت في إفريقيا. بل إن
الشاعر لوكانيوس Lucain يؤكد أنها لم توجد.

وبذهاب قرطاجة ذهب أحد كبار المراكز الصناعية في العالم
القديم. وإذا كانت واردات هذه المدينة العظيمة قد عاقت النمو

الاقتصادي للمدن التي كانت خاضعة لها، فليس من الواضح أن هذه المدن قد استفادت كثيرا من انتصار الرومانيين. فأثاث المدافن لا يطلعنا على شيء مما تنتجه البلاد، باستثناء الخزف الذي لابد أنه صنع في أوتيكا وهَدْروميت وبأمكنة أخرى غيرها. وهو خزف عادي، غير دقيق الصنع، أشكاله في الغالب هيلينية مما بقي مستعملا بقرطاجة إلى آخر أيام هذه المدينة. ومن ذلك مثلا، إنهم استمروا حتى خلال القرن الأول ق م، يصنعون – ولا أدري أين – تلك المصابيح المقلدة للنموذج الإغريقي، والتي كانوا يزينونها غالبا بالرسم البونيقي الصميم المدعو علامة تانيت Tanit.

ويظهر أن التجارة لم تكن نشيطة، فيما عدا شراء القموح وتصديرها إلى إيطاليا. فالقرصنة كانت تضايق هذه التجارة بالبحر. ولا علم لنا بوجود صادرات أخرى غير الحبوب. ولم تكن إيطاليا وهي أرض ماشية، بحاجة إلى أن تحصل على ماشية إفريقيا التي لاشك أن نقلها كان شديد الصعوبة، ولا بحاجة إلى الصوف التي كان نوعها أقل جودة من النوع الإيطالي. وإذا بعث إليها بالعبيد، فلاشك أنهم قنصوا من خارج الولاية. والأغلب على الظن أن الولاية كانت تستورد الخمر على غرار أسبانيا وبلاد الغال، ولكن بكميات قليلة على ما يحتمل. كما أن إفريقيا، قبل خراب قرطاجة، كانت تستورد بكثرة الخزف المصنوع في كَمْبانيا Campanie وفي جنوب الهضبة الإيطالية، كالمصابيح التي من النوع الإغريقي، والأواني الصغيرة المغطاة بطلاء أسود برّاق تقليدا لنماذج معدنية. وكل هذه المستجلبات استمرت في عهد سيادة رومة أثناء القرن الثاني وقسم من القرن الموالي. تشهد بذلك الكشوف التي عثر عليها خصوصا بالمدافن. والحقيقة هي أنه قد أصبح يصعب على

المرء أن يميز بين منتجات المصانع الإيطالية التي اعتراها الانحطاط، وبين ما تقلده المصانع الإفريقية.

ومن الطبيعي أن الدونيات Deniers الفضية للجمهورية الرومانية كانت تروج بالولاية، لأننا نعثر عليها بأمكنة مختلفة. ففي «حمّام ليفْ» بالقرب من تونس، وكذلك بناحية نَفْزَة عند الشمال الغربي لباجة، كشف التراب عن كنزين يشمل أحدهما على عدة مئات من القطع النقدية، بينما لا يضم الثاني سوى عشرين منها. وقد خزن الأول حوالي سنة 74، أما الثاني فيضم قطعا سُكّت بين سنة 179 و106. وليس في هذا حجة قوية على ازدهار واسع.

## 2

إن الولاية التي تأسست في جنوب بلاد الغال، بثمان وعشرين سنة بعد سقوط قرطاجة قد «تَرومَنت بسرعة، إذ كان هناك تلاؤم سلالي كبير بين الأهالي والفاتحين الذين كانوا يودّون أن يطمئن بهم وجودهم في منطقة يضمن لهم تملكها مواصلاتهم مه إسبانيا. بينما الأمر لم يكن كذلك في إفريقيا، حيث لم يكن ميل ولا إرادة للتقارب بين اللاتانيين وأهل الولاية من سكان المدن الفينيقية أو القرطاجيين بالساحل أو الأهالي المنتشرين بالبوادي. وقد أطلق سيسرون على هؤلاء وأولئك كلمة بونيقيين Poeni. وهو الاسم الذي تعلم الرومانيون أن يبغضوه، بينما كان الأهالي في نظر الآخرين هم الليبيون الفينيقيون Libyphéniciens كما يقول الأغريقيون. إذ في هذا الوقت أطلق عليهم هذا اللفظ الذي كان في أول الأمر يعني المعمرين الفينيقيين المقيمين بسواحل ليبيا. والقصد من هذا التعبير الدلالة على أن هؤلاء الليبيين قد أصبحوا فينيقيين في لغتهم وأخلاقهم.

والحقيقة هي أنهم تقبلوا تقبلا واسعا جدا الحضارة البونيقية. ولربما كانوا في ذلك العهد قد تركوا لغتهم الأصلية، التي لم تكن في القرن الأخير ق م والقرن الميلادي الأول تظهر بينهم مستعملة سوى في أسماء الأشخاص التي ورثوها عن عائلاتهم، ولكن أصبح استعمالها يقل مع الزمن.

وعلى النقيض من ذلك، كانت أكثرية الأسماء بونيقية، ليس بالساحل فحسب، بل حتى في داخل البلاد. ولاشك أن اللغة البونيقية كانت منتشرة بجميع الجهات. فالكتابات المرسومة على الجرار الجنائزية بهَدْرُميت وأكودا Akouda القريبة منها، يرجع جلها إلى العهد الذي ندرسه. ومن ذلك، لاشك، النقوش على الأحجار التي تقدم طرازا من خط متوسط بين الكتابة البونيقية والخط البونيقي الجديد Néopunuque. وقد عثر عليها في «بئر بورَكْبة» بالقرب من الحمّامات، وفي الكنيسية بالقرب من سوسة، وهَنْشير عْوين قرب أُدْنَة. ولعل هذه الأخيرة تؤرخ بسنة 91 ق.م. كما أن نقوشا، أحدث عهدا من السابقة، مكتوبة بخط بونيقي جديد تشهد برسوخ اللغة الفينيقية بالولاية القديمة حتى العهد الإمبراطوري الروماني. فقد قاومت هناك اللغة اللاتانية مقاومة طويلة على العموم.

ومعبد زيوس Zeus الذي كان حسب ما يرويه بْلوتارك Plutarque موجودا بأوتيكا في أواسط القرن الأول ق.م، يحتمل أن يكون الرومانيون والإيطاليون، الموجودون بكثرة في هذه المدينة، هم الذين كرّسوه في الحقيقة لجوبتير Jupiter اللاتاني. ولم يكن أحد سواهم يزور هذا المعبد. أما أهل الولاية فقد بقوا على وفائهم لألهتهم، أي للآلهة التي كانت تعبد في قرطاجة، والتي عُبدت منذ عدة قرون في أوتيكا وهَدْروميت وغيرهما من المدن الفينيقية، التي اتخذها الأهالي أرباباً.

ولم تكن رومة تشعر بأي عداء نحو هذه الآلهة، بل على العكس كانت تهتم بترضيتها. ولاشك أن حب تمجيد «جونون Junon» الفينيقية، ربة قرطاجة العتيقة هو الذي دفع كيوس كْراكوس إلى أن يطلق اسم يونونيا Iunonia على المستعمرة التي أسسها بنفس التربة. وهناك قطعة دوني Denier سكَّها ميتلّوس سيپْيون Metellus Scipion قائد جيش بومبي بإفريقيا، تظهر عليها صورة ربة لها أجنحة ورأس أسد، ويصحب هذه الصورة ثلاثة أحرف هي (G.T.A) ومعناها على ما يظن هو (Genius Terrae Africae) أي رب الأراضي الإفريقية. وعلى كل حال فهي لمعبود إفريقي عثر على صوره في معبد قريب من الحمّامات. كما أن رأسا منقوشا على عدة قطع نقدية سكّها في 44-42 كنتوس كورْنيفيْسيوس Q. Cornificius حاكم إفريقيا القديمة، يمثل رأس جوبتير أمون Jupiter Ammon الذي ربما كان اختلط على الناس ببَعْل حَمّون Baal Hammon معبود كثير من الأهالي.

ومن الطبيعي أن الذين كانوا يتكلمون اللغة البونيقية، كانوا يدعون هذه الآلهة بأسمائها الفينيقية. ففي الكنيسية دعيت الربة باسم تانيت بني بَعْل Tanit Péné Baal. وكذلك في بِئْر بوركَبْة حيث تظهر بصحبة بَعْل الذي لابد أن يكون هو بَعْل حمون. وفي عهد الإمبراطورية بقيت بعض الأسماء الفينيقية للآلهة مستعملة في أماكن كانت من قبل جزءاً من الولاية القديمة. منها : آضون Adon أي السيد، وربما هو بَعْل حمون. ومنها بَعْل أدير Baal Addir أي السيد القدير، وهو رب آخر على ما يحتمل.

يضاف لهذه الآلهة البونيقية، الإلهتان الإغريقيتان اللتان أُدخلت عبادتهما إلى قرطاجة عند بداية القرن الرابع ق.م، ثم انتشرت هذه

أما الطقوس، فيظهر أنها لم تتغير في عهد السيطرة الرومانية. ونحن نعلم أن في سُوسَة، والكنيسية، وبئْر بوركْبة معابد أَمّها الناس عدة قرون، من العهد البونيقي إلى العهد الإمبراطوري. ولعلها كانت في أول الأمر مجرد أمكنة مسيجة وغير مسقوفة، تدفن بها الجرار المحتوية على بقايا القرابين مع أوان أخرى تحتوي الهدايا. ويضاف لهذه الأواني أحيانا المباخر والمصابيح والدُّمَى التي قصد بها تمثيل من قدموا تلك الهدايا. ثم تقام الأنصاب Stèles فوق هذه الودائع. وقد بقيت الأجيال التي تتابعت بهذه الأمكنة مخلصة للعادات القديمة. ولكن المعابد وغيرها من المباني أخذت، شيئا فشيئا، تقام بهذه الأمكنة دون اهتمام بالتنسيق في البناء. ومن المستحيل التأريخ لهذه المباني وإن كان بعضها يمكن أن يردّ لعصر متقدم على العهد الإمبراطوري. وهناك نقش بونيقي من بِئْر بورَكْبة، يتحدث عن معبدين مكرسين لبَعْل ولتانيت بني بَعْل، وتبعا للخط الذي رقم به هذا النقش، يمكن أن يكون من النصف الأول من القرن الأخير ق.م.

وقد رأينا ان المعمار الخلاسي Hybride، أي الحامل للطابعين الإغريقي والشرقي، الذي عم استعماله بقرطاجة في عهودها الأخيرة، قد انتشرت في نوميديا. وضريح دُگّة Dougga الشهير الذي بني في أواسط القرن الثاني هو الأثر الأهم لهذا الفن. ويظهر أن هذه الهندسة قد ثبتت – هي أيضا – في ولاية إفريقيا، قبل أن تخلي المجال للفن الإغريقي الروماني. وهناك نَذْر Ex-Voto من تُبورْبو مايوس Thuburbo Majus، له شكل معبد يتآلف به التجويف المصري مع الأعمدة الأيونية Ioniques والنضد Entablement الإغريقي. هذا النذر يستحسن عزوه للقرن الثاني، وربما للنصف الأول من القرن الموالي. وهناك أيضا ثلاثة أضرحة، منها

اثنان يوجدان بالشمال الشرقي لباجَة، والثالث بالشمال الغربي بمْجاز الباب. وكلها تشهد بالقرابة الفنية المتأكدة الموجودة بينهما وبين ضريح دُڨّة، وإن كانت الثلاثة أقل ضخامة وزخرفة. وهي بناءات بونيقية يمكن أن تعزى على السواء لما قبل أو ما بعد تخريب قرطاجة.

هذه الأضرحة قليلة العدد، لأن الناس استمروا على العموم يدفنون موتاهم تحت الأرض. فنحن نعرف بالمنطقة التي صارت رومانية منذ سنة 146 عددا كبيرا من هذه المدافن التي يمكّننا أثاثها من أن نؤرخ لها تقريبا بالقرن الذي تلا تكوين الولاية، كما في العالية، والمَهْدية، وثَبْسوس، ولَمْطَة، وسُوسَة بالساحل التونسي الشرقي، وكما في هَنْشير بَني نافع وسيدي يحْيى بالقرب من بحيرة بنزرت، وكذلك في ماطِر وخَنْقَة الحجّاج وزَغْوان وفي أكودا بالشمال الغربي لِسوسَة. فكل هذه المدافن التي عثر عليها بهذه الأمكنة ترجع في آن واحد للعهد البونيقي والعهد الروماني، بحيث لا نلاحظ بين العهدين أي خلل ولا تغير مفاجئ في العادات الجنائزية. أما القبور فهي حفر، وفي الغالب سراديب يوصل إليها ببئر غير عميقة، وتزود أحيانا ببعض الدّرَج. ولم تكن عادة الدفن وحدها مستعملة، بل كان هناك من يحرق جثت الموتى. على أن عادة الدفن قد أدخلت – أو على الأصح عاد الناس إليها – بقرطاجة في القرن الثالث، ثم استعملها الناس بعد ذلك في غير المدينة. وكانت بقايا التحريق تُجعل في صناديق من حجر أو رصاص، والأغلب أن تجعل في جرار من طين مشوي. وما عثر عليه من هذه الجرار في هَدْرُميت توجد عليه كتابة بونيقية رسمت بالأسود، تنص على اسم الميت من بين ما تنص عليه. وكانت بعض الأمكنة ما زالت على طقوسها الأهلية كما رأينا آنفاً. ففي لَمْطَة وثَبْسوس والعالية عُثر على موتى أضجعوا على الوضع المثني. كما أن بالمهدية وهَنْشير بني نافَع عثر على عدة عظام ليس

عليها أثر للنار، وهي - كما يقع غالبا - لعدة أشخاص. وقد جمعت على غير نظام. فالأجسام إذن قد كُشطت عظامها من اللحم كشطا كاملا قبل الدفن النهائي. وفي العالية، ربما عُوّض عن العادات القديمة بالعادة الجديدة التي هي التحريق، على أن التحريق كان خفيفا وكان القصد منه - على ما يظهر - تسهيل فصل العظم عن اللحم.

وباستثناء هذه التقاليد الليبية العتيقة، فكل شيء كان بونيقيا في مدافن الولاية الرومانية بإفريقيا ما بين أواسط القرن الثاني وأواسط الأول، بحيث ليس بها ما يشير إلى أن هذه المنطقة قد تغير بها سادتُها.

والذي يؤكد بصفة واضحة أن الأخلاق والعادات بقيت راسخة، تلك الكشوف التي وقعت بقرطاجة نفسها بالمكان المسمى بئر الزيتون. فهنا تحت مقابر من العهد الإمبراطوري، عثر على مقابر أخرى بعضها للدفن وبعضها للتحريق، ولكنها تحتوي على خزف كان من الممكن استخراجه، ولكنها تحتوي على خزف كان من الممكن استخراجه من أحدث المدافن عهدا في قرطاجة البونيقية. وبعض هذه المدافن كانت تعلوه أنصاب شبيهة بتلك التي يعثر عليها بكثرة في المدافن القرطاجية التي ترجع للقرنين الثالث والثاني، والتي تمثل إنسانا يرفع يده اليمنى ويمسك باليسرى إناء إهداء. وفيما عدا ذلك، فقد عثر مع الأثاث الذي يصحب الموتى، على مصباح به علامة لاتانية مع علامة تانيت. كما أن كتابات جنائزية لاتانية قد نقشت على بعض الأنصاب. ومعنى هذا إذن أن هذه المقبرة متأخرة عن عهد الفتح الروماني. ومن ناحية أخرى، فإن تراب قرطاجة قد حُرّم سنة 146 على الأحياء أن يسكنوه، ولاشك أنه حرم كذلك على الأموات. ونتيجة لهذا، فالقبور التي نتحدث عنها ليست متقدمة في الزمن على سنة 44 وهو التاريخ الذي أعيدت فيه المدينة للحياة بأمر من

يوليوس قيصر. وفوق هذا، فإن مظهر هذه الكتابات الجنائزية ومحتواها يتناسب مع هذه الحقبة. فقد مر أكثر من قرن على اضمحلال قرطاجة، وما كنا لنظن ذلك لو لم تكشف لنا عنه هذه النقوش.

فقبل عهد قيصر، كانت الحضارة اللاتانية وكأنها أجنبية في هذه الولاية الرومانية. ومع أن الحجج تعوزنا فإن هذه الحضارة احتلت مكانا بجانب الحضارة البونيقية في المدن القليلة التي كانت تقيم بها مجموعات كثيرة من الرومانيين والإيطاليين، وعلى الخصوص في مدينة أوتيكا التي كان الحاكم يقيم بها، والتي يعسكر بالقرب منها جنود أكثرهم من أصل إيطالي. ولكن ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد بأن هذه الحضارة قد دخلت البوادي، في الأراضي التي أعطيت أو بيعت للرومانيين الذين كان العدد القليل منهم على ما يظهر هو الذي أقام بهذه الأراضي. ففي هذه الأرض التي شاءت الصُّدف – في عهد قرطاجة – أن يموت بها نايفيوس Naevius، ويولد بها تيرانس Térence وهما الاسمان الخالدان في الأدب اللاتاني، في هذه الأرض إذن، نعدّ الكتابات التي حررت باللاتانية والتي ترجع بالتأكيد للعهد الجمهوري، فلا نعرف منها سوى ثلاث. واحدة عثر عليها بجوار أودْنة Oudna، وربما كان تاريخها 91 ق.م، وهي تتعلق بأحد الأطباء، وتقدم لنا بجانب النص اللاتاني، نصا إغريقيا وآخر بونيقيا. والثانية من أوتيكا وهي شهادة رسمية من أهالي ثلاثة من الأقاليم Pagi يمجدون فيها حوالي 60 ق.م أحد المتصرفين الماليين بالولاية. والثالثة تذكّر بخدمات التحصين التي قام بها قادة جيش بومبي في كورُبيس Curubis في سنة 49 أو 48.

وكذلك فإن الهيلّينية Hellénisme قد كان لها تأثير قوي في قرطاجة، وقد استمر هذا التأثير في إفريقيا بعد الفتح الروماني. فإلى

الحضارة الإغريقية كان ينتمي الذين يعتزون بالعلم. وإلى الإغريقية تر
كاسْيوس ديونيسْيوس الأوتيكي Cassius Dionysius كتاب ماگ
Magon ترجمة حرة وأذاعه سنة 88. ويظهر ان كاسيوس هذا قد ك
أيضاً بالإغريقية رسالة في النباتات الطبية. والطبيب الذي حافظت
على ذكراه الكتابة باللغات الثلاث التي عثر عليها بالقرب من أودْنة
اسمه ك. مَرْسيوس بْروتُماخوس Q. Marcius Protomachus وكان
لشخص يدعى هيراكليديس Heraclidès. فاسمه الإغريقي الصميم و
بْروتُماخوس يسوغ لنا أن نفرض أنه كان من أصل إغريقي.
كاسيوس ديونيسيوس الذي كان يعرف البونيقية جيدا، لأنه ترجم ك
ماگون، فلعله كان فينيقيا من أوتيكا. ولعل حبه للهيلينية جعله يت
اسما إغريقيا عوض الاسم السامي – عبد أوزير ؟ Abdosir – ال
سماه به أبوه.

ويظهر أن اللغة الإغريقية قد لاقت بعض الانتشار، حتى بين غ
العلماء، وذلك في الموانئ التي يزورها تجار من بلاد الإغريق الكبر
وربما حتى من سيرنيكا (بَرْقة) وبلدان الشرق الإغريقي، إذ كان هؤ
القوم يتكلمون الإغريقية ويأبون أن يتعلموا غيرها. وفي بداية ع
الإمبراطورية كانت لِبْتيس الصغرى تضرب نقودا كتب عليها اسم المد
بالإغريقية. كما أن الإغريق الذين يعتبرون أنفسهم أصلا لكل شيء،
يتوانوا عن أن يترجموا إلى الأغريقية أسماء الأماكن الخاصة باللغ
الأجنبية، من ذلك مثلا : مَكوم حَداشْت Makom Hadasht (المق
الحديث) أي المدينة الجديدة باللغة الفينيقية، أصبح نيابولي
Néapolis. وقد اتخذ الرومانيون بعضا من هذه التسميات الأغريق
التي رسخت في عهد الإمبراطورية. من ذلك هيپُو ديارْهيتو

(Diarrytos) Hippo Diarrhytus، سميت بهذا الاسم لأن قناة تفريغ البحيرة الكبرى لبنزرت كانت تخترقها. ومن ذلك أيضا نيابوليس Neapolis الاسم الذي احتفظت به مدينة نابل Nabeul الواقعة على خليج الحمّامات إلى يومنا هذا. وكذلك مدينة تدعى ميگلبوليس Megalepolis، التي ربما كانت تقع بين الرأس الطيب وقرطاجة، وذكرت خلال العهد المسيحي.

## 3

كثيرا ما ردد الناس الفكرة التي قال بها مومْسِن Mommsen وهي : «أن الحكومة الرومانية قد أحكمت بقوة استيلاءها على المنطقة التي كانت قرطاجة تملكها عند سقوطها. ولم يفعل الرومانيون ذلك لفائدة يجنونها. وإنما فعلوه حتى لا يتركوا المنطقة للغير. ولم يعملوا لإيقاظ حياة جديدة هناك، بل اكتفوا بحراسة الجثة. ولم يكن ذلك عن حب منهم للسيطرة أو الفتح، بل إن الخوف والحسد هما اللذان دفعا رومة لإنشاء ولاية إفريقيا.ولذلك ليس لهذه الناحية تاريخ في عهد الجمهورية». إنه لحكم قاسٍ، ولكنه مصيب إلى حد كبير.

إن ولاية إفريقيا قليلة السعة جدا، وكانت قبل كل شيء منطقة محرمة على مطامع الملوك النوميديين المحيطين بخرائب قرطاجة. وبهذا ضمنت رومة لنفسها السيادة على طريق المرور بين حوضي البحر الأبيض المتوسط. ولم يبق لها إلا أن تصون هذه الطريق من القراصنة، وهي مهمة لم تحسن القيام بها.

ولم تقصد رومة بهذا الاستيلاء إلى الزيادة في مواردها، كما أنها لم تصل لهذه الزيادة، بل إن واردات إفريقيا كادت تقل عما ينفق عليها،

ذلك ما يظهر أن سيسرون Cicéron يوضحه. وإذا كانت رومة قد أحجمت عن النفقات التي تفرضها الخدمات اللازمة لاستغلال ملكها الجديد، من توسيع للموانئ، وإصلاح، وتوسيع لشبكة الطرق التي خلفتها قرطاجة إلى غير ذلك، فإن الإنفاق على الحاكم وحاشيته، وخصوصا على جنود الاحتلال يدعو لاشك إلى مصاريف باهضة.

وكانت مصادر الدخل المالي هي الضرائب العقارية والضرائب الشخصية Capitations التي يؤديها المحكومون، والمقادير المالية التي يؤديها المتزايدون لشراء عائدات الملك العمومي، وربما حتى العائدات الضئيلة المفروضة على الأرض المخولة أو المبيعة للرومانيين والإيطاليين، ثم واجبات الجمارك، لأن الدولة القرطاجية تقاضتها. ويجب الاعتقاد بأن الدولة الرومانية قد فعلت مثل ذلك رغما عن فقدان الحجج المؤيدة، لأنها أحدثت الجمارك في ولايات أخرى كصقلية وآسيا. وحسب العادة، كان لابد لهذه الضرائب من أن تباع كما تباع أعشار الأراضي العمومية. وأخيرا فهناك بعض المصادر الاستثنائية للدخل ليس لنا عنها معلومات، كالغرامات المحكوم بها، وحاصل بيع الأملاك المصادرة، والأملاك التي ليس لها وارث. وبعد كل هذا يجب أن لا ننسى أن قسما كبيرا من إفريقيا كان يكوّن مناطق المدن الحرة التي لم تكن رومة تجني منها أي شيء.

وإذا كانت الجمهورية لم تستفد مطلقا، فإن وجود الولاية كان نافعا لعدد من الرومانيين. ومن المسلم به أن حلُم كيوس كراكوس لم يتحقق مطلقا فيما كان يرمي إليه من جعل عدة آلاف من المواطنين الرومانيين الفقراء يقيمون بإفريقيا كملاكين صغار. ولكن حيث أن المعمرين تركوا أحرارا في أن يبيعوا قطعهم الأرضية، فإنهم استعملوا هذا الحق استعمالا واسعا جدا. وبذلك ماتت المستعمرة منذ ولادتها. غير أن

بعضا من أعضاء مجلس الشيوخ وكذلك بعض الفرسان قد خصوا أنفسهم حسبما يظهر بمزارع جميلة من هذه الأراضي ومن غيرها مما باعته الدولة.

وكذلك فإن إفريقيا قد أفادت رجال المال من البوبليكانيين وأصحاب البنوك الذين استغلوها كغيرها من الولايات الأخرى في التجارات الضخمة، كما أفادت مجهزي السفن الذين تكلفوا بشراء الحبوب ونقلها، لأن رومة أصبحت في حاجة للقمح الإفريقي لمعاشها. وفي نظر الجماهير الشعبية، كان ذلك هو النفع الأهم والوحيد الذي يجنى من هذه الممتلكات في ما وراء البحار.

أما نشر الحضارة اللاتانية، فلم يكن هناك من يعني نفسه به. والجمهورية لم تستول على أراضي قرطاجة لتنكب على هذه المهمة. ولعلنا إذا استثنينا كيوس گراكوس، لم نجد هناك أي شخص يرى في هذا واجبا أخلاقيا، ولا حتى وسيلة لتثبيت الفتح. بل على العكس، كان النبلاء على العموم يظنون أن من الخطر على المواطنين الرومانيين أن يخلقوا لأنفسهم من خارج إيطاليا مساوين لهم، أي من يحتمل أن يصبحوا لهم مزاحمين.

ولذلك ترك الأهالي يحيون حياتهم. وقد قلنا إنه لا يمكن أن نعرف بدقة كيف كانت حالهم المادية.

ولاشك أن الحرب البونيقية الثالثة التي دامت ثلاث سنين قد أحدثت أزمة اقتصادية شديدة. ومثل ذلك يقال عن التدابير التي اتخذت عقب انتصار الرومانيين من تهديم للمدن، ومن قتل عدد كبير من الناس أو استرقاقهم، ومن استيلاء على الأراضي.

وقد عاشت الولاية بعد ذلك في سلام لم يتعكر صفوه طيلة قرون من الزمان، وبصفة جدية حتى وقع الصراع بين قيصر وحزب بومبي. وباستثناء أعمال النهب التي كان يقوم بها جنود خارجون على النظام، فإن حرب يوغرطة قد تحاشت الولاية. كما يظهر أن أفريقيا لم تتأثر تأثيرا سيئا بالغا من الاضطرابات القليلة التي اندلعت سنة 84 حينما حاول أنصار سيلاّ Syllaniens دون جدوى أن يستولوا على البلاد، ولا من الحرب السريعة التي واجه فيها بومبي أنصار ماريْوس Marianistes سنة 81. ثم إن بعض المدن التي سبق أن هدمت في نفس الحين الذي هدمت فيه قرطاجة قد عادت إلى الحياة مثل كْلوبْيا Clupea (القليبية) ونيابوليس Néapolis، ومعهما مدن أخرى على ما يحتمل. وكانت البوادي تُحْرث بصفة جيدة، والقمح الذي لم يكن أهل الولاية يستهلكونه، كان يباع لإطعام رومة.

ويمكن الاعتقاد بأن البريطورين والبريطورين القدماء، الذين كانوا يتتابعون سنة بعد سنة على الولاية، قد حاولوا بها، على حساب محكوميهم - كما كان يجري بغيرها - أن يستعيدوا ثروتهم التي زعزعتها النفقات على الانتخابات والمناصب بالحاضرة. وقد قال سيسرون Cicéron أن إفريقيا قد عرفت - كغيرها من الولايات - كثيرا من الحكام الآثمين. ونحن نعرف منهم اثنين. هما فابْيوس هادْريانوس Fabius Hadrianus وكَتيلينا Catilina. الأول منهما أحرقه حيا بقصره في أوتيكا المواطنون الرومانيون. أما الثاني فكان بعض الفرسان من بين متهميه. ولعل حكاما آخرين كانوا ذوي مهارة، فلم يضروا إلا بالأفْري (الأهالي) والبويني (البونيقيين)، أي بقوم لا محالة هم أكثر صبرا، وبذلك ضمنوا لأنفسهم السلامة من العقاب. على أن الحكام لم يشتهر

عنهم جميعا أنهم مفترسون، فَلوكُلوس Lucullus خلف من ورائه ذكريات طيبة. كما أن سيسرون كان يستحسن تذكير أخيه كِنْتوس Quintus بأن إدارة الولاية تتضمن واجبات تجاه محكومي رومة، حتى ولو كانوا من الشعوب الأجنبية Barbares القاسية كالأفارقة.

ومن المسلّم به أن البوبليكانيين - كشأنهم في الولايات الأخرى - لم يكونوا يعفون عن المطالبة بأكثر مما يجب لهم. كما أن أصحاب البنوك كانوا يقرضون الأموال بالربا الفاحش، وأن الحكام، إذا لم يكونوا شركاءهم، فإنهم كانوا يغضون النظر عن هذه الأعمال إذ يكون من غير اللائق بهم ومن الخطر عليهم أن يتخاصموا مع شخصيات من طائفة الفرسان Ordre équestre. ولكن إن استطعنا أن نفرض أن الأمور كانت تسير على هذا المنوال، فإن الحجج تعوزنا فيما يتعلق بإفريقيا.

وأياً ما كان، فإن ظروف أهل الولاية لم تكن - على ما يحتمل - سيئة للغاية. والواقع أن قبور هذا العهد لا تشتمل إلا على أثاث ضئيل، غير ذي قيمة، والحلي يكاد يكون وجوده منعدما بها. ومع ذلك فإن من المجازفة أن نستنتج أن الموتى وعائلاتهم كانوا فقراء. فقد كان الناس في العهود الأخيرة لقرطاجة يتحاشون وضع الأشياء الثمينة داخل المدافن، إذ كانوا على ما يظهر، يعتبرون أن الموتى يمكنهم أن يستغنوا عن هذه الأشياء ويتركوها للأحياء.

ومن المتأكد أن مدينة أوتيكا العتيقة قد استفادت من إنشاء ولاية كانت هي قاعدتها. فازدانت بالمباني المهمة مثل المعبد الكبير الذي أقيم لجوبتير، والملعب الواسع المبني بالصخر. وبعد اوتيكا، كان لهَدْرُميت بعض المنزلة. وفيما عداهما، كانت الحياة تافهة، عاجزة عن كل تقدم، وكأنها تغط في الرتوب.

ولاشك ان المدن الحرة، كانت بها بورجوازية تعيش من التجارة، والصناعة، وتعيش أكثر من ذلك من استثمار الأملاك العقارية. ومن ناحية أخرى، فإن طبقة متوسطة، غير كثيرة العدد، على ما يحتمل، كانت متجمعة في نحو ستّ مدن. كما أن كثيرا من صغار الفلاحين الأهالي كانوا من ناحية أخرى يعملون إمّا في حقولهم، أو في الأراضي التي تملكها الدولة. وربما كانوا يعملون حتى في المزارع الخاصة.

أما الثروات فإنها، في المدن الحرة والبوادي، كانت ملكا للرومانيين على الخصوص من رجال الأعمال والملاك العقاريين الذين لم يكونوا يتوطنون البلاد أو يقيمون بها.

الكتــاب الثاني

# رومة والملوك الأفارقة

## الفصل الأول

## يوغرطة سيِّد نوميديا

### 1

من أعماق الظلمات التي تغشي شمال إفريقيا بين تخريب قرطاجة ومعارك يوليوس قيصر، يبرز وجه يوغرطة في الهالة التي أحاطه بها كتاب سالوسْت الشهير.

كتب سالوسْت «حرب يوغرطة Bellum Ingurthinum» حوالي سنة 40 ق.م، بعدما كتب «كاتيلينا Catilina» وهو إذ ذاك في عنفوانه، تبلغ سنّه السادسة والأربعين تقريبا. كان قد اعتزل الحياة العامة بعدما بحث فيها دون جدوى عن دور مهم يلعبه. ولكنه لم يترك طموحه لاكتساب الشهرة. غير أن المجد الذي لم تسعفه به السياسة وهبه له الأدب. وحيث أن رومة لم يكن لها مؤرخ حقيقي تعارض به مؤرخي الإغريق، فسيكون هو عديل توسيديد Thycidide. غير أن الأعمال الفكرية الواسعة لم تكن تغريه، وحيث أنه كان معنيا جدا بالتعبير عن آرائه في أسلوب متقن، فإن عمله كان صعبا. كما أن هذا العمل لم يكن ليملأ حياة مشبعة

بالترف الكبير المتولد عن ثروات تجمعت بالابتزاز. وعلى غرار فتنة كاتيلينا، فإن حرب يوغرطة كانت على قدر الأديب سالوست وعلى هوايته. فهنا أيضا وجد عملية ذات أثر درامي متجمعة في حقبة قصيرة من الزمن.

ولم يكن اختيار هذين الموضوعين بمعزل عن السياسة. فقد كان سالوست منتميا إلى الحزب الديمقراطي. ومع أنه لم ينل بهذا الحزب المكانة التي يراها تليق به، فإنه بقي وهو في عزلته يعادي النبلاء. ولذلك فإنه في كتابه عن كاتيلينا فضح تفسّخ طائفة من هؤلاء النبلاء، وفي كتابه عن يوغرطة استطاع أن يبين الشرور التي جرها على الجمهورية عدم كفاءة النبلاء، وجرها ارتشاء الأرستقراطية المتحكمة في الدولة منذ سقوط الأخوين الكراكيين. واستطاع أن يمجد الانتصارات الأولى التي نالتها معارضة منتعشة، حيث قال في مقدمته : «عزمتُ على الكتابة في الحرب التي خاضها الشعب الروماني ضد يوغرطة ملك نوميديا، لأن هذه الحرب كانت شديدة وقاسية. قد تعاقب فيها النصر والهزيمة، ولأن الناس استطاعوا لأول مرة أن يجابهوا وقاحة النبلاء».

ولعل من الممكن أن نضيف لهذين السببين سببا آخر لا يذكره سالوسْت، وهو معرفته لإفريقيا بإقامته فيها كمساعد لقيصر في أول الأمر، ثم بصفته أول بروقنصل لولاية إفريقيا الجديدة التي أنشئت سنة 46 ق.م.

لكن يجب ان لا نبالغ في تصور معرفة الكاتب بالأمكنة التي جرت بها الوقائع التي يتحدث عنها. فهو لم يمكث بإفريقيا سوى سنة ونصف. والولاية التي أسند إليه حكمها، والتي اهتم - على الخصوص -

بإبرازها، لم تكن تشمل من نوميديا سوى القسم المحاذي لولاية إفريقيا القديمة. وبهذا القسم كانت توجد مدن الجَمّة Zama وباجَة Vagaوسيكّا Sicca. وكلها مدن كان لها شأن في حرب يوغرطة. ولعل سالوست كان أيضا قد زار مدينة قَفْصة (كَبْسا Capsa) التي استولى عليها مارْيوس Marius. ولكنه لم يكن يعرف مدينة سرِْتا Cirta، (وهي اليوم مدينة قُسّنْطينة)، التي يحتمل أنه كان يظنها أقرب إلى البحر مما هي عليه في الواقع. ولو أن سالوست استطاع أن يتأكد بنفسه أن سرِْتا أقيمت على صخرة تحيط بها المهاوي الواسعة العميقة من كل جهة سوى الجنوب الغربي، فإنه من غير شك، ما كان ليكتب أن يوغرطة لما حاصر المدينة أحاطها بخندق ومعاقل. وكذلك كان يجهل موقع أضرحة فيلين Autels des Philènes التي هي الحدّ الدائم بين إفريقيا القرطاجية وإفريقيا الإغريقية بداخل سَدْرة الكبرى.

وحين كتب سالوست «حرب يوغرطة» كان نحو من سبعين سنة قد مر على هذه الحرب. فلم يكن بمستطاعه إذن أن يتلقى عنها معلومات شفوية ممن حضروها مباشرة.

ثم إنه لا يذكر عنها سوى واحد من مصادرها المكتوبة، كما أنه بمناسبة أحد الاستطرادات عما يسميه أصول الأفارقة يذكر ما ينص عليه كتاب باللغة البونيقية كان ملْكاً لهيمْبسال Hiempsal الملك النوميدي. فلاشك أن سالوست قد ذكر له هذا الكتاب وترجم له بمدينة زاما (الجَمّة) التي كانت عاصمة يوبا الأول ابن هيمْبسال، والتي ربما أصبحت قاعدة للولاية الجديدة. أما الحرب نفسها، فلا شيء يشير إلى أنه رجع في شأنها لمؤلفات كتبها أفارقة، على فرض أن هذه الكتب قد وجدت.

وهناك ثلاثة من كبراء الرومانيين لعبوا دورا في هذه الحرب، وكتبوا عنها مذكراتهم. وهم إيميلْيوس سْكَوْروس Aemilius Scaurus، وب. روتيلْيوس روفوس P. Rutilius Rufus، وأخيرا سولاّ Sylla الدكتاتور. واستطاع سالوست أن يطّلع على روتيليوس وسولاّ. فقد رجع إلى الأول مثلا في حديثه المفصل عن معركة نهر موثول Muthul. وهي معركة شارك فيها روتيليوس بحظ وافر. وأما الثاني فرجع إليه الكاتب في شأن المفاوضات التي كلف بها سولاّ مع بوكوس Borchus ملك موريطانية. والواقع هو أننا لا نعلم شيئا عن ذلك ولا يمكن أن نعلم عنه شيئا. أما سْكَوْروس فإن الكاتب يصفه بالسلوك الشائن، بينما سْكَوْروس يترفع عنه دون شك في مذكراته.

وكذلك فإننا نجهل هل استقى سالوست من مختلف كتّاب الحوليات الرومانية الذين ذكرت قصة حرب يوغرطة في كتبهم، مثل سَمْبرونْيوس أصيلو Sempronius Asello الذي عاصر هذه الحرب، وكَلَوْديوس كوادْرِكارْيوس Claudius Quadrigarius، وفَلَيْريوس أَنْتياس Valerius Antias. وهم أَحدث بقليل من الأول، ومثل ك. ليسيْنوس ماصِر C. Licinius Macer وك. آيليوس توبيرون Q. Aelius Tuberon المعاصرين لقيصر. وفي حديثه عن سولاّ Sylla أورد اسم ل. كورْنيليوس سيسِنّا L. Cornelius Sisenna الذي كتب تاريخا انتهى به إلى سنة 78، وأتمه هو (سالوست) بعد ما أذا ع كتابه «حرب يوغرطة». فأثنى على سلفه توبيرون، ولامه أيضا على أنه لم يحاكم سولا بكثير من الاستقلال في الرأي. ولكن يكاد يكون من المتأكد أن كتاب سيسِنا Sisenna لم يذكر به قصة حرب يوغرطة، وأنه بدئ بحرب الحلفاء Guerre Sociale التي حدثت بخمس عشرة سنة بعد سقوط الملك النوميدي يوغرطة.

لذلك لا يمكن أن نذكر على وجه التأكيد أيّاً من المصادر اللاتانية لحرب يوغرطة، وإن كان هناك ما يدعونا للاعتقاد بأن سالوست قد استقى من "التاريخ" الذي كتبه بالإغريقية كاتب شهير هو بوزيدونْيوس الأبامي Posidonius d'Apamée. فقد تابع هذا الكاتب كاتبا آخر هو بوليب Polybe، وذكر في مؤلفه الذي هو من 52 كتابا جميع الأحداث التي وقعت منذ 144 إلى نهاية دكتاتورية سولا، وربما إلى عهد الحكم الثالوثي الأول. ولاشك أن بوزيدونْيوس لم يزر إفريقيا، ولكنه حصل، ولا ندري من أي مصدر، على معلومات واسعة عن جغرافيتها وحيواناتها ونباتاتها، وكذلك عن عادات سكانها. وقد استفاد سترابون Strabon استفادة واسعة من كل هذا. أما ما يتعلق بالأحداث، فإن الكاتب الجمّاعة ديودور الصقلي Diodore de Sicile الذي احتذى، عن قرب فيما يخص هذه الحقبة بالكاتب بوزيدونيوس يساعدنا على تصور قيمة هذا الأخير كمؤرخ. ولكن من المؤسف أن لم يبق لنا سوى فقرات هزيلة من ديودور عن حرب يوغرطة.

ونلاحظ أنه كسالوست، يقدم لنا يوغرطة وهو يحيط سِرْتا بخندق، فيكون مصدر هذا الخطأ المشترك هو بوزيدونْيوس على ما يحتمل. كما أن سترابون يؤكد من ناحيته – كما فعل سالوست – أن القسم الغربي من مملكة نوميديا أكثر خصبا وأكثر سكانا من قسمها الشرقي، الأمر الذي يجعلنا نقبل أيضا أن كلا الرجلين قد استعار من بوزيدونْيوس هذا الزعم القابل للرد. وفي إحدى الفقرات التي يظهر فيها الأثر الإغريقي على صيغ أسماء الأعلام نجد المؤرخ الروماني يجعل أضرحة فيلين بغير مكانها الصحيح، ونجد سترابون يقع في نفس الخطأ أثناء تحليل رجع فيه إلى بوزيدونيوس. وهكذا نرى أن سالوست لم يكن دائما موفقا

فيما يستعيره من الغير، وأننا على صواب في تعجبنا من كون بروقنصل سابق لإفريقيا يكتفي بأن يبحث عند عالم إغريقي على المعلومات المتعلقة بجغرافية إفريقيا، في حين أنه كان من السهل عليه أن يتلقى معلومات أكثر وثوقا.

وليس معنى ذلك أن سالوست قد نقل عن بوزيدونْيوس نقلا حرفيا. فإن قولاً كهذا لا معنى له بالنسبة لكاتب له قيمة كسالوست، ثم إن هذا الرأي يفرض إذا أجريت مقارنة بين «يوغرطة» وبين ما بقي لنا عن ديودور من فقرات لا تتطابق تماما مع ما يقابلها من النصوص اللاتانية. ونضيف لهذا أن بوزيدونيوس كان يميل إلى النبلاء الرومانيين، وأنه لم يكن يظهر لهؤلاء النبلاء تلك القسوة التي يطفح بها كتاب «حرب يوغرطة».

ومع أننا لا نستطيع تأكيد أي شيء في هذا الموضوع، فالواضح هو أن سالوست قد وقعت بين يديه، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، أحاديث مفصلة لشهود عيان. ومن ذلك مثلا الحديث عن معركة نهر موثول Muthul، وحصار الجَمّة (زاما)، وبعثة غزو قَفْصة (كَبْسا)، والاستيلاء على معقل نهر مُلوكا Mulucha. غير أن هذه المصادر لم تكن متعددة. وسنخطئ كثيرا إذا تصورناه منكباً على عمله الشاق، عمل العالم الناقد الذي يبحث عن جميع الوثائق الممكن استعمالها، فيوضحها ويكمل بعضها بالبعض الآخر. ولاشك أنه كان يعلم أن أول واجبات المؤرخ هو أن يكون مدققا. ونحن عمليا لا نلاحظ في «يوغرطة» إلا عددا صغيرا من الأخطاء المادية. (بحكم أن وسائلنا للمراقبة غير كافية). ولكنه لم يَدَّعِ أبدا أنه سيقول كل شيء، وإذا أردنا أن نحكم عليه حكما عادلا، وجب أن لا نبحث في كتابه عما لم يرد قوله، أي عن القصة

الكاملة للأحداث، وسيرها حسب التوقيت الزمني الدقيق، والوصف المدقق للأمكنة التي جرت بها الوقائع، فهذه القصة التي يلزم أن لا تغفل عن العمليات الثانوية والرتيبة، والتي يلزم أن تحرف عددا ضخما من الأسماء المجهولة والغريبة لابد - والحالة هذه - أن تغرق القراء في بحر من السأم. ولكن سالوست كان يفهم مهمته كمؤرخ على نحو آخر.

وقد رأينا أنه لم يتخل عن دعواه بأنه رجل دولة، ولذلك لم يتوان في الإفصاح عن آرائه في هذا المجال، أو أن ينطق بها النقيب ميمْيوس Memmius والقنصل مارْيوس. فأنحى باللوم على الحزب الذي قاومه أثناء عمله في الحياة العامة. وبالرغم عن كونه يعلن عدم تحيزهن فإننا نشك في أن أحكامه كانت عادلة دائما. لكن، إذا كانت الآراء السياسية - وهي فوق ذلك قليلة العمق، لأنه لم يكن ذا تفكير فلسفي - تحتل مكانا واسعا في كتاباته، فإنها لا تهيمين عليها ولا تفسرها، لأن سالوست لم يكن مثل پوليب Polybe بْراگماتياً يهتم قبل كل شيء بتربية الأشخاص الذين يتهيأون لحكم الدولة.

وهناك نظرية أخرى عن التاريخ، هي التي تربطه بالأخلاق، وتدعو التاريخ عند تقديمه الأمثلة السامية، لأن يمجد الفضيلة ويذم الرذيلة. ومع أن سالوست لم يكن أهلا لأن ينصب نفسه رقيبا على الآخري، فإنه لم يحجم عن ذلك. وهو ما تشهد به على الخصوص مقدمة كاتيلينا ومقدمة يوغرطة. ونستطيع مع ذلك القول بأن هذا كان طلاء استحسن أن يصبغ نفسه به.

والتاريخ عنده عملية فنية قبل كلّ شيء. وهو في هذا يتفق مع جل القدماء. غير أن الجديد لديه هو الإطار الذي يحصر فيه التاريخ. إن

يوغرطة – مثل كاتيلينا – دْرامة حقيقية، تبرز من خلالها بوضوح بعض المشاهد المختارة، وتهمل أو ربما تنسى تماما الفصول المتوسطة. والضبط الزماني يُضحّى به أو يخضع لضرورات الإنشاء، والجغرافية تقصر على مجرد اللازم لإحلال المشهد في مداه المكاني. وفي مادة كهذه لا يعني سالوست نفسه بالصحة والدقة اللتين لا يحيد عنهما المؤرخ الإغريقي الكبير توسيديد Thycidide. ولهذا يصعب علينا إيجاد التتابع الزماني للوقائع المعروضة علينا، ويستحيل تصور مجموع العمليات العسكرية بوضعها في بيئتها الجغرافية فمثلا هناك نصوص أخرى تمكننا من أن نلاحظ أن سالوست سكت عن حدث يظهر لنا أنه عظيم الأهمية، وهو ضياع سِرْتا التي استولى عليها ميتِلّوس Metellus في 108، والتي لم تعد خاضعةً للرومانيين في 106.

وهذه الدوامة المعروضة علينا يقوم بها بضعة ممثلين. وليس التاريخ بالنسبة لسالوست نُمواً يكاد يكون حتميا للأنظمة الاجتماعية والسياسية، بل إن التاريخ يصنعه عدد قليل من الرجال الذين يسوقون الآخرين، والمؤلف يجعل هؤلاء الأشخاص في الأنوار الكاشفة، ويرسم لنا عنهم صورا فيها اعتدال وفيها قوة، ويجعلهم يعملون، بعد أن يكشف أسباب نشاطهم، فينفخ بذلك روحا في الدرامة.

ثم إن الدرامة لاتجري مع ذلك في سرعة لا تلوي على شيء. بل إنه يقتدي بجل من سبقه من المؤرخين. فيمزج الدرامة بالخطب التي هي قطع من البلاغة خرجت من مخيلته، والتي تظهر في أسلوب واحد أياً ما كان الخطباء الذين يعزوها لهم. فهي أسلوبه هو، تعبر أخيرا عن عواطفه هو وعن آرائه. ثم إنها من إبداع فنان يريد أن يبهر بقدرته. وقد تملاها الناس فعلا ودرسوها لنفسها، بغض النظر عن الموضوع الذي تدخل في

نطاقه. ولكي يروح الكاتب على القارئ فإنه يقطع الدرامة ببعض الفواصل، وكاستطراده عن أصول النوميديين والموريين Maures، وعن الأحزاب في رومة منذ سقوط قرطاجة، وعن الإخلاص الوطني لدى الأخوَيْن الفلينيين، البطلين الأسطوريين، وأخيرا بمقدمة تشبه تلك التي قدّم بها لكاتيلينا، والتي لا علاقة لها بباقي الموضوع، ولكنه يقدم فيها نفسه في وضع حسن، إذ يبرر - أو على الأصح يمجد - الأثر العقلي الذي يكرس له أوقات فراغه.

وحيثما اتجهنا، فإننا لا نجد أمامنا عالما يخدم الحقيقة ويذيعها. وإنما نجد كاتبا تظهر لنا شخصيته القوية بأسلوبه على الخصوص. هذا الأسلوب الموجز، القوي، العصبي، بجمله البسيطة القصيرة، وخطوطه البارزة. الأمر الذي يشعرك به كثرة استعماله للطباق والمقابلة، فيسير الأسلوب في خُطًى إيقاعية تتعارض كثيرا مع الثروة الوثيرة في أسلوب سيسرون. وأسلوب سالوست أداة صنعها الكاتب بقوة إرادته وبمجهوده الشاق، فهو له وليس لغيره، رغما عما اقتبسه من اللاتانية العتيقة والشعبية، ورغما عن تقليده لتوسيديد. وقد استطاع سالوست بقوته البسيكولوجية والدرامية، بأصالة أسلوبه أن يحتل مكانة مرموقة في الآداب اللاتانية.

وكلها صفات الفنان الكبير التي يمكن أن تخيب العلماء العصريين، الذين لا يجدون في "حرب يوغرطة" التفصيلات الدقيقة المؤمَّلة، فيميلون إلى أن يعتبروا هذا الكتاب البديع قصة جافة، باردة - وإن كانت صحيحة - تهتم بالتسلسل الزماني والوصف المكاني، وتشبه مثلا يوميات «حرب إفريقيا» التي كتبها أحد المحاربين من رفقاء يوليوس قيصر. وليس في هذا ما يسوغ طرد سالوست عن التاريخ، أو تتويجه

بإكليل من الزهور. إننا بعد قراءة يوغرطة، عاجزون بكل تأكيد عن أن نوضح على الخريطة غَدوات ميتِلّوس وماريْوس وروحاتهما. وعاجزون عن ذكر الأكواخ التي استوليا عليها، والقبائل الهمجية Barbares التي حاربتها الفيالق الرومانية، وعن ذكر جميع الأعمال الصغيرة التي كونت لحمة هذه الحرب، أو هذه الفتنة على الأصح. أما الملك النوميدي، وأيّ رجل كان، وكيف قاد المقاومة، وما هي المصاعب التي صدمت جيوش رومة بإفريقيا، وكيف واجهتها الجيوش، فذلك ما قاله لنا سالوست في لغة لاتنسى. وذلك هو المهم. فلا نَلُمه لكونه عزف عن أن يجمع لنا العناصر ليضعها بين أيدينا، ولكونه فضل أن يقيم بنفسه بناء لايبلي.

فلو لم يكن لنا هذا الكتاب لما عرفنا سوى القليل عن يوغرطة. وقد سبق لي أن أشرت إلى فقرات ديودور الصقلي الذي يرجع إلى بوزيدونيوس. أما تيت ليف Tite-Live، فإنه يذكر أحداث إفريقيا بين 118 و 105 في الكتب : 62 و64، و65، و66 من تاريخه. ولكننا نعلم أن هذه الكتب لم يبق منها سوى ملخصات هزيلة. وهناك مختصرات تقترن باسم أوتْروب Eutrope، وهي لا تكاد تعلمنا شيئا، وتعتبر اليوم ضائعة، وكذلك بول أوروز Paul Orose. وعن طريق هذا الأخير يمكن أن نلاحظ أن تيت ليف – الذي كان يكره سالوست – لم يحتذ حرب يوغرطة حرفيا، ولو كان يصعب أن نفرض أنه ألغاه جانبا. كما أن أوروز يذكر مدينة كَلَما Calama التي لم يذكرها سالوست، وحينما تحدث عن إحدى المعارك التي تَواجه فيها ماريْوس مع يوغرطة وبوكوس، فإنه يروي قصتها في صيغة تختلف كثيرا عن صيغة سالوست، حتى أن مبالغاتها لتذكرنا بمبالغات فاليريوس أنْتياس Valérius Antias وغيره من كتاب الحوليات الذين نقل عنهم تيتْ ليڤ بالحرف.

أما ديون كاسْيوس Dion Cassius، فلم يبق لنا منه عن حرب يوغرطة سوى خمس فقرات قصيرة. ولا يظهر أنه استخدم سالوست. بل ربما أنه اعتمد على تيت ليف. وكذلك القول عن أَپْيان Appien الذي ليس لدينا منه إلا بعض البقايا التي تظهر أن الكتب اعتمد على مصدر أو أكثر غير سالوست، وغير المصادر التي اعتمد عليها ديون كاسيوس. ولا نستطيع أن نقول أكثر من هذا. وكذلك فإننا نجهل المصادر التي اعتمدها بلوتارك Plutarque في ترجمتَيْه لحياة ماريْوس وسولاّ. ففي هاتين الترجمتين عدة صفحات لا تتفق مع سالوست. أما فْلوروس Florus فهو على النقيض من ذلك قد اعتمد في مختصره للتاريخ الروماني على سالوست.

## 2

أصبح مسنيسّا سيّداً على مملكة تمتد من المغرب إلى سيرنيكا، فكان يودّ لو يجعَل قرطاجة عاصمة لهذه المملكة. ولكن رومة باستيلائها على المدينة العتيدة وبتهديمها لها، هدمت كذلك اسمي آمال الملك الشيخ. فحزن لذلك حزنا عميقا، ثم استسلم لما لم يستطع منع وقوعه. وكان مسنيسّا منذ أكثر من نصف قرن وهو يعلن اعترافه للجمهورية الرومانيةَ التي مكنته من استعادة مكله وتوسيعه، كما كان يظهر التناسي للخدمات التي أداها هو لرومة، ويتخذ معها موقف المولى أو التابع، ولم يتخل عن قرطاجة. غير أنه إذا كان لم يسارع ببذل المساعدة في عملية موجهة في الحقيقة ضده، فإنه أنهى حياته بنوع من الاعتراف بأن حظوظ نوميديا ترتبط بالرومانيين.

أحس مسنيسّا في بداية 148 بوطأة مرضه، فأراد أن يستشير سيپْيون إيمليانَ Scipion Emilien (وهو الذي تبناه بطلُ معركة زاما)،

وذلك لتسوية مسألة من سيخلفه، فاستدعاه إلى سِرتا Cirta. ولكن سيپْيون لم يستطع الوصول في الوقت المناسب، فوجد أن الملك فوض له أن يتخذ الحلول المناسبة. ونحن نعلم ان الحل المتخذ، إن لم يكن مطابقا لإرادة مسنيسّا، فإنه كان مطابقا لمصلحة رومة، وهو أن الملك الوحيد، والسيّد المطاع قد حل محله ثلاثة ملوك، هم الأبناء الشرعيون الثلاثة للملك الميت، وأن الاختصاصات الملكية قد تجزأت بينهم. فنال الإدارة أكبرهُم وهو مسبْسا Micipsa، ونال گُلوسا Gulussa قيادة الجيش، كما نال العدلَيةَ مَسْتَنبَعْل Mastanabal. ثم ذهب گُلوسا في الحين مع سيپْيون ليشارك في حرب قرطاجة، فكان بالنسبة للرومانيين مساعدا نافعا ووفيا. أما أخواه، فلم يظهرا في أول الأمر سرعة في التخلي عن حلم أبيهما، ولكن فهما أيضا أن عليهما أن يقبلا ما لا مناص من قبوله.

وبعدما انتصرت رومة، تخلت لأبناء مسنيسّا عن بعض فتات الغنيمة، واحتفظت هي بمكان قرطاجة وبمنطقة تَمنع من الوصول إليها، أطلقت عليها اسم أفْريقيا Africa. ولم تكن تريد أن توسع من استيلائها إلى أبعد من ذلك، لأنها لم تكن ترى أن نوميديا غنية جدا، ولا متحضرة جدا، بحيث تؤدي ثمن استيلاء قد يكون شاقا، واحتلال عسكري قد يحدث مصاعب كبيرة. وكان الذي يهمها فحسب، هو أن يبقى ملوك هذه المنطقة الهمجية Barbare متّحدين معها، أي تحت وصايتها. ولم يكن من رأيها مطلقا أن تمكنهم من أن يتخذوا تجاهها سلوكا مستقلا، ولا أن ينسوا أنهم – عوض أن تكون لهم حقوق في إفريقيا – لم يتربعوا على عرش بلاد نوميديا، إلا لكونها رضيت – أعْني رومة – أن تتنازل عنها لمسِنيسّا. وهذا هو ما يناسب نفوذها وسلامة ولايتها. على أن

هؤلاء الأتباع يمكنهم أن يؤدوا لها بعض الخدمات، بصيانة حدودها الإفريقية، وبتقديم النجدات العسكرية والمؤن لها، وبتيسير السبيل للتجارة الإيطالية في أرضهم.

بعد سنين قليلة توفي گُلوسا ومستنبَعْل، وبقي مسِبْسا وحده ملكا. فلم يكن لرومة ما تخشاه منه. ذلك أن الإبن الأكبر لمسِنيسّا كان قد وصل إلى الشيخوخة أو كاد، وكان ذا مزاج هادئ جدا. وفي مدينته سرْتا، التي كان يعتني بتجميلها، كان يحلو له بالخصوص أن يتذاكر - على ما يقال - مع بعض الإغريق في العلوم والفلسفة. وكذلك فإنه على ما يظهر لم يهمل أن يأخذ من رعاياه، وبكثرة، ما يملأ به صناديقه. وهكذا مر عهده دون أن تقع به أحداث جسيمة.

وقد قام بواجباته نحو روُمة بإخلاص، إذْ صرح كما فعل أبوه بأنه ليس سوى قَيّم على مملكة تبقى رومة هي مالكها الشرعي. وقد جعل رهن إشارتها - كما فعل مسنيسّا - جنوده، وأفياله وكميات القمح. وهكذا فإنه بعث سنة 141 عشرة أفيال وثلاثمائة فارس إلى البروقنصل ك. فابْيوس مَكْسموس سرْڤيلْيانوس Q. Fabius Masimus Servilianus الذي كان سيحارب فيرْيات Viriath واللوزتانيين Lusitaniens. ولعله كان قبل ذلك بقليل قد بعث بأفيال أخرى إلى ك. كاسيلْيوس ميتلّوس مَصيدونكوس Q. Caecilius Métellus Macédonicus الذي حارب في 143-142 وهو قنصل في شبه جزيرة إيبيريا، ثم حارب بها من بعد وهو بروقنصل. وفي سنة 134 بعث اثني عشر فيلاً إلى سيپْيون إيمليان الذي كلف بتهديم نومَنْصا Numance، كما بعث إليه برماة وبأصحاب المقاليع وبالفرسان، والكل تحت قيادة يوغرطة ابن أخيه. ومن الممكن أن يكون قد بعث إلى كنْيوس ضوميثْيوس

أَهينوبارْبتوس Cn. Domitius Ahénobarbatus بالأفيال التي أحدثت للغاليين Gaulois رعبا شديدا سنة 121 وكان لها حظ في الانتصار الذي ناله هذا البروقنصل. وفي 126 أو 125 بعث بالقمح إلى الجيوش المحاربة في سردانية، حيث كان المتصرف المالي هو ك. سيمْبرونْيوس گراكوس C. Sempronius Gracchus الذي أصبح من بعد نقيبا شعبيا. وقد قيل إن الملك النوميدي أراد أن يترضاه بأداء هذه الخدمة للرومانيين. وقد توفي مِسِبْسا سنة 118 بعد أن طعن في السن.

وكان له ابنان شرعيان ما زالا طفلَيْن، هما آذربَعْل Adharbal وهيمْبسال Hiempsal. وكان يتمنى أن يخصهما بالملك من بعده، من دون الأمراء الآخرين من آل مسِنيسّا. غير أنه رضي أن يرضخ لحل آخر.

أما أخوه مستنبَعْل فقد ترك ابنين، أحدهما من فراش شرعي، وهو گاوْضا Gauda، وكان مريضاً ضعيف الرأي. والآخر وهو يوغرطة أمّه مَحظية. وبهذا لم يكن مؤهلا لاعتلاء العرش.

وكان مولد يوغرطة في حياة جده مسنيسّا، وحيث أن أباه مَسْتَنَبَعْل لم يعش طويلا بعد مسنيسّا، فإن عمّه مِسَبْسا قد ضمه إليه من صغره ورباه. ولابد أن سنه كانت نحوا من عشرين عاما حينما ذهب لحرب نومَنْصا في 134.

كان يوغرطة يَتحلّى بالمزايا الخلقية التي كانت لجده. فقد كان – على حد قول سالوست – جميلا وقويا. وليس لنا عنه أي صورة تمكننا من الحكم في هذا الشأن، لأن قطع العملة التي يرى البعض أن عليها صورته، تمثل بدون شك أحد الآلهة، هِرْكول Hercule مثلا، وكان محبا

للرياضات البدنية كالفروسية والصيد، وشجاعا إلى حد التهور. وقد استطاع من بعد أن يبين عن أهلياته العسكرية كقائد. وأن يقود بحنكة حرب العصابات التي يتقنها الأفارقة، ويخوض المعارك الحقيقية، ويضرب الحصار حسب الطريقة الرومانية، وكان ذا ذكاء حاد جدا، فاستعمل من العزم بقدر ما استعمل من اللين لبلوغ مطامحه، كما كان ماهرا في اجتذاب الغير. وفوق هذا، فإنه لم يكن يشعر بوازع ما، فكان منافقا، قاسيا ومتأكدا – استخفافا منه بالناس – أن الرشوة هي أضمن الوسائل لاكتساب الأنصار، ولم يكن يتردد في إتيان الجريمة للتخلص من أعدائه.

والواقع أن مزاجه كان يطفح بالمتناقضات الغريبة. فهذا الرجل الذي يظهر أنه ذو قدرة فائقة على خلق التصاميم العريضة وعلى تنفيذها، لم يكن ذا تفكير متزن. فالأزمات العصبية توهنه أو تجره إلى أعمال غير معقولة، كنوبات اليأس التي تتبدد فيها جرأته وعزيمته، وكالغضب الذي يعميه ويدفعه لارتكاب أخطاء لا يمكن إصلاحها. فيتحول على غير انتظار إلى همجي غير قادر على ضبط نفسه.

وقد جعلت هذه الخصال الحسنة يوغرطة محبوبا منذ شبابه عند النوميديين، حتى أن مسِبْسا – إذا صدقنا قول سالوست – قد داخلته من ذلك خشية، وفكر في التخلص من ابن أخيه الذي كان يفوق ابنيه، ويتمنى كثيرا أن يحل محلهما. ولكن تلافياً لثورة رعاياه عليه، إذا هو قتله، فإنه بعثه إلى نومَنْصا، عسى أن يلقى بها حتفه فيذهب ضحية لشجاعته.

وفعلا ذهب يوغرطة إلى أسبانيا، فوفد على جيش سيپْيون إيميليان. ولم يلبث أن جعل لنفسه بهذا الجيش مكانة عالية، إذ كان ينفذ

الأوامر بانقياد وذكاء، كما كان جريئا في القيام بالعمليات، وقادرا على أن يدلي بالرأي السديد، فكان محبوبا لدى الجميع لكياسته. أما سيپْيون، فإن يوغرطة كان يحسن الانقياد لمزاجه، مما جعل القائد الروماني يكلفه بأشق المهمات. وكذلك مساعدو سيپْيون - وكان من بينهم اثنان سيصيران من بعد خصمين ليوغَرْطة، وهما مارْيوس وروتيلْيوس - فكانوا يعاملون معاملة الصديق هذا النوميدي الذي تعلم كيف يتحدث باللغة اللاتانية من غير مشقة، بل إن بعضا منهم كان يحثه على الجهر بمطامحه.

وفي صيف سنة 133 سقطت نومَنْصا، فمدح سيپْيون يوغرطة، وجازاه بمحضر الجيش كله ثم أذن له بالعودة وحمله إلى مِسِبْسا برسالة يمجد فيها قيمته التي يقل نظيرها.

ففهم الملك الشيخ أنه لم يعد بمستطاعه أن يعترض على حظ ابن أخيه. فتبناه، (أما في نفس الحين، أو سنة 120)، وذلك ما رفع الابن غير الشرعي لمستنبَعْل إلى صف أمير يجري في عروقه الدم الملكي ويؤهله للملك. ثم كتب وصيته من بعد، وعين فيها يوغرطة ولياً للعهد على مملكته مع آذربَعْل وهيمْبسال. وإذا تغيبوا فإن التاج يجب أن يؤول إلى گاوْضا.

## 3

مات مسِبْسا، واجتمع للمداولة الأمراء الثلاثة الذين عينهم خلفا عنه. وفي الحين اتخذ هيمْبسال وهو الأصغر موقف الاستخفاف بيوغرطة. فجعل يزدريه، كبرياء منه، ويرى أنه هجين غير أهل للرتبة العليا. فذهب وجلس على يمين آذربَعْل ليمنع يوغرطة من الجلوس

بالمحل الأوسط الذي هو مقعد الشرف. وبعد مشقة وافق على رأي آذربَعْل الذي رجاه ملحّاً أن يتنازل اعتباراً للسن. وبينما هم يتذاكرون في إدارة المملكة، قال يوغرطة كلاما، كان من بينه أنه يجب إلغاء المرسومات التي صدرت خلال السنوات الخمس الأخيرة، لأن كبر سنّ مسبْسا أضعف عقله. ويظهر أن هيمْبسال أجاب بأنه يوافق على ذلك، لأَن التبني الذي مكن يوغرطة من الوصول للملك لم يقع إلا منذ ثلاث سنين. فسكت الآخر، ولكنه قرر أن ينتقم لهذه الإهانة.

إننا نجهل ما إذا كان مسِبْسا في وصيته قد سوى ولاية عهد مسبْسا، أي بتوزيع الاختصاصات بين ولاة العهد الثلاثة الذين قد يكونون تولوا الحكم جميعا. وعلى كل فإن آذربَعْل وهيمْبسال ويوغرطة تخلوا عن التشارك بينهم في الحكم عندما لم يستطيعوا التفاهم. فقرروا أن يتقاسموا الخزينة، وأن يفعلوا مثل ذلك بالنسبة للمملكة، وأن يحددوا حدود الدول الثلاث التي تتكون تبعا لذلك. ولم يذكر سالوست هل طلبوا موافقة الجمهورية الرومانية. ولكن يمكن الظن، بل ربما صح أن نفرض ان ذلك هو سبب قدوم م. بورْكيوس كاتون M. Porcius Caton أحد قنصلي سنة 118 إلى ولاية إفريقيا حيث مات.

اتفقوا على أن يقتسموا الأموال أولاً، وفي انتظار ذلك التقسيم انسحب الملوك، كل لوجهته، إلى الأماكن التي كانت - حسب ما ذكره سالوست - قريبة من الخزينة. فذهب هيمْبسال إلى مدينة تسميها المخطوطات باسم ثِرْميدا Thirmida. وكانت سِرْتا Cirta هي دار الإقامة المفضلة عند مسبْسا. إذن فيها، لاشك، كان محفوظا أكبر قسم من أمواله. ولكننا لا نعرف بالقرب من سِرْتا أي مدينة تحمل اسم ثِرْميدا، على أن كنوزا (أي صناديق الأموال)، قد كانت موجودة بمدن أخرى من

المملكة. وربما كان أحد هذه الكنوز في ثُگّة Thugga، التي هي إحدى المدن المهمة في نوميديا، بل لعلها كانت أهم مدينة بعد سِرْتا. غير أننا نجد على مسافة قريبة من ثُگّة ثيميدابور Thimida Bure وهي مدينة أهلية قديمة، ربما ملنا إلى القول بأنها هي ثِرْميدا التي ذكرها سالوست. فهل يكون الأمراء قد استحسنوا عقد اجتماعهم في ثُگّة هذه، التي كانت شديدة القرب من ولاية إفريقيا، والتي كانت مواصلاتها مع السلطات الرومانية أكثر يسرا من مواصلاتها مع سِرْتا ؟

نزل هيمْبسال في ثِرْميدا عند نوميدي مرتبط في وظيفته بشخص يوغرطة. وقد توصل هذا الأخير من النوميدي المخلص له، وذلك بدعوى زيارة منزله، أن يحرز على مفاتيح زائفة (لأن المفاتيح الأصلية دفعت إلى هيمْبسال). وهكذا أمكن للنوميدي أن يُدخل إلى منزله ليلا بعضا من جنود سيّده. ففاجأوا الحرس وأثخنوا فيهم. وبحثوا في كل مكان عن الملك الشاب، حتى انتهوا بالعثور عليه في كوخ إحدى الإماء، وكان قد التجأ إله. وعادوا برأسه إلى يوغرطة، حسب الأوامر التي تلقوها.

لما علم القدامى من رعايا مسبْسا بهذه الجريمة، والى بعضهم جانب يوغرطة، أما الآخرون - وهم أكثر عددا - فقد والوا جانب آذربَعْل الذي أراد أن ينتقم لأخيه، وخشي أن يلاقي مثل حظه. وكان مع يوغرطة الرجال الذين يتقنون الحرب، ويعرف هو كيف يقودهم. وقد جرب آذربَعْل حظه بمعركة فخسرها، وأصبح المنتصر سيدا على جميع نوميديا، فأمر أن يعدم أو يسجن أهم أنصار الخصم المندحر، الذي فر إلى الولاية الرومانية، ومنها توجه إلى رومة. وقد سبق له قبل اندحاره أن أخبر مجلس الشيوخ (الروماني) باغتيال أخيه وبالأخطار التي تهدده بنفسه.

أما يوغرطة فقد بعث من جانبه سفارة مكلفة بتبرئته، ومكلفة قبل كل شيء بالحصول على عون الأصدقاء الذين عرفهم في حرب نومَنْصا، ثم الحصول بواسطتهم على عون غيرهم من ذوي النفوذ.

وحيث أنه كثيرا ما سمع الناس – وهو بمعسكر سيپْيون – يقولون إن كل شيء في رومة يُنال بأداء ثمنه، فإنه زود مبعوثيه بمقادير ضخمة من الأموال، وأوصاهم أن ينفقوا منها بسعة.

وفي اليوم الذي اجتمع فيه مجلس الشيوخ ليستمع للجانبين، طلب آذربَعْل عون الرومانيين، حلفاء وحماة جده وأبيه. ورجاهم أن يعيدوا إليه المملكة التي نالها مسنيسّا بفضل إحسانهم، والتي استولى عليها يوغرطة، من غير أن يهتم بهم، وبوسائل إجرامية. أما سفراء يوغرطة فقد أجابوا باختصار، قائلين : «إن هيمْبسال قد قتله رعاياه الذين أغضبتهم قسوته، وأن آذربَعْل هو الذي هاجم، ولا حقّ له في التشكي من هزيمة جعلته غير قادر على أن يسيء. وأن يوغرطة يرجو مجلس الشيوخ أن لا يصدق بأنه أصبح شخصا آخر منذ العهد الذي أمكن فيه الحكم عليه باعماله أمام نومنصا».

وغادر آذربَعْل والموفدون القاعة، وشرع المجلس في الحين في المداولة. فأنحى بعض الأعضاء، من ذوي المكانة، باللوم الشديد على سلوك يوغرطة، وطالبوا باتخاذ التدابير ضده. ولكن أكثر الأعضاء لم يوافقوهم على رأيهم. فلاشك أن ذَهَبَ الملك النوميدي أثقل كثيرا من الضمائر. ولكن – وهذا ما لم يقله سالوست – في الإمكان تقديم حجج تستحق الاعتبار. فبين هؤلاء الهمج القادرين على كل شيء، والمتعودين على الكذب يكون من الصعب جدا معرفة أيّهم على حق. وحتى إذا كان يوغرطة مذنبا، فقد سبق له أن أدى للجمهورية خدمات عظيمة لا تستطيع

نسيانها، بينما هيمْبسال وآذربَعْل لم يفعلا من أجلها أي شيء. ثم إن الشرف لا يوجب الانتقام لأحد الأموات، ولا مناصرة المغلوب بإثارة حرب مصاعبها واضحة، وفوائدها قد تكون منعدمة.

وحيث أنه لا يوجد من يفكر في الاستيلاء على نوميديا، فأحسن شيء هو تقسيمها بين المتخاصمين، فيوازن بعضهم بعضا، وبذلك تضمن السلامة والتفوق لروما. وهي بفرضها هذا الحل للمشكلة، تبين ليوغرطة وللجميع بأنها لا تقبل أن تخرج مملكة مسِنيسّا عن وصايتها.

فتقرر إذن أن عشرة من المنتدبين يقومون بالتقسيم، وجعل على رأسهم ل. أوبيميوس L. Opimius الذي استعمل أعنف الوسائل لما كان قنصلا سنة 121 ضد كْيوس گراكوس C. Gracchus وانصاره حتى ضمن النصر للنبلاء، ولم ينجح الديمقراطيون في الحكم عليه بعد خروجه من منصبه. وكان قد أعلن في رومة أنه ضد يوغرطة. فهل صحيح ما اتهم به، من أنه في إفريقيا أسْلسُ تجاه الملك الذي اشتراه بالأموال هو وكثير من زملائه ؟ لقد كان لأوبيميوس كثير من الأعداء الذين يشهرون به – لاشك – حتى ولو لم يكن مذنبا.

ويؤكد سالوست أن يوغرطة واتاه الحظ بنيله القسم الغربي من المملكة الذي هو أكثر سكانا، وأكثر خصبا من القسم الشرقي الذي أعطي لأذربَعْل. وهذا أمر مشكوك فيه جدا، ويحتمل أن يكون غير صحيح. لأن قسمة آذربَعْل اشتملت على كل المنطقة التي كانت تمتد من الولاية الرومانية إلى مسافة قريبة بغرب سرتا. وهذه المنطقة لم تكن بها الحياة الحضرية كما يقول سالوست أوسع مما كانت عليه بغرب نوميديا فحسب، بل حتى الزراعة كانت بها مزدهرة، خصوصا في النواحي التي

كانت خاضعة لقرطاجة والنواحي القريبة منها. ومن ناحية أخرى، لوحظ أن اللجنة راعت على ما يحتمل مصلحة رومة حين أعطت لأذربَعْل نصف نوميديا المحاذي للولاية الرومانية، وليوغرطة النصف الآخر. فالأول ورث الأخلاق الدميثة التي كانت لأبيه مسبْسا، وبذلك فلا يمكن إلا أن يكون جارا طيبا، بينما يحسن أخذ الاحتيَاطَ من مطامح الثاني.

والحقيقة هي أن يوغرطة لم يفكر مطلقا في أن ينتزع من رومة ما كانت تملكه في إفريقيا. وهو لم يوجه أسلحته للولاية، حتى عندما مكنه الانتصار من ذلك. كما أنه لم يسلك أبدا مسلك العداء القطعي مثل حنّيبَعْل Hannibal وميثريدات Mithridate. وحين لا يفقد تعقله، كان يفهم جيدا أنه لا قدرة له على اقتحام حرب قاتلة يخرج منها منتصرا. فقبل الحرب التي خاضها ضد الجمهورية، وبعدها كذلك، كان يأمل تسوية الخلاف معها، ويبحث عن تلك التسوية، وقد أبدى استعداده ليقدم لها الاحترام ولو بتواضع كبير. ولكن هذا كان بشرط أن تتركه سيدا على نوميديا جمعاء. فلم تكن وساطة أوبيمْيوس وزملائه لترضيه إذن، فأظهر التنازل لُها، وإن كان لم يقبلها.

وكل هذه الأحداث التي ذكرنا تتابعت بسرعة على ما يحتمل بعد موت مسبْسا التي وقعت سنة 118. أما بعثة أوبيميوس فتؤرخ على ما يظهر بسَنة 117.

وقد مرت أربع سنين، رغما من سالوست الذي لا يعتني بالتسلسل الزماني، والذي قال أن يوغرطة هاجم من جديد آذربَعْل بعد ذهاب المنتدبين بزمن قليل. فلربما تكون الحرب قد عادت من جديد سنة 113.

وبدعوى أن آذربَعْل حاول أن يقتله غيلة عاد يوغرطة فبعث فجأة على نوميديا الشرقية كتائب من فرسانه، فأثخنوا فيها ثم عادوا

بغنائمهم. ولكن آذربَعْل، الذي وقع تحديه هكذا، لم يرد أن يدخل في صراع لا تتعادل فيه القوى. إنه يذكر اندحاره ويتمنى لو تتدخل رومة. وبعث إلى أخيه بالتبني موفدين بقصد الشكوى، فلم يرجعوا إلاّ بالجواب المهين. ورأى يوغرطة أن آذربَعْل يتجنب كل ما من شأنه أن يعتبر هجوما، فقرر أن يحاربه حربا منظمة، واجتاح أرضه بجيش حقيقي، وأتلف المدن والبوادي. فأرسل آذربَعْل سفارة إلى رومة، ثم رأى أنه لم يعد بمستطاعه أن يتخلى زمنا طويلا عن الدفاع عن نفسه، فزحف لملاقاة مهاجميه.

عسكر الجيشان بمكان غير بعيد عن سرْتا، وأرجئت المعركة لأن الليل كان قد أقبل. لكن، عند نهاية الليل أعطيت الإشارة لجيوش يوغرطة، فانقضت على معسكر الأعداء، فلم يجدوا مشقة في أن يهزموا رجالا أوقظوا من نومهم فجأة، ولم يجدوا وقتا لأخذ أسلحتهم. وفرّ آذربَعْل إلى سرتا مع بضعة من فرسانه، فكان مدينا بسلامته إلى الإيطاليين الذين وقفوا بأسوارها يصدون سهام النوميديين الذين انطلقوا يتبعون آذربَعْل.

وكان الاستيلاء على سرتا صعبا جدا، لأن المهاوي تكاد تحوطها من كل جانب، بحيث لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق ضيق. ولاشك أن هذه الناحية هي التي قام فيها يوغرطة بخدمات الحصار، لا في جميع الجهات المحيطة بالمدينة كما يقول سالوست، وكان يوغرطة يسرع لينتهي العمل، لأنه كان يعرف أن موفدين عن آذربَعْل قد ذهبوا إلى رومة. فكان يريد أن يسبق نتائج ما يطلبونه. ولكن مجلس الشيوخ الذي علم بواسطتهم بخبر الحرب التي اندلعت في نوميديا، بعث عنه ثلاثة من الشبان كلفوا بأن يأمروا الملكين باسمه واسم الشعب

الروماني أن يضعا السلاح، وأن يسويا خلافهما بالقانون، لا بالقوة. وأسرع هؤلاء الشبان، إذ قبل ذهابهم، أخذت تجري إشاعات مبهمة عن معركة سرتا وحصارها. وقد أجابهم يوغرطة بأن الشعب الروماني سيرتكب عملا مخالفا للعدل إذا منعه من استخدام حقه الشرعي في الدفاع ضد مجرم حاول قتله. ولم يمكنهم من الدخول إلى سرتا للاتصال بآذربَعْل.

واستمر الحصار، وطال خمسة اشهر، ورأى آذربَعْل أن ثرواته تقل، وأنه لا أمل له في الحصول على عون من النوميديين، فقرر أن نداء جديدا إلى رومة هو وسيلته الوحيدة للنجاة. فخرج رجلان جريئان، قبلا أن يخترقا صفوف العدوّ ليلاً، فتوجها إلى ساحل البحر، ومنه قصدا إيطالية يحملان رسالة رجاء ملكهما إلى مجلس الشيوخ.

فاقترح بعض أعضاء المجلس إرسال جيش لفك الحصار عن آذربَعْل، وفي انتظار ذلك، ينظر في أمر يوغرطة الذي لم يطع الموفدين الرومانيين. غير أن هذه المقترحات أحبطها أنصار يوغرطة، وبما انضم إليهم حتى الذين لم يرتبطوا به ولكنهم كانوا لا يريدون حربا. وتقرر أن يرسل إلى إفريقيا بعض المنتدبين. فذهبوا بعد ثلاثة أيام، وقصدوا مدينة أوتيكا بأقصى سرعة ممكنة. وكانوا قد اختيروا من بين أكبر الشخصيات أهمية في الدولة.

كان من بين الموفدين، م. أيميلْيوس سكَوْروس M. Aemilius Scaurus وهو شخصية قنصلية، وصدر بمجلس الشيوخ، وكان رئيسا للحزب الأرستقراطي الذي لم يكن آهلا بالأشخاص من ذوي القيمة. وقد بقيت له تلك الحيثية مدة ربع قرن، بفضل مهارته وخبرته بالشؤون ومعرفته بالناس. وكانت تلوح عليه مظاهر الصرامة وحيث أنه كان يترفع

عن الخطب البليغة التي تجذب الجمهور أو كان لا يقدر عليها، فإنه كان يعرف أن يقول بقوة وبوقار ما يحسن أن يقال في مداولات المجلس من كلام يعتبر منطق العقل. وكانت له براعة فائقة في ستر الدسائس السياسية، وما يشغله من مصالحه الشخصية، تحت رداء المبادئ السامية. وكما كان يحبُّ المال، كان أيضا متعطشا للتكريم، وكثيرا ما اتهم بأنه نال ثروته الطائلة بوسائل غير شريفة، ولكن لم يكن التدليل على ذلك بحجة أبدا. وإذا كان سالوست قد قسا في حكمه على هذا الشخص المعادي للديمقراطية – خصوصا وأن شدة خطورته أتت من كونه لم يحاربها بعنف – فإن سيسرون وغيره قد مجّدوا ذكرى سْكَوْروس باحترام كبير، بل إن منهم من ذهب إلى حد القول بأنه كان «نوراً لوطنه وشرفا له».

وأثناء الحرب الأولى بين آذربَعْل ويوغرطة أظهر سْكَوْروس عداوة لهذا الأخير ولربما كان ذلك منه أنفة من أن يلطخ نفسه بالاتفاق مع الذين يستفيدون من أموال الملك النوميدي الفاضحة، ولربما فعل ذلك أيضا اعتبارا منه بأن الجمهورية لا يمكنها أن تترك يوغرطة يفعل ما يريد في مملكة تابعة لرومة. وعلى كل فليس هناك ما يجعلنا نعتقد أن سْكَوْروس كانت له أسباب أخرى حينما نزل في أوتيكا عند أواسط سنة 112.

كتب المنتدبون بمجرد وصولهم إلى يوغرطة يأمرونه أن يأتي من غير توان ليسمع ما يقولونه له باسم مجلس الشيوخ. فتردد يوغرطة كثيرا، وحاول الاستيلاء على سرْتا بالهجوم، لأنه كان يريد القبض على آذربَعْل قبل أن يذهب لمقابلة من استدعوه ولا يستطيع عصيانهم، ولكنه أخفق. فذهب إلى أوتيكا يصحبه بعض الحرس من فرسانه. وهنا وقع

تهديده بأشد التهديدات باسم مجلس الشيوخ إذا هو لم يتخل عن محاصرة سرتا. ولاشك أنه، إما أن يكون قد ظن بأن الأمر لا يعدو التهديد، أو أن العاطفة تغلبت لديه على خوف القطيعة، مع أنه كان أبعد من أن يتمنى هذه القطيعة. وبعد مذاكرات طويلة عاد المنتدبون من غير أن يحصلوا على شيء.

وعلم بعدم نجاح هذا اللقاء الإيطاليون الموجودون بسِرْتا، والذين كانوا يشاركون مشاركة فعالة في الدفاع عنها، فظنوا أن كل مقاومة قد أصبحت منذ الآن غير مجدية. ولم يشكّوا في أن نفوذ رومة يضمن سلامتهم، إذا وقع الاستسلام، فدعوا إذن آذربَعْل إلى التنازل عن المدينة وإلى تسليم نفسه بشرط الإبقاء على حياته. ولمجلس الشيوخ أن يقرر في الباقي. ورغما عن مخاوفه، فإن الأمير التعس قبل الرأي، لعلمه أنه إذا رفض هذه النصيحة، فإنه سيرغم عليها.

فعذّبه يوغرطة وقتله في الحين، ثم انتشر جنوده في المدينة يقتلون جميع من يلقونهم حاملين السلاح من تجار إيطاليين ونوميديين. وكانوا على ما يقال ينفذون أوامر الملك الذي ضللته أزمة غضب من تلك الأزمات التي تستولي عليه أحيانا.

## الكتـاب الثاني
# رومة والملوك الأفارقة

## الفصل الثاني
# بداية الحرب ضد يوغرطة

### 1

أَلْزم يوغرطة رومة بالحرب، بسبب المذبحة التي أوقعها بالإيطاليين في سرتا، وظهر أن كل عمل غيرها صار مستحيلا، خصوصا وأن أعداء النبلاء وجدوا فرصة مناسبة جدا ليهيجوا الناس ضدهم. وصار بمستطاعهم أن يقولوا للشعب الغاضب إن الملك النوميدي تجرأ على اقتراف هذه الجريمة الشنعاء، لأنه ضمن لنفسه السلامة من عواقبها بشرائه لسادة الجمهورية. وكان يقود الديمقراطيين ك. ميْميوس C.Memmius الذي انتُخب نقيباً شعبياً في وسط السنة، ليزاول تحمله للمسؤولية في شهر ديسمبر. وقد وصفه سيسرون بأنه كان خطيبا رديئا. ولاشك أنه كان رجلا سياسيا تنقصه العقيدة الثابتة، لأنه تقدم بعد اثني عشر عاما للانتخابات القنصلية مرشحا عن الأرستقراطيين، الأمر الذي جعل أَصدقاءه القدماء يضربونه الضربة القاتلة. لكن في 112 والسنوات التي تلتها لم يكن للنبلاء خصم أعنف ولا أشد منه.

وتوانى مجلس الشيوخ عن اتخاذ أحد القرارات، نتيجة - كما يقول سالوست - لتعرضات الذين أمالَهم يوغرطة لقضيته بالمال، ففضح ميْميوس هذه المناورات للشعب، وبهذا يسند للقنصلين الجديدين إيطاليا ونوميديا، أي يسند قيادة الحرب بهذه المنطقة. وكان ل. كَلْبورْنيوس بيسْتيا L. Calpurnius Bestia أحد الاثنين المنتخبين، وإليه أسندت نوميديا. فحشد الجيش واتخذت التحضيرات الضرورية لنقله إلى إفريقيا. وسمع يوغرطة هذه الأخبار فكلف أحد أبنائه، ومعه اثنان من السفراء، بالتوجه إلى مجلس الشيوخ بروما لتحويل الإعصار عن رأسه، وزودهم بكثير من الذهب. وعند اقترابهم من روومة، سأل كَلْبورنيوس بيسْتيا - الذي كان يزاول مهمته منذ فاتح يناير 111 - هل المجلس يسمح بقبول هؤلاء السفراء في المدينة ؟ فتقرر أنهم إذا كانوا لم يأتوا لتسليم مملكة نوميديا وملكها نفسه، فإن عليهم أن يغادروا إيطاليا قبل فوات عشرة أيام. وذلك هو ما فعلوه. وأُشْهِرت الحرب على يوغرطة.

## 2

أما هذه الحرب فإن كثيرا من ذوي النظر البعيد من الرومانيين أرادوا - ولازالوا يريدون - تلافيها. لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذهب يوغرطة ليفهموا أنها غير مرغوب فيها، وأنها ستكون قاسية.

فعند بداية هذه السنة، وهي 111 ق.م، لم يكن قد مر سوى سنتين على الهزيمة الشديدة التي حدثت في تْراقيا Thrace، كما لم يمر سوى سنة واحدة على الهزيمة التي ألحقها السِّمْبريون Cimbres بالقنصل بابيرْيوس كَرْبو Papirius Carbo في مقاطعة نوريك Norique. وإذا كان بعض رجال السياسة يخشون الأخطار التي تهدد من وراء جبال الألب،

فإنهم ليسوا مخطئين، إذ ستعرف سنوات 109 و107 و105 هزائم جديدة تصيب الجيوش الرومانية في بلاد الغال La Gaule. فهل يكون من المناسب الدخول بهذه الأرض النوميدية البعيدة جدا في حرب لا تجدي نفعا، في وقت تثقل فيه الأعاصير الأفق بأروبا ؟

إن الناس منذ عهد حنّيبَعْل أصبحوا يعلمون أن هؤلاء الباربار Barbares الأرفارقة ليسوا من الأعداء الذين يستهان بهم.

إنهم يتنقلون بسرعة على الأقل إذا كانت الحروب التي يقومون بها ليست هجرات، ولا رحلات تصحبهم فيها أسَرُهم وقطعان ماشيتهم. وإذا دعت الضرورة، فإن المشاة يتحملون السير الحثيث في المسافات الطويلة. وفرسانهم العديدون يركبون خيولا خفيفة تقاوم التعب. فالرجال والحيوان لهم أقدام ثابتة، ويمرون بكل مكان. والأسلحة الخفيفة التي يستعملها الأهالي، لا تثقل كواهلهم. وليس لهم شيء غير ذلك يحملونه. إنهم يقتاتون مثل خيولهم بما يجدون، وينامون في العراء. وبتعودهم للطقس صاروا يتحملون شدته وتغيراته المفاجئة. ولهم على العموم نظر حاد، وتمييز غريب لطبيعة الأرض، ومعرفة بالبقاع، كما أن لهم مهارة على أن ينالوا من البقعة كل الفوائد التي تتيحها لهم.

وهم كالأسبانيين أصلح لحرب العصابات، الحرب الصغيرة التي يُستنزف فيها العدو بالمناوشات. ويعرفون كيف يراقبون حركاته، ثم يخبرون بها بسرعة لا تصدّق. ويخلون المجال حوله، ثم يسدّون المنابع والآبار أو يسممونها. ويجتثون المحاصيل الزراعية، ثم يسوقون الماشية، ويتلفون خطوط المواصلات، ثم يقتلون المتباطئين من جنود العدو، أو من انفصلوا للبحث عن الماء أو العلف. ويصنعون المكامن، ثم يتظاهر بعضهم بالهجوم والفرار حولها ليجرّوا المغترين إليها،

وينقضون فجأة ليلا أو نهارا على الجنود الذين ترهقهم الحراسة المستمرة، فيؤذونهم أشد ما يمكن من الأذى في مناوشات قصيرة، ثم يبتعدون عندما تواجههم المقاومة. وسرعان ما يظهرون بمكان أخر. ويقومون أيضا بغزوات سريعة بأرض العدوّ أو الأرض الخاضعة له. ومع ذلك فقد لا يتنبهون لمباغتة العدو لهم، لأنهم قد يصابون بما يصيب «الهمج» Barbares من إهمال وكسل.

وإذا كانوا يفضلون حرب العصابات على المعارك الكبرى، فإنهم لا يخشون هذه المعارك، لأنهم شجعان. بل يمكن للملك أن يرى من الضروري القيام بإحدى هذه المعارك التي تبشر بانتصار سريع وحاسم. فيجب عليه، والحالة هذه، أن لا يسد سمعه عن تشكيات رعاياه الذين يفدحهم جيش العدوّ، والذين يطلبون الخلاص منه على عجل، كما يجب عليه أن يدخل في اعتباره إرادة أكثرية رفقائه في الحرب بالعودة إلى ذويهم.

ولكن الأفارقة يختارون وقتهم وميدانهم، ويجرّون ورائهم العدوّ الذي يريد عبثاً أن يقبض عليهم. فيظهرون بغتة وعلى غير انتظار، ويستفيدون عند الحاجة من ظلمات الليل التي تمكّن من المباغتة، كما تساعد على الفرار عند الإخفاق. ويفضلون الأمكنة الوعرة على السهول التي تكشف عنهم آتين من بعيد.

وقد بقيت طريقتهم في الحرب من غير تغيير حتى عرفتها «جيوشنا في الجزائر والمغرب»، مثلما عرفها الرومانيون. والبنادق وحدها هي التي حلت محل الرماح التي كانت لدى الأفارقة القدماء تؤدي نفس الدور الذي تؤديه السهام عند الفَرْثيين Parthes. والهجوم يجري صاخبا وبحملات متتابعة. وأفواج الفرسان – التي يمكن أن يخالطها المشاة

الذين لهم مثل خفة الأفراس في الجري - تتهافت من كل جانب على العدّو. حتى إذا وصلوا إلى مسافة قريبة منه - ثلاثين أو أربعين مترا - رموه جميعا برماحهم. وإذا تراخى العدوّ، فإنهم يخترقون صفوفه ويزحزحونه. أما إذا صمد أو تقدم إلى الأمام، فإن المهاجمين يولون خيولهم الراكضة لبعض المسافة إلى الوراء. وأما المشاة - إن كانوا قد صحبوهم - فإنهم عوض أن يفروا مثلهم بنفس السرعة، يعملون لتأخير المتابعة بإرسال رماحهم على العدوّ من جديد. وبذلك يستطيع الفرسان إعادة تنظيم أنفسهم بكامل السهولة. وفي بعض الأحيان يقف احتياطي مؤلف من جنود أشداء مسلحين بأقوى سلاح، فيكونون لهم سندا ونقطة ارتكاز يتجمعون بها، حتى إذا عادت لهم حَميتهم قاموا بحملة جديدة. وعلى ذلك يستمرون حتى يَفلوّا العدوّ، أو ييأسوا من هذه النتيجة. ولا يتركون المعركة إلا إذا أرغمهم على ذلك التعب أو نفاذ رماحهم أو تقدم الخصم إلى الأمام.

وينسحبون إذ ذاك نهائيا بخسارة ضعيفة كما هو المعتاد، لأنهم تلافوا الصرا ع البدني الذي لم يكن ليستعمل فيه أكثرهم سوى السكين. وإذا لم ينتهزوا فرصة هذا الإخفاق للهروب من الجيش، فإنهم يكونون قادرين على معاودة معركة جديدة في الغد أو بعد بضعة أيام. لكن إذا اتسع الإخفاق حتى بلغ حد الهزيمة الحقيقية، إذ ذاك يكون الفرار السريع إلى الأماكن التي يتكبد العدوّ مصاعب كبيرة في تَقفّيهم إليها، كالجبال الشامخة، والبراري الموحشة، وانتظارا لفرصة معاودة الهجوم. وقد يذهبون إلى بعض الحلل فيختفون بها، او إلى المدن الحصينة المقامة على المرتفعات التي يسهل الدفا ع عنها، أي إلى معاقل هي في نفس الحين نقط ارتكاز لحرب العصابات ومخازن للطعام.

تلك إذن هي الحرب التي كان على رومة أن تخوضها بإفريقيا.

وباستطاعة رومة أن تبعث إلى هذه المنطقة بجيوش جرارة. فذلك أمر ضروري، لأن تفوق أسلحة الرومانيين على أسلحة «الباربار» - وإن كان غير مشكوك فيه - فإنه لا يمكن من وجود فارق عددي كبير بين أحسن وسيلة لإخماد نشاط المقاومة. ومع أننا لا نستطيع الإتيان بأرقام مدققة، فإن مما لاشك فيه أن الجمهورية قد حشدت في نوميديا جيوشا جرارة أثناء حرب يوغرطة.

وأكثرية هذه الجيوش كانت من المشاة من المواطنين الرومانيين، ومن اللاتانيين، والإيطاليين، الذين زُوِّدوا بأحسن أسلحة الهجوم والدفاع، وجُهزوا ودُربوا ونظموا ليقوموا بالمعارك المنظمة، حيث يتجمعون في كتل متراصة بميدان مختار، يكون فيه استواء بقدر الإمكان، مع ميل نحو العدو، ويكون أمام المعسكر الذي يستعمل ملجأ عند الضرورة. وكلهم جنود قوتهم أكثر من خفتهم، يرمون رماحهم الثقيلة - من خمسة وعشرين مترا -، ثم يجب عليهم أن ينتصروا وسيوفهم بأيديهم في صراع بدني مع العدو. أما الجيوش الخفيفة فأقل عددا. وتتكون من جنود خفاف Vélites يعملون في الفيالق، ومن مساعدين متفاوتين في الإخلاص. أصلهم من ليغوريا Ligurie وجزائر الباليار وغيرها. ولهم دور يتلو عمل مشاة الصّدْم، لأن هؤلاء يبدأون المعركة، وعلى الآخرين أن يربحوها. وينطلقون إذا دعت الضرورة في متابعة المندحرين. أما الخيالة فقليلة، وتتكون على الخصوص من الحلفاء ومن المساعدين الأجانب.

والمشاة متعودون على السير. ومع أنهم مثقلون بالأحمال، فإنهم يقطعون 25 كيلومترا في اليوم، وعندما يصل الجيش إلى المكان الذي

يقضي فيه الليل، فإنه يستطيع في أربع ساعات إقامة المعسكر الذي تجعل ترتيباته الدفاعية الجيش في كامل الاطمئنان. وذلك طبعا إذا لم تنعدم الحراسة أو تحدث خيانة.

لكن هذا النظام العسكري الذي مكّن الرومانيين في جهات أخرى من الانتصار على أعداء أشداء، لم يكن صالحا للحروب الإفريقية. وحيث كان من اللازم ضمان الاتصال مع إيطاليا التي تأتي منها جيوش المدد كما يأتي منها قسم من المؤن والمعدات، فإنهم فضلوا الحرب في وقت الصيف، عوض القيام بها في فصل الشتاء الذي تكون فيه الملاحة البحرية خطيرة وتتوقف، إلا إذا دعت الضرورة إليها. ففي الصيف يطول النهار، وتكون الطرق صالحة للاستعمال، ويسهل عبور الأنهار، لأن المطر ينحبس كليا. غير أن الحرارة تشتد، وقد تؤدي هؤلاء الرجال الذين لم يتعودوا الطقس الإفريقي، والذين يسيرون محملين بأعبائهم من أسلحة، وأدوات، وأشياء تخص المعسكرات، ومحملين بالمؤن. ثم إن المراحل غير متساوية. فهي في الغالب أطول مما يجب، لأن الماء لا يعثر عليه بكل مكان. والعيون يقل معينها، وقد تجف في هذا الفصل الذي يحتاج فيه الإنسان لأن يشرب كثيرا. وأحيانا ينعدم الماء كليا بالمسافة التي يقطعها الجيش، فيرى من اللازم أن يتحمل مشقة حمل ما يكفيه منه لعدة أيام. وهكذا، فإن سرعة العمليات تتعرقل بالأثقال التي تصحب الجنود. وللجنود الرومانيين لوازم أكثر مما للأهالي، إذ يلزمهم القمح، والزيت، واللحم والخيام. وكل ما لا يحمله الرجال، فإن الحيوانات تحمله. وذلك لعدم وجود طرق تساعد على استعمال العربات الكبيرة. وحيث أن الجيش لا يمكنه التأكد من العثور بالجهات التي يخترقها على ما يكفي من المواد، فقد كان لزاما عليه أن يتزود بكثرة عند الذهاب بجميع الأشياء الضرورية، وأن يجمع على الخصوص عددا كبيرا من ذواب حمل

الأثقال، وهذا العمل ليس سهلا دائما، لأن الأهالي لا يساعدون، ويتملصون من تسليم ما يُطلب منهم.

والمرشدون في هذا البلد المجهول مشكوك فيهم، لأن خداع النوميديين سار مسرى المثل، ثم إن الاستخبارات لا تسير بصفة حسنة بسبب قلة الخيالة. ولذلك فإن الجنود يقلقون ويغضبون عندما يفكرون في كل وقت، وفي حلّهم وتَرحالهم، أن عليهم أن يخشوا مفاجآت عدوّ لاتناله اليد، وأن كل حرية في السلوك تستحيل عليهم، وأن المواصلات مع المؤخرة قد قطعت أو تكاد، وأن كل من يتخلف عن فرقته أو معسكره يعتبر رجلا ضائعا. ثم إن الاستيلاء على القرى يوجب مجهودات لا تتناسب مع النتائج. وأكثرية هذه القرى مقامة بأماكن تجعل من الصعب إنشاء الطرق الموصلة إليها. كما أن الخشب الضروري لتكوين الممرات الخفية، والأبراج والسلالم، كثيرا ما ينعدم وجوده حول هذه القرى، الأمر الذي يحتم جلبه من بعيد. ويمكن بعد إخماد مقاومة المحصورين، أن يعثر بالمكان على شيء من مؤنة القمح، ولكن ما عدا ذلك من الغنيمة يكون على العموم ضئيلا جدا، ولا يعوض الجنود عن متاعبهم. ثم إن هذه المدن ليست كبيرة الأهمية بحيث يكون سقوطها مدعاة لنهاية الحرب.

ولا سبيل لتمني النتائج الحاسمة إلا بانتصار عظيم في أحد الميادين الحربية. غير أن لقاء مثل هذا، يجب على الرومانيين أن يبحثوا عنه، لأنهم سيحصلون فيه على التفوق بأسلحتهم ونظامهم. وإذا واتاهم الحظ عاد الجنود بسرعة إلى أوطانهم، ونال القائد فخار التمجيد. لكن الأفارقة، إذا لم يتحاشوا المعركة، قاموا بها بطريقة مخالفة للقواعد التي هي على وجه العموم تقليدية، حتى لكأنهم يغشّون في اللعب الحربي. فطريقتهم تحيّر الرومانيين وتستنزف قوتهم.

وإذا لم يحدث للرومانيين مباغتة أو إرهاق قبل أن يأخذوا أهبتهم للمعركة فإنهم يقاومون، الحملات المرعبة المتكررة، كما أن خوذاتهم وتْروسَهم ودَرَقَهم تقيهم الوقاية الحسنة من الرماح الغزيرة التي تتطاير إلى صفوفهم المتراصة. ولكن هذا على العموم هو كل النجاح الذي ينالون، لأن العدو يرفض التشابك بالأيدي. فإذا جُرّوا للحاق به، فإنهم لا يبلغون شأوه في الجري. ثم إن في هذا الهجوم خطرا كبيرا عليهم، لأن سلامتهم في تكتلهم وفي تراص الفرق التي تكوّن الفيالق. فإذا انقسمت هذه الكتلة في حماس الجري عند متابعة أعداء يتفرقون، فإن هؤلاء لا يلبثون أن يعودوا ويقعوا على الجماعات الصغيرة المنعزلة ويحيطوا بها.

فالمعارك إذن لا تنهي شيئا، والحرب تطول. ولقد أمكن، بعد كثير من المشاقّ، التقدم بعيدا في أرض العدوّ، والاستيلاء على كثير من المداشر. لكن عندما يمر فصل الجفاف، يقع التراجع إلى الوراء التجاء إلى معسكرات الشتاء في الولاية، أو على مقربة من الساحل. وجلّ ما يحدث هو أن تترك ببعض المدن حاميات، تبقى موكولة إلى نفسها. وإذا لم يخن السكان هذه الحاميات، فإنها تستطيع البقاء، لأن الأعداء لا يحسنون الحصار مطلقا. لكن الحاميات لا تستطيع القيام بأي عمل فعّال. وفي الربيع الموالي يلزم الذهاب للإفراج عنها، ومعاودة العمليات التي تسبب حنقا، وتكاد تكون عقيمة.

إن من شأن هذه المصاعب أن لا ينجو فيها الجنود الأشداء، ومن أحسنت قيادتهم. غير أن الجيوش الرومانية في عهد يوغرطة كانت في حالة انحطاط، فالرجال الذين يُجنّدون في الجيش كانوا يتركون بيوتهم كارهين للمشاركة في حروب طويلة وبعيدة، لا تمس سلامة الجمهورية في شيء، حروب تنتظر منها مشقات شديدة وفوائد تافهة جدا. ولهذا

فكثيرا ما كان الجنود يفقدون واجب الطاعة وحتى الجرأة. وكثيرا أيضا ما كانت تقودهم أسوأ قيادة شخصياتُ من هذه الأرستقراطية التي كانت آنذاك سيّدة الدولة. فكان لهم الحق في جميع التشريفات، دون احتياج لأن يكونوا أهلا لهذه التشريفات، قادة ليس لهم هَيْبة ولا خبرة، ولا يحسنون حتى إدارة الحرب التقليدية. وهم بالأحرى عاجزون عن تقبل المناهج المغايرة التي تفرضها الحرب بإفريقيا وتفرضها أيضا الحرب بإسبانيا كأن طريقة الحرب لدى الأهالي تشبه كثيرا طريقة الأفارقة التي لقيت رومة من جرائها نفس العنت.

ونضيف لما ذكر أن الرومانيين طيلة صراعهم مع يوغرطة، لم يستطيعوا - أو لم يعرفوا - أن يجدوا المساعدات التي أفادتهم كثيرا في حروب إفريقية أخرى. لقد كان بجيشهم نوميديون وجيتوليون Gétules، ولكن عددهم كان لاشك ضعيفا. ثم إن گاوْضا - أخا يوغرطة - الذي انضم إليهم كان ضعيف الرأي وعاجزا عن إسداء المعونة إليهم. ثم إنهم استخفوا في بداية الحرب بعروض ملك موريطانية. نعم، لقد ساعدهم مسنيسّا في الحرب ضد سيفَكْس Syphax، كما أن قيصر سيحرز من بعدَ على مساعدة بوكوس الأصغر Bocchus le Jeune ملك الموريين، في الحرب ضد يوبا الأول Juba Ier. ولكن لم يكن في الأمراء الأقوياء من تحالف معهم ضد يوغرطة، ولا من أنار جهلهم بالأرض وأهلها، أو جعل رهن إشارتهم الجيوش الخفيفة - والخيالة على الخصوص - التي باستطاعتها أن تقوم بمهمات لا يصلح لها الجنود الرومانيون الثقال، ولا من أنجدهم أثناء المعارك بأخذ العدوّ من ورائه.

في هذه الظروف العسكرية السيئة إذن بدئت، وتوبعت حرب الرومانيين بنوميديا. وهي حرب قد خاضوها مكرهين وأرغموا على

معاقبة يوغرطة الذي نال من شرفهم، ولكن من غير أن يكون لهم أي مطمع في الاستيلاء على مملكته. فكانوا يتمنون أن تكون الحرب قصيرة أكثر ما يمكن. بينما الذين لم يكونوا مستعدين لقبول استسلام صادق إلى حدٍّ ما، ولا يرجون أن يحققوا فوائد شخصية بابتزاز أموال الملك «البارباري»، فالرأي عندهم هو أن هذه المغامرة المكدرة يجب أن تنتهي بموت يوغرطة أو أسره. وبغض النظر عن وخز الضمير، فإن الالتجاء إلى الخيانة أحسن وسيلة لبلوغ هذه النتيجة، وبالفعل فإن القضية انتهت على هذا النحو. ولكن قبل نهايتها، كان من اللازم أن تقع حرب، ولمدة طويلة. لأن يوغرطة عرف – لما نجا من الخونة – كيف يصمد جهرا في صرا ع فرضه على الرومانيين شعورهم بالكبرياء.

## 3

من غير شك أن سنة 111، كان قد مر منها قسم كبير لما بدئت الحرب. فقد كان لابد من حشد جيش عظيم، وبعثه إلى الولاية الرومانية عن طريق صقلية.

وأسندت قيادة هذه الجيوش إلى ل. كَلْبورْنيوس بيسْتيا Calpurnius Bestia. وكان الديمقراطيون يكرهونه بسبب الضلع الذي كان له في مقاومة مشاريع الأخوين الگراكيين. غير أنه لم يكن من هؤلاء العاجزين الذين تغص بهم صفوف الأرستقراطية. فقد كان قويَّ الجسم، مع تعقل وتأنٍّ وبعض الدراية في شؤون الحرب. اختار مساعديه من الشخصيات المهمة، ومن بينها صَدْر مجلس الشيوخ إيمِلْيوس سْكَوْروس Aemilius Scauros الذي جعله مؤتمنا على سرّه ومستشارا له.

واحتلت هذه الجيوش بعد دخولها لنوميديا بعض المدن. ولكنها، من غير شك، لم توغل بعيدا. وعلى كل حال، فإن مدينة ڤاگة Vaga (باجة) الكبيرة لم تسقط في قبضتها. وانتهت هذه الحملة بسرعة سببها أن الملك اشترى كَلْبورْنيوس وسْكَوْروس كما يقول سالوسْت.

لم يكن يوغرطة في الأول يرجو سوى هدنة تمكنه من تحريك أصدقائه بروما للعمل. لكنه أراد الحصول على السلام لما سمع الأنباء المشجعة التي بلغها له المبعوثون الذين اتصل مع القنصل بواسطتهم. فإذا أدى يوغرطة الثمن، فإنه لا يضمن لنفسه حسن الالتفات من جانب كَلْبورنيوس فحسب، بل حتى من جانب سْكَوْروس الذي ما فتئ يبدي له أشد العداوة. فقرر إذن أن يعالج شخصيا الموضوع معهما. وحصل منها على هدنة بشرط أن يدفع كميات من القمح. وأرسل المتصرف المالي سِكْسْتِيوس Sextius إلى ڤاگا لأخذ القمح. فكان رهينة بين أيدي النوميديينَ، بينما توجه يوغرطة إلى المعسكر الروماني. ومثل الملك أمام مجلس يرأسه كَلْبورنيوس، فتبرأ باختصار ثم عرض استسلامه. وفي مذاكرة سرية اتفق على جميع الشروط مع كلبورنيوس وسْكَوْروس. وفي الغد انعقد المجلس من جديد، فوافق على تلك الشروط بالجملة ثم تقبل استسلام يوغرطة.

لقد دفع الملك ما طلب منه، وهو: ثلاثون فيلاً، وماشية، وخيول كثيرة، وقدر قليل من المال. ومن الطبيعي أن مملكته تبقى له. غير أن إحدى المدن الكبرى، المهيمنة على منطقة واسعة، وهي لبدة الكبرى، المستعمرة الفينيقية القديمة، الواقعة بين خليجي سَدْرة، (هذه المدينة) انفصلت عنه منذ بداية الحرب. فقد بعثت عنها نوابا إلى القنصل ثم إلى رومة تلتمس صفة مدينة صديقة وحليفة، فأحرزت على ذلك، ولم تقع بعدها تحت سلطة ملوك نوميديا.

عاد كَلْبورْنيوس بيسْتيا إلى إيطاليا. ولعل عودته كانت في بداية الخريف، فقد احتيج إليه ليرأس الانتخابات، لأن زميله سيپْيون نَزيكا Scipion Nasica كان قد مات. وبقيت الجيوش بنوميديا في انتظار موافقة مجلس الشيوخ على الاتفاقية. غير أن الفراغ لا يمكن أبدا أن يتناسب مع حفظ النظام. فلم يعد الرؤساء يفكرون إلا في تكوين الثورة من كل شيء. فمنهم من أصغى لإغواء يوغرطة، فذلك أمر ممكن، وإن كان يجب أن لا ننسى أن هاتين الشخصيتين – وعلى الخصوص الأولى منهما – كان لهما أعداء ألدّاء، مستعدون لأن ينسبوا إليهما أشنع المساوئ. غير أن إثبات ارتشائهما أمر صعب جدا. وفعلا لم تتأكد التهمة. وبعد ذلك بسنتين، حينما هاجمت موجة الكراهية هيجانا شديدا ضد النبلاء الذين اتهموا بتواطؤهم مع يوغرطة وقع الحكم على كَلْبورْنيوس. ولو كانت التهم الموجهة إلى سْكَوْروس خطيرة، فهل كان ينجح في جعل الناس ينتخبونه رئيسا لإحدى المحاكم المكلفة بالمتابعة ؟ وهل كان ينجح في نفس الوقت تقريبا لمنصب النظارة Censure ؟

وكما يمكن أن نفهم تباطؤ مجلس الشيوخ عندما بلغته أنباء مذبحة سرْتا، كذلك يمكن أن نفهم سلوك القنصل ومفوّضه Légat وذلك دون أن نكون ملزمين بالقبول بأن السبب هو المصالح المخزية. إن يوغرطة قدم خضوعه علانية، فهل هذا العمل لم يكن كافيا لإرضاء الشرف الروماني لتنتهي هذه الحرب التعسة ؟

أما في رومة فإن أعداء النبلاء لم يأخذوا بهذا الرأي. فقد أثار ميمْيوس Memmius غضب الجماهير بخطبته النارية. ولم يدر مجلس الشيوخ ما يفعل لمواجهة هذا الهيجان : هل يوافق على الاتفاقية أو يرفضها ؟ وكان يتردد في اتخاذ قرار الرفض بسبب الثقة التي يتمتع

بها سْكَوْروس، بغض النظر عن الأسباب الكثيرة الأخرى. وفي انتظار ما سيفعله، اسند نوميديا كما فعل في السنة السالفة إلى واحد من قنصلي السنة المقبلة.

وتبعا لذلك، قرر الشعب بناء على اقتراح من ميمْيوس أن يذهب البريطور ل. كاسْيوس عند يوغرطة ويأتي به في ضمانة الأمان العمومي، وتكون التصريحات المطلوبة من الملك موضحة لجريمة من يتهمون بأنهم باعوا أنفسهم له. إن يوغرطة قد قدم خضوعه للشعب الروماني، ولذلك فهو لا يستطيع عصيان هذا الأمر، دون خشية لقطيعة جديدة قد تكون نهائية. وفوق هذا، فلم يكن هناك ما يخافه، لأن كاسْيوس لم يكتف بأن يحمل إليه الأمان الرسمي، بل أعطاه وعده الشخصي أيضا. ووفاء كاسْيوس معروف لدى الجميع.

قدم يوغرطة إذن إلى رومة، حيث لم يتخذ مظهر ملك، وإنما اتخذ مظهر رجل يرجو الشفقة. فاستدعى ميمْيوس المجلسَ الشعبي، وطلب الهدوء من الحاضرين الذين كانوا محنقين على يوغرطة، ثم صرح لهم بأنه لن يأذن بنكث العهد الذي أعطي للنوميدي. ثم مثل يوغرطة فأمره النقيب بأن يعين شركاءه، وأنه إذا قال الصدق فباستطاعته أن يرجو الكثير من حِلْم الشعب الروماني. وإذا صمت، فإنه سيضيع نفسه، من دون أن ينجي الإثنين الذين يعرفهم الناس، لكن في هذا الوقت تدخل نقيب آخر هو: ك. بايْبيوس C. Baebius ومنع الملك من أن يتكلم. ولم تحوّله عن صمته لا صيحات الجماهير الهائجة ولا تهديداتها. ثم انفض المجلس.

وكان بايْبيوس - حسب قول سالوست - قد أخذ قدرا كبيرا من المال. غير أن الواقع هو أن الرجل النزيه يمكن أن يرى نفسه على

صواب لو فعل مثل ما فعل بايبيوس، وإلا فليس هناك أشد إهانة للجمهورية من هذا المشهد التمثيلي الذي يُدعى للضرر فيه همجي Barbare كان قد خدع رومة، وتلطخ بالدم الإيطالي، ليرمي بالعار جَهاراً أعظم شخصيات الدولة.

ولم يلبث ميمْيوس وبايبيوس أن خرجا من مسؤوليتهما في شهر ديسمبر سنة 111، كما خرج منها القنصل كَلْبورنيوس بعدهما بعشرين يوما. ومكث يوغرطة برومة ينتظر تسوية المسائل المتعلقة به، من غير أن نعلم هل كان بقاؤه بها عن طواعية أو عن إلزام.

أما القنصل الجديد الذي كانت نوميديا قد أسندت إليه – وهو سمْبرونْيوس بوسْتومْيوس ألْبيوس S. Postumius Albinus – فإنه لم يكن يميل لتسوية المسائل مع الملك، لأنه كان يطمح إلى الانتصارات العسكرية.

كان برومة آنذاك أحد بني عمومة يوغرطة، هو ماسيڤا Massiva ابن گُلوسا Gulussa. ونظرا لأنه كان في حرب الملوك قد انضم لخصوم يوغرطة، فإنه غادر إفريقيا بعد الاستيلاء على سرْتا وقتل آذربَعْل. وقد التمس – وفقا لما نصحه به أبينوس – من مجلس الشيوخ مملكة مسنيسّا، هذه التي أبان يوغرطة أنه ليس أهلا لها، والتي يخوله مولده هو الحق عليها، فذعر يوغرطة لهذا الخطر، وكلف بوملْكار Bomilcar – وهو نوميدي ذو منزلة رفيعة، رافقه إلى رومة، وكان لديه محل ثقة – أن يرشو بعض الناس ليراقبوا غدوات ماسيڤا وروحاته، وأن يقتلوه عند أول فرصة مناسبة. وذلك ما جرى، لكن القاتل قبض عليه في نفس الحين الذي ارتكب فيه جريمته، وألقيت عليه الأسئلة بإلحاح، خصوصا من القنصل ألبينوس، فكشف عن المؤامرة. فألقيت التهمة على

بوملْكار، ولو أن الأمان العمومي الذي أعطي لسيده كان يجب أن يشمله. أما يوغرطة الذي سلم خمسين آخرين من رفقائه ليكونوا رهائن، فإنه لم يتأخر عن ترحيل بوملكار خفية، لأنه كان يودّ إنقاذه، وحتى هو فقد عاد بعد بضعة أيام إلى نوميديا، لأن مجلس الشيوخ أصدر له الأمر بمغادرة إيطاليا، ونحن نعرف الكلمة الذي يقال إنه نطق بها بعد أن تأمل رومة طويلا وهو يبتعد عنها وهي : «مدينة للبيع وستسقط قريبا إذا وَجدت مشتريا».

## 4

كان اغتيال ماسيفا عملا مخالفا للصواب، مثل مذبحة الإيطاليِّين بِسِرْتا. وحتى لو أن ظروف الاغتيال بقيت مجهولة، فما كان بين الناس من يتردد في ذكر من أوعز به. ثم إن هذه الجريمة التي وقع اقترافها في قلب رومة، لا يمكن تحملها دون أن يلطخ منها شرف الجمهورية. وكيفما كان اعتقاد النوميدي، فإن هناك حدودا لسطوة ذَهَبِه.

أسرع ألبينوس ينقل المؤن وغيرها من الأشياء الضرورية للجيش، ثم ذهب بنفسه مؤملا أن ينهي القضية على عجل، إذ كان لابد له من العودة في الخريف لحضور المجامع Comices الانتخابية.

وبدئت الحرب من جديد، ولكنها تثاقلت، حتى إن البعض ساورتهم الظنون في أن القنصل يتواطأ مع الملك. فيوغرطة تارة يدافع، بل ويهاجم، وتارة يبدو كمن يستسلم أو يترك المجال لمتابعته من غير أن يقاوم. فكان بعمله هذا يوهن هجمات الرومانيين، إذ يجعلهم يأملون السلام أملا خادعا. وأدخل ألْبينوس جنوده إلى معسكرات الشتاء،

وتركهم بها تحت قيادة أخيه أوْلوس Aulus الذي كان قد أخذه معه مساعدا، ثم عاد إلى إيطاليا. غير أن خلافا عنيفا حدث بين النقباء، وكانت نتيجته أن حال دون وقوع الانتخابات، وهكذا مكث ألبينوس في رومة.

وفي أثناء غيبته قرر أولوس أن يقوم بحملة شتوية سريعة في شهر يناير. فتقدم في مسيرة مسرعة - رغما عن قساوة الفصل - حتى وصل إلى سوثول Suthul حيث توجد كنوز الملك. وكان هذا المعقل الحصين يقع في نهاية جبل وَعْر، ويحيط به سَهْل وَحل، حوّلته أمطار الشتاء إلى مستنقعات. لكن هذه الظروف غير المناسبة، لم تصد أوْلوس Aulus عن بدء الحصار.

ولكي ينمي يوغرطة ثقة هذا الرجل الذي كان معجبا بنفسه بقدر ما كان عاجزا، فإنه بعث إليه عدة مرات بمبعوثين يخاطبونه راجين بينما كان يوغرطة يبدي أنه يتجنب المعركة، ويذهب بجنوده إلى الأمكنة التي تكثر فيها الأشجار ويصعب الوصول إليها. فابتعد أولوس عن سوثول Suthul - ربما لأنه يئس من الاستيلاء عليها - وأخذ يطارد الملك، الذي أبدى الفرار أمامه، وأثناء ذلك اندسّ بعض مبعوثيه بجيش أولوس واشتروا الوعود بالخيانة أو التخلي عنه.

وأخيرا، وفي ليلة داجية أحاطت جموع غفيرة من النوميديين بالمعسكر فجأة. فانضمت إلى العدو النوميدي فرقة من الليغوريين، وكتيبتان من التراقيين (من منطقة Thraces) وعدد قليل من جنود الفيالق Légionnaires، وكان قائد المائة المقدم Centurion Primipilaire بالفيلق الثالث هو الذي كان مكلفا بالدفاع عنه. حدثت المباغتة في الظلام، فاستولى الهلع على الرومانيين، الذين رموا جميعهم تقريبا بأسلحتهم، وفروا إلى هضبة مجاورة. وكان الظلام وأعمال النهب في

المعسكر هما اللذان منعا المنتصرين من متابعتهم. وفي الغد ظهر أن الحالة تبعث على اليأس: فلا مؤن، ولا أسلحة للحرب. ثم إن الهضبة محاصرة حصارا ضيقا. وأثناء اتصال بأولوس أملى عليه يوغرطة شروطه، وهي : سيبقي على حياتهم جميعا، ولكنهم يمرّون تحت النِّير، ويغادرون نوميديا في أجل قدره عشرة أيام.

هذه المرة أيضا أخطأ الملك خطأ عظيما جدا. ولاشك أن كبرياءه وكبرياء رعاياه قد هاجت بمشاهدة الإهانة الواقعة على الرومانيين. ولكنها كانت إهانة لا تستطيع الجمهورية أن تنساها أو تصفح عنها، إهانة تجعل من قبيل العبث ذلك الاعتدال الذي أبداه يوغرطة حين وهب الحياة لجيش وقع تحت رحمته، وكذلك حين ترك ولاية إفريقيا، حيث أرجع الجيش المغلوب، بينما باستطاعته أن يدخلها آنذاك دخول السيّد.

إننا نجهل أين كانت سوثول Suthul. ونقرأ في پولْ أوروزْ Paul Orose الذي استقى لاشك من تيت ليڤْ قوله : «قريبا من مدينة كالَما، دحر يوغرطة أ. بوسْتومْيوس A. Postumius الذي يطمع في الكنوز الملكية». فأوروز لا يذكر سوثول، كما لا يذكر سالوست كالَما. وهما مدينتان مختلفتان كما بينّا ذلك في غير هذا المكان، لأن وصف سوثول لا ينطبق على كالما التي كانت مقامة في مدينة گَلْمة (قالَمة) Guelma، والتي يمكن أن تكون هي المقصودة بقول أوروز. ويجب، للتوفيق بين هذا الكاتب وسالوست، أن نفرض بأن الكنوز الملكية كانت موجودة بسوثول، وأن اندحار بوسْتومْيوس حدث بالقرب من كالمة (گَلْمة) بعد سير دام عدة أيام وبعد رفع الحصار عن سوثول.

ويذكر سالوست بوضوح أن المعركة جرت في قلب الشتاء وفصل الأمطار، وأن الجنود كانوا قد خرجوا من معسكرات الشتاء، ثم عادوا

إليها بعد استسلامهم. ولذلك يصعب أن نقبل بأن ذِكْر شهر الحملة (شهر يناير) قد زيد في النص من بعد. ثم ما الدواعي التي يمكن أن تدفع لزيادة هاتين الكلمتين في نص «حرب يوغرطة» ؟ كما لا يظهر بأنها غلطة من سالوست، لأن التاريخ الدقيق - الذي يذكره المؤلف - يتطابق تماما مع باقي القصة، ذلك أن التقويم الروماني كان آنذاك يتفق تقريبا مع التقويم الفلكي، وعلى هذا فشهر يناير الرسمي كان واقعا حقيقة في قلب الشتاء.

لكننا نجد سالوست، عند ذكره لأحداث جرت بعد الحملة، يذكر ألْبينوس ويصفه بالقنصل، مع أنه لم يعد قنصلا منذ نهاية سنة 110. وقدمه لنا وهو يَسْتشير مجلس الشيوخ في الاتفاقية التي عقدها أَوْلوس. فلو أن قنصلين جديدين كانا قد دخلا لتحمل المسؤولية في يناير 109، لَدَعوا - هما - مجلس الشيوخ. ولكن فقرة أخرى من سالوست توحي حقيقة بالاعتقاد بأن ميتلّوس وسيلانوس - اللذين خلفا ألبينوس وزميله - قد جرى انتخابهما قبل فاتح يناير، وأنهما تحملا مسؤولية المنصب في هذا التاريخ الشرعي، لأن الفقرة تصفهما بالقنصلين المعينَيْن Consules designati، وهو وصف كان يُطلق على قنصلي المستقبل، من تعيينهما إلى تحملهما للمسؤولية. ولو أن انتخاب ميتلّوس وسيلانوس كان تأخر لما بعد فاتح يناير، لتحملا المسؤولية في الحين. فيمكن إذن أن نستنتج أن الكارثة التي أصابت أولوس، حدثت قبل نهاية سنة 110، بل ببعض الزمان قبل نهاية هذه السنة، لأن خبر الكارثة وصل على ما يظهر إلى رومة وألبينوس لا يزال هو القنصل المسؤول.

غير أن سالوست يذكر بمكان آخر، أن :

1) سنة 110 قد انصرمت بأجمعها من غير أن تجري الانتخابات.

2) أن تأخر انعقاد المجامع Comices التي انتخب فيها ميتلّوس، كان من نتائجها تأخر الحملة الصيفية لهذا القنصل بإفريقيا، الأمر الذي يصعب تفسيره إذا كان ميتلّوس استطاع أن يهيئ هذه الحملة منذ فاتح يناير. إذن فيكون هو وزميله قد وقع انتخابهما بعد بداية سنة 109، وأنهما لم يوصفا بكونهما قنصلَيْن معيَنَيْن Consules designati قبل دخولهما مباشرة بعد الانتخاب لتحمل المسؤولية. وقد افترض البعض أن نص سالوست هنا فيه تحريف، أو أن المؤلف استعمل تعبيرا غير مناسب، والأصح أنه ارتكب خطأ.

وكذلك، فإن صفة قنصل، لم تعد مناسبة لحال ألبينوس منذ نهاية 110. ولكن يجب القول بأن العادة جرت بأن يدعى القناصل القدماء، وعلى الخصوص البروقنصلات، بكلمة قنصل. وفوق ذلك، فإن ألْبينوس احتفظ – بوصفه بروقنصل – بقيادته في نوميديا إلى اليوم الذي يتسلمها القنصل الذي تسند إليه. وعلى كل، فإنه – باعتباره قنصلاً أو بروقنصلاً – قد احتفظ بهذه القيادة أثناء إقامته بإيطاليا، بشرط أن لا يفقد السلطة Imperium العسكرية عند دخوله لمدينة رومة. وحتى لو لم يكن قنصلا، فقد كان يستطيع أن يطلب رأي مجلس الشيوخ – المجتمع خارج الأسوار – حول الاتفاقية التي عقدها النائب الذي خلفه مؤقتا على رأس الجيش.

وقد أحس أنه سيخسر إذا حاول ستر أخيه، لأن الكارثة المخزية التي وقعت بنوميديا أحدثت برومة من الغضب بقدر ما أحدثت من الألم. فقرر مجلس الشيوخ أن أي معاهدة لا يمكن عقدها، ولا تكون ذات صلاحية بغير أمره وأمر الشعب، فحشد ألبينوس الجيوش بسرعة، وطلب النجدات من الحلفاء ومن اللاتانيين. لكن النقباء الشعبيين منعوه

من إرسال هذه الجيوش، لأنهم من دون شك كانوا يريدون الاحتفاظ بمهمة معاودة الحرب لأحد قنصلي المستقبل الذي يحرز على نوميديا، التي ذكرت بأنها ولاية قنصلية في سنة 109، على غرار ما عرفت به في 111 و110.

ومع ذلك فقد ذهب ألبيوس إلى إفريقيا، وهو يتحرق لأخذ الثأر. فوجد جميع الجيش بمعسكرات الشتاء بالولاية، وفقا للاتفاقية التي فرضها يوغرطة عليه. ولكن فقدان الروح المعنوية وانعدام الطاعة لدى الجنود بلغا إلى حدٍّ فرض عليه أن لا يقوم بأي عمل. ولحسن الحظ فإن الملك النوميدي لم يكن يرى من المناسب أن يستفيد من الظروف للقيام بالهجوم. ومن الواضح أنه كان يظن أن كل شيء سينتهي إلى التسوية.

## 5

وفي رومة قدم النقيب ك ماميلْيوس ليمِتانوس C. Mamilius Limetanus إلى الشعب مشروع قانون يقضي بإجراء بحث، «ضد الذين دفعوا بنصائحهم يوغرطة إلى الاستهانة بقرارات مجلس الشيوخ، وضد الذين أخذوا من الملك أموالا أثناء نياباتهم أو قياداتهم، وضد الذين سلموا الأفيال واللاجئين، وكذلك ضد الذين عقدوا مع العدوّ اتفاقات تتعلق بالسلم أو بالحرب». فقام النبلاء بالمناورات لإحباط هذه المقترحات، من غير أن يجرؤوا على محاربتها جهاراً، ولكن من غير جدوى، إذ هاجت في الشعب ريح عاتية من الغضب، فتألفت ثلاث لجان استثنائية، كل واحدة منها رئيس انتخب بالتصويت الشعبي، ثم عيّن الأعضاء بالقرعة من لائحة القضاة المنتمين لطائفة الفرسان الذين كان ك. گراكوس C.Gracchus قد خصهم بهذه القضايا.

فصدرت عدة أحكام بالعقوبة، لا بناءً على الحُجج التي لم تكن موجودة، بل على اتهامات مبهمة. وكان القصد منها ترضية الأحقاد الجامحة، كما يعترف بذلك سالوست نفسه. وكان من بين الشخصيات القنصلية التي لزمها أن تذهب إلى المنفى أو بيمْيوس Opimius، وكَلْبورْنيوس بيسْتيا Calpurnius Bestia وس. بوسْتومْيوس أَلْبينوس Sp. Postumius Albinus.

ومع ذلك، فإن هذا الاضطراب الذي خلف ضحايا جليلة القدر لم تصحبه ثورة سياسية. إذ كان أحد الرؤساء الثلاثة الذين انتخبهم الشعب، هو إيميلْيوس سْكَوْروس Aemilius Scaurus، ذلك الذي كانت الظنون قد ساورت الناس بأنه قد باع نفسه مع بيسْتيا ليوغَرْطة (الأمر الذي لا يشك فيه سالوست). وقد عرف سْكَوْروس كيف يفرض احترامه بوقاره. بل إنه سمح لنفسه بعمل لم يكن يخلو من اللياقة، وذلك بمده يد المساعدة لبيسْتيا، الذي مثل أمام لجنة غير التي كان يرأسها هو.

وكذلك فإن شخصية من أعظم الشخصيات الأرستقراطية، أي كانْتوس كايْكيلْيوس ميتِلّوس Q. Caecilius Metellus الذي انتخب قنصلا، هو الذي آل إليه ثقل المهمة ليقوم في الأخير بالحرب الحقيقية ضد يوغرطة.

## الكتـاب الثاني

# رومة والملوك الأفارقة

## الفصل الثالث

## حرب ميتِلّوس (Métellus)

### 1

كان كايكيلْيوس ميتِلُّوس Caecelius Metellus ينتمي لأسرة أعطت بين 123 و102 ستة قناصل، وأربعة نُظّار Censeurs، وخمسة مَمجّدين Triomphateurs، فكان فخورا بِمَحْتَدِه، محافظا بشدة في سياسته، وخصما للزعماء الشعبيين وعنفهم. ولم يحاول أبدا أن يصبح شعبيا بترضية يقدمها للجماهير. ومع ذلك كان الناس يعلمون أن شدته المتعالية تصاحبها استقامة لا هوادة فيها. ولم يكونوا يخشون أن يشتريه يوغرطة. وكان ميتلّوس ذا ثقافة، لأنه كان في شبابه بأثينا تلميذا للفيلسوف كَرْنياد Carnéade. وعرف بأنه خطيب بليغ، إلى حد أن الناس في القرن الثاني للميلاد كانوا لايزالون يقرأون خطبه. والصواب هو أن هذه الخطب ربما لم يكتبها بمفرده. وكذلك فإنه أبان عن معرفة بقيادة الجيش وتسيير الحرب الشديدة. وكان آنذاك في كمال رجوليته، فلم ينتظر – وهو من آل ميتلّوس – منصب القنصل

لما بعد ثلاث وأربعين سنة من العمر، وهي أقل ما يحدده القانون لنيل المنصب.

أخذ ميتلّوس يزاول مهمته عقب انتخابه الذي قلنا إنه جرى بقليل بعد بداية سنة 109، وأسندت إليه نوميديا. فكرس جهوده من حينه للواجبات الملقاة عليه. فجند المواطنين، وطلب المحاربين من الحلفاء الإيطاليين والملوك الأصدقاء، وجمع الأسلحة والخيول والمؤن. وتسارعت إليه المساعدات من كل مكان : من مجلس الشيوخ، وروما كلها التي وضعت فيه ثقتها. وأعطي مساعدَيْن قلّ نظيرهما، هما ب. روتيلْيوس روفوس P. Rutilius Rufus وك. مارْيوس C. Marius.

وكان الأول شديد التمسك بالنبلاء مثل ميتلّوس، تشرفهما استقامة الأخلاق والثقافة الفكرية العالية. وأخذ روفوس الفلسفة عن بنايتيوس Panaetius الأغريقي، والقانون عن ب. موكْيوس سْكايْڤولا P. Mucius Scaevola الروماني، فتبحر في المذهب الرِّواقي Stoïcisme وأصبح فقيها مشهورا. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون قائدا قديرا بالجيش، وعلى غرار مارْيوس ويوغرطة، كان روفوس قد عمل في حرب نومَنْصا تحت إمرة القائد العظيم سِپْيون إيملْيان. ولاشك أنه في حرب نوميديا، بمعركة موثول Muthul وغيرها، قد اسدى أجل الخدمات لميتلّوس. فلما نال منصب قنصل من بعد، كوّن جيوشا ممتازة، خاضعة للطاعة الكاملة، ومدرّبة على استخدام الأسلحة بأساليب جديدة. وقد كان ماريوس نفسه – ولو أنه لم يكن يحبه – يقدر مواهبه العسكرية.

أما المساعد الآخر لمتلّوس، فإننا نعلم إلى أي درجة من المجد وصل. لقد كان عُمر مارْيوس سنة 109 سبعاً وأربعين سنة، وكان آنذاك لايزال شخصية ثانوية. وينحدر ماريوس من أسرة متوسطة الحال من

مدينة أرْبيوم Arpium، دخل للسياسة بمساندة أسرة آل ميتلّوس، إذ كان لأسرته ولاء فيهم. ثم وصل بعد مشاق جسيمة لمنصب بريطور سنة 114. وعن طريق الزواج اتصل بأسرة آل يوليوس البطارسة. فكانت تجمعه إذن بالنبلاء بعض الجوامع. غير أن طبعه المستقيم الصلب، وأنفته الجافية كانا يُمليان عليه سلوكه الحر. ذلك أن هذا الرجل ذا الأخلاق البسيطة والمظهر الخشن، الذي كان يجهل ويتجاهل اللياقات الأغريقية، والذي لا يحذق فن الكلام، هذا الرجل إذن، لم يكن يشعر بالراحة وهو بين الأرستقراطيين، الذين فتحوا له صفوفهم من غير أن يكونوا مستعدين ليحلّوه بالمكان الذي تتطلع إليه مطامحه. ومع ذلك فإنه لم ينحرف عنهم بعد، ليدخل في الحزب الديمقراطي. وميتِلّوس حينما جعله مساعدا له لم يعتبر أي اعتبار آخر سوى قدرته العسكرية التي أعطى عليها الحجج من قبل.

هذه المواهب العسكرية، كشفت عنها الحرب النوميدية بوضوح. فكان مارْيوس يمكن أن يُتَّخذ مثالاً يُقتدى به بين الجنود وبين القادة. كان قوي البنية، قادرا على التحمل، كثير الجرأة، ليس له أي اهتمام بمراعاة صحته، ينام على حصير، ويكتفي بأقل طعام، يصبر على التعب الشديد ويرتمي ببطولة في المعركة. وكانت الجيوش تحب هذا الرئيس الذي يشاطرها حياتها وأخطارها ويحادث الجميع بلطف الرفيق، والذي لم يكن بحاجة إلى الشدة ليطيعه الناس، كما كان – وهو قائد – منظما ممتازا، أدخل على الجيش الروماني إصلاحات خلفت ذكرا لا ينسى. ومع أنه لم يكن عبقريا، فإنه في تسييره للحرب أبان عن محامد راسخة من خبرة، ومن نشاط متروّ وحادّ في آن معا، ومن رصانة وقدرة على البتّ السريع أثناء الظروف المفاجئة.

أما ميتلّوس فرغما عن جهوده للإسراع بتهييئاته، فإنه لم يستطع الوصول لإفريقيا في بداية الفصل المناسب للعمليات العسكرية، وكان لزاما عليه إن يصلها في أواسط الربيع.

وسلم إليه ألبينوس جيشا في حالة غير صالحة للحرب، إذ كانت هذه الجيوش وهي بمعسكراتها بالولاية قد نبذت كل طاعة، وانغمست في الكسل والفجور، ولا تبدي أي نشاط إلا للسلب والنهب. فكانت الجماعات التي يختلط فيها الأتباع بالجنود تجوب البوادي وتجتاح المزارع. وما يستولون عليه من ماشية وعبيد وغير ذلك يباع لبعض المشترين مقابل الخمر وغيرها من الملاذّ. كما كانوا يتاجرون بالقمح الذي تدفعه الدولة. ويشترون الخبز يوما عن يوم.

كان من اللازم إذن على ميتلّوس أن يعيد للجيش طاعته، فمنع على كل واحد أن يبيع بالمعسكر الخبز والأطعمة المطبوخة. ومنع على مطلق الجنود أن يتخذوا العبيد والدواب للأثقال. كما منع المخالفات الأخرى. وأعاد للجنود عادة التدرب للحرب، فألزمهم أن يقوموا بمسيرات يحملون أثناءها أثقالا فادحة، ويتقدمون في نظام تام. وجعل يغير كل يوم موقع المعسكر، ويحيطه بالخنادق والتحصينات، ويقيم عليه الحراسة الدقيقة كما لو كان العدو هناك. وكان يراقب بنفسه كل شيء، ويظهر بكل مكان. وهكذا، فإن تلافيه للأخطاء، جعله قليلا ما يحتاج إلى أن يعاقب بشدة.

وبعد أن حرّب جيشه هكذا أخرجه من الولاية، ودخل به مملكة يوغرطة. وكان الوقت على ما يظهر وقت الحصاد، أي أحسن وقت يمكن للرومانيين أن يتمونوا فيه. فلا يحسن بهم أن يتباطأوا أكثر مما فعلوا.

لم يكن يوغرطة قد قام بأي عمل عدائي. بل إنه قبل دخول ميتِلّوس في المعركة ببضعة أيام، بعث إليه بموفَدين كلفهم أن يطلبوا بتواضع الحياة له ولأبنائه. وما سوى ذلك فإنه يَكِل فيه الأمر للشعب الروماني. ويعتقد سالوست أن يوغرطة كان إذ ذاك صادقا لعلمه أن ميتِلّوس ليس رجلا يسمح للغير أن يرشوه، كما أن جواسيسه أخبروه بالطريقة التي يتهيأ بها القنصل للحرب، فيئس من حظه على ما يظهر. ويسمح بقبول هذا الرأي، ما نعرفه عن مزاج يوغرطة الذي كان عرضة للتقلبات العصبية. ويمكن أيضا أن يكون الملك عمل لربح الوقت حتى يتهيأ لصد أي هجوم مفاجئ. وقد أجاب ميتِلّوس علنا هؤلاء الموفدين إجابة مرضية يحملونها إلى ملكهم. ولكنه تحادث سرا مع كل واحد منهم. وبعدما اختبرهم بلطف، عرض عليهم عروضا مغرية، لينال منهم الوعد بتسليم يوغرطة إليه ميتاً أو حياً.

لقد كان يعرف جيدا بأية طريقة تستطيع رومة أن تخرج من المأزق النوميدي. ولكن في انتظار هذا الحل الذي لا يتناسب إلا قليلا مع الشرف، كان الشرف يأمر بحرب منظمة.

لم يلاق ميتِلّوس في زحفه أول الأمر أي مقاومة، حتى لكأنه في بلاد صديقة، بحيث كانت المواشي والفلاحون – كما في وقت السلام – منتشرين في البوادي. وكان رجال السلطة في المدن والحلل يخرجون لمقابلة الرومانيين. وتبعا لأوامر الملك لاشك، كانوا يقدمون القمح، ويطلبون تكليفهم بالنقل، وتنفيذ جميع ما قد يؤمرون به.

فنستطيع أن نفرض أن ميتِلّوس كان يستولي بهذا على المناطق الغنية بالقمح، وهي المناطق التي يخترقها نهر مجَرْدة في مجراه

الأوسط، والتي كان القدماء يسمونها باسم السهول الكبرى. ويذكر سالوست حقيقة أن ڤاگا (باجة اليوم) لم تكن بعيدة عن الطريق التي يسلكها الجيش، وقد احتُلّت هذه المدينة كذلك، دون أن يقوم يوغرطة بالدفاع عنها. إذ كانت هذه المدينة سوقا كبيرة جدا للحبوب على الخصوص واعتاد كثير من الإيطاليين أن يتاجروا بها، بل وأن يقيموا. ولربما أنهم غادروها بسبب مذبحة مواطنيهم في سِرْتا، وكذلك بسبب الحرب التي أعلنتها رومة على الملك النوميدي. فاعتبر ميتِلّوس لاشك أن عملياتهم التجارية قد تكون مفيدة في تموين الجيش. فجعل في ڤاگا حامية، وأمر أن ينقل إليها القمح والمعدات العسكرية.

ولكنه قابل سفارة ثانية بعثها يوغرطة الذي يعرض استسلامه الكلي، مع تحفظ واحد هو الإبقاء على حياته هو وحياة أبنائه. فحث القنصل الموفَدين - كما فعل مع سابقيهم - على خيانة سيّدهم، فنال منهم الوعود بذلك، ثم صرفهم يحملون جوابا لم يكن رفضا ولا قبولا.

## 2

فَهِم يوغرطة أن ميتلّوس يتلعب به فقرر خوض المعركة وبعد أن استخبر عن سير الأعداء، قاد الجيوش الجرارة التي حشدها في مسالك خفيفة، ثم وصل قبل مرور ميتِلّوس إلى مكان تبيح مزايا ميدانه ليوغرطة ان يأمل الانتصار به.

هناك نهرٌ يدعى موثول Muthul، يمتد على بعد بضعة أميال بموازاته أحد الجبال العارية. ومن وسط هذه السلسلة ينبعث جبل معترض، أو على الأصح متن مستطيل جدا، يسير إلى أن يقارب النهر.

وتغطى هذا المتن أشجار الزيتون البرّي، والآش وأصناف أخرى من الأشجار التي تستطيب التربة الحارة والرملية. أما السهل المتوسط بينهما فقد كان قفرا لانعدام الماء، باستثناء شاطئ النهر الذي غرست به الأشجار، وأطلقت المواشي، وأنبثت به الحقول المزروعة. على هذا الجبل أخذت جيوش يوغرطة مواقعها متأهبة، أما هو فقد احتفظ لنفسه بقيادة الخيالة وبأحسن المشاة وجعلهم بجانب الجبل، كما أن بومِلْكار اتخذ موقعه بجهة النهر وكان معه الأفيال وباقي المشاة.

وبالرغم من الاقتبال الذي لقيه ميتِلّوس أثناء سيره في نوميديا، فإنّه كان يأخذ بالحيطة حتى لا يفاجئه هجوم ممكن. فكان يسير في المقدمة مع بعض الفرق الخفيفة وبعض الرماة والمقلاعيين، بينما كان مارْيوس في المؤخرة على رأس الخيالة الرومانية. أما فيالق المواطنين الرومانيين والحلفاء اللاتانيين، والإيطاليين، ومنهم معظم الجيش، فكان يحيط بها على الجناحين الفرسان المساعدون والمشاة الأخفاء Vélites.

بهذا النظام تقدم الجيش، ونزل إلى السهل بعدما اخترق الجبل الموازي لموثول، ثم اتجه للنهر. وكان الجبل الذي يحتله النوميديون على يمين طريقه. وكان النهار قد مَتَع. وبرغم أن القنصل اعتاد أن يستطلع الأخبار، فإنه كان يجهل أن يوغرطة قد جاء لانتظاره ومعه جيوش جرارة. وكان النوميديون يتسترون أكثر ما يمكن وراء الأعشاب التي لم تبلع – مع ذلك – من الطول ما يخفيهم كليا. وبعد قليل من التردد عرف ميتلّوس بوجودهم. فكان موقفه حرجا: فهو لاشك أشد بعدا عن المعَسكر – حيث قضى الليلة السالفة – من أن يعود إليه عن طريق الجبل في تراجع يعتبر، والحالة هذه، كأنه فرار. وهو قد اقتحم سهلا ليس فيه ماء، ويشرف عليه العدوّ، وعليه أن يقطع عدة أميال قبل أن

يصل للنهر الذي يمكن أن يقيم معسكره الجديد على شاطئه. ثم إنه مرغم على قبول معركة قد يقاسي فيها جنوده شدة الظمأ والحر، لأن اليوم كان من أيام الصيف.

فأمر جنوده بالتوقف، ورتبهم في وضع المعركة، فجعلهم يواجهون الجبل، وقسم الفيالق إلى ثلاثة خطوط، وجعل المقلاعيين والرماة بين الكتائب، كما جعل الخيالة على الجناحين. ثم سار في السهل، آخذا طريقه من غير سرعة نحو موثول. فكانت المقدمة مائلة على الجانب، بينما الجناح الأيسر يكون الرأس، بحيث أن ربع استدارة إلى اليمين كان يكفي، إذا دعت الضرورة، ليكون الجيش كله في مواجهة العدو من جديد. وفضل النائب Légat روتيلْيوس مع بعض الفرق الخفيفة وقِسْم من الخيالة، فسار متقدما ليقيم معسكرا عند النهر، فيضمن بذلك للرومانيين الماء والمأوى. وأخذ مارْيوس مكانه بالقلب، بينما ميتِلّوس بالجناح الأيسر يقود الزحف على هذا النحو.

أما يوغرطة فقد انتظر الجناح الأيمن الروماني (المكوّن للمؤخرة) حتى مرّ وتعدّى جناحه الأيسر. وإذ ذاك بعث 2000 من المشاة يحتلون الجبل الذي انحدر منه ميتِلّوس، ليمنعوا الأعداء من الرجوع إليه والتحصن به. وبعد أن تم له ذلك، أعطى الإشارة بالمعركة.

انقض النوميديون من كل جهة، وغمروا الرومانيين بسهامهم، فأحدثوا في صفوفهم الاضطراب. ولكنهم لم يتقدموا كثيرا، كيلا يستطيع الذين لا يخشونهم من الرومانيين أن يسيروا إليهم ويخالطوهم ويستعملوا أسلحتهم. ثم تراجعوا، كما هي عادتهم الموروثة، وتشتتوا أمام كوكبات الفرسان التي انطلقت لمتابعتهم. ولما أحسوا أن عددهم

كثر عادوا إلى حملتهم وأحاطوا بهؤلاء الفرسان يهاجمونهم من الخلف أو على الجانبين. وإذا استمروا في فرارهم فإن الجبل يساعدهم على ذلك الفرار لأن خيولهم تعودت أن تمر بين الأعشاب، بينما خيول الرومانيين تستعصي عليها هذه الأرض الوعرة.

وطالت المعركة على هذا النحو، فكانت مضطربة ومترددة، كما أن النهار تقدم كثيرا. وحتى النوميديون فدحهم التعب والحر، فخفت وطأتهم. ورغما عن تعنيفهم من لدن يوغرطة الذي كان بينهم يذهب ويجيء محاولا إثارة حميتهم، فإن قسما من المشاة انسحبوا إلى الجبل ليستريحوا. فاستفاد ميتِلّوس من هذا الهدوء ليجمع جيشه شيئا فشيئا، وليعيد تنظيم صفوفه، ثم كوّن أربع فرق من الجنود وبعثها لمهاجمة الجبل، فتزحزح العدو وفر إلى غير رجعة. وكان الوقت مناسبا، لأن الليل أخذ يقترب. وكيف يستطيع الرومانيون الذين أنهكهم التعب وعذبهم الظمأ، أن يستمروا في المعركة أثناء الليل وسط سهل لا يتيح لهم أي ملجأ ؟

أما روتيلْيوس فقد أسرع إلى موثول. ورأينا أن بومِلْكار مع جيش المشاة والأفيال كان يحتل بالجبل موقعا على يمين يوغرطة، قريبا جدا من النهر، وأنه لم ينزل إلى السهل إلاّ بعد أن تخطاه النائب Légat مارْيوس. وتقدم على مهل ثم رتب جيوشه في نظام المعركة. ولم يكن يريدها ضد روتيليوس لأنه لم يحاول اللحاق به. فاستطاع روتيليوس أن يهيئ المعسكر على شاطئ النهر. وإنما أرادها – لاشك – ضد ميتِلّوس، إما بسد الطريق في وجه جيش الأعداء إذا أرادوا متابعة السير، وإما بالاستعداد لمناجزة العدو من ميسرته وإرسال الأفيال لمتابعته بعد أن يكون يوغرطة قد حطم صفوفه الأمامية.

وأثناء ذلك، كانت المعركة بين الملك والقنصل حامية الوطيس، يصحبها صياح مرتفع. وكان بوملكار يخشى أن تبلغ أصداء الصياح إلى أسماع روتيليوس، فيأتي لنجدة قومه. ولكي يمنعه من ذلك، نشر خطوطه، وانطلق في اتجاه المعسكر. فرأى من به من الرومانيين فجأة غمامة كبيرة من الغبار. فظنوا أنها ريح، لأن الأشجار التي تكسو الأرض كانت تحجب عنهم الرؤية. ولكن سرعان ما عرفوا الحقيقة لما رأوا الغمامة تثبت على حالها من الارتفاع، ويزيد اقترابها منهم. فتسارعوا إلى أسلحتهم ثم اصطفوا أمام المعسكر. وجرت المعركة. غير أن الأفيال التي كان بوملْكار يعتمد عليها كثيرا تعرقلت بسبب أغصان الأشجار، وتشتت وأحيط بها. فأخذت أربعة منها وقتل الباقي وعدده أربعون. فلما رأى النوميديون هذه الخسارة فروا، واستطاع أكثرهم النجاة بفضل الجبل الذي بلغوه وبفضل الليل الذي كان أتى.

وكان المنتصرون قد أنهكهم السير والمجهود الذي لزمهم لإقامة المعسكر، والمعركة أخيرا. وحيث أن ميتلّوس أبطأ في القدوم، فإنهم مع تعبهم ذهبوا لملاقاته في أحسن نظام وحيطة، لأنهم كانوا يحذرون الحيل الإفريقية. وكان الظلام شديدا عندما كان الجيشان على مسافة قليلة تفصل أحدهما عن الآخر، فظن كل منهما لأول وهلة أنه بمحضر العدو. وكاد يكون لهذا الغلط أوخم العواقب، لو لم يكشف الحقيقة بعض الفرسان الذين بعثوا للاستطلاع.

هكذا جرت معركة موثول، إحدى وقائع حرب يوغرطة، رواها لنا سالوست بتفصيل. ولاشك أن شهود عيان قد حدثوه عنها. بل ربما إنه أتيحت له الفرصة لأن يزور بنفسه المواقع. ولكن، نظرا لكونه لم يذكر من أين أتى ميتلّوس ولا أين ذهب، ولم يذكر من أين أتى يوغرطة، ولا

على أي من شاطئَيْ موثول تلاقى الرومانيون والنوميديون، فإنّ هناك صعوبة كبيرة في أن نبين بدقة المكان الذي جرت المعركة فيه.

ومع ذلك فيمكن التأكيد بأن موثول هو وادي مَلاّگ. ويتكون هذا النهر من عدة أنهر تنبع في الجزائر بين خَنْشلة وتبسّة، ويتجه نحو الشمال الشرقي، فيمر على بعد عشرة كيلومترات غربي مدينة الكاف، ثم يتابع سيره ليصب قرب سوق الأربعاء في نهر مجَرْدة، إذ هو أهم روافده. ولهذا النهر ميزة قل نظيرها، وهي أن به ماءً في جميع فصول السنة. وفوق هذا، فنهر موثول يأتي من الجنوب، كما يقول سالوست، وفي وهج الصيف يجرف من الماء ما يكفي لضروريات الجيش. فلاشك أنه لم يكن بعيدا عن سيكا Sicca – أي مدينة الكاف – التي كانت أول مدينة استسلمت لميتلّوس بعد انتصاره. ونعلم – من ناحية أخرى أن القنصل كان دخل نوميديا من جهة ڤاگا (باجة)، الأمر الذي يجعلنا نفرض أنه قبل المعركة قطع السهول الكبرى حيث يتصل نهر ملاگ بنهر مجردة. وأخيرا فإن اسم موثول به ثاء th تصفّر عند النطق، فيجب أن يُقارَن بينه وبين اسم موسولاني Musulani الذي تطلقه بعض وثائق العهد الإمبراطوري على قبائل كبيرة كانت تقيم على وادي ملاگ بالضبط.

فهناك إذن ما يحمل على الاعتقاد بأن ميتلّوس جاء من الوادي الأوسط لنهر مجردة، وتوجه إلى سيكا ليتلقى استسلام هذه المدينة المهمة والمدن المجاورة. ولم يكن يساير نفس المجرى لهذا النهر الذي يضيق عند دخوله للسهول الكبرى. فهذه المخانق التي تشتد حرارتها في فصل الصيف تجعل سير الجيش صعبا جدا وخطيرا أيضا، ويسهل على يوغرطة أن ينصب بها المكامن. وبين السهول الكبرى وأرض مدينة الكاف، بشرق وادي ملاگ وغربه، توجد منطقة

وعرة جدا وصعبة مما هي عليه بالضفة اليمنى بالشرق. فلابد أن ميتلّوس أخذ طريقه في الجبال الواقعة على يسار النهر. وفوق هذا، فلو كان ميتلّوس قد بلغ النهاية الغربية للسهول الكبرى بناحية شَمْتو Chemtou وغَرْديماو Ghardimaou لكان أخطر طريق لديه للوصول إلى سيكا هو أن يمر خلال هذه الجبال وأن يقطع نهر ملاگ. فإذا لم تكن الخيانة كشفت ليوغرطة عن جميع نظام سير القنصل، فإن خطر السير الذي سلكه القنصل قد مهدته الطبيعة إلى حد يمكن من إدراكه بسهولة قبل وقوعه. ولذلك كان الملك يعرف جيدا أين يجب انتظار الرومانيين عند مرورهم. وإذا كان هؤلاء قد جاءوا من ناحية الشمال أو الشمال الغربي متجهين إلى سيكا، فإن المعركة لا يمكن خوضها إلا على الضفة الغربية لموثول، وإلا فإن ميتلّوس، بعدما يخترق جَبلاً موازيا للنهر، لا يجد على يمينه الجيش النوميدي يحتل متناً معترضا للنهر.

ومما يقارب «الكاف» حتى السهول الكبرى، لا يوجد أي سهل بالضفة اليسرى لهذا القسم من مجرى وادي ملاگ. وعلى هذا، فيجب البحث عن مكان المعركة بجهة المجرى الأعلى. وقد قدّمت في هذا الشان نظريتان، غير أنهما لا تتفقان تماما مع المعلومات التي أدلى لنا بها سالوست في وصفه لأرض المعركة.

يرى تيسّو Tissot أن الجبل Mons هو جبل وَرْغة Ouergha الواقع غربي الكاف بنحو أربعة فراسخ، ويرى أن الربْوة Collis هي المرتفع القريب منه، وتُدعى كُدْية عبد الله. ويسير جبل ورغة تقريبا في موازاة وادي ملاگ على الضفة اليسرى، وعلى مسافة تتراوح من 4 إلى 8 كيلومترات. ولكن الأشجار تكسوه، بينما الجبل الذي يتحدث عنه سالوست كان عاريا. غير أن هذا ليس اعتراضا قاطعا، كما لا اعتراض

في كون ضفَّتَيْ وادي ملاگ عاريتين الآن من الأشجار التي كانت على شواطئ موثول. والأخطر من ذلك، هو أن كُدْيَة عبد الله ليست متنا مستطيلا جدا ينبعث عرضا من وسط جبل وَرْغَة، بل إنها تتصل به من جهة الجنوب الغربي، ولها نفس علوه تقريبا، وتكاد تسير في نفس اتجاهه، ولا يتعدى طولها كيلومترين اثنين، كما أن منحدراتها كثيرة الوعورة، وبها مسايل الماء، مما يعوق خيول النوميديين برغم خفتها عن اختراقها بسهولة أثناء الصعود والهبوط منها. فالمتأكد إذن هو أن كدية سالوست، ليست كدية عبد الله. ويمكن إذا اقتضى الأمر أن نقول إنها هي التضاريس الأرضية الممتدة بين الكدية ووادي ملاگ، وأن نقبل أن يكون الجبل هو مجموعة المرتفعات المتكونة من جبل وَرْغَة وكُدْية عبد الله. وأن ميتلّوس كان يمكن أن يأتي عن طريق المنخفض الذي يفصل الجبل عن الكدية. ولكن يبقى اعتراض قوي جدا – وربما كان اعتراضا حاسما – وهو أن الأرض الواقعة بين هذه المرتفعات ووادي ملاگ ليست سهلاً يمكن ترتيب الجيوش به على ثلاثة فصوص، وإطلاق الخيول للركض، وتسيير الأفيال إلى الأمام. فالأرض هناك مخددة إلى حد كبير، وغير صالحة لتكون ميدانا للمعركة.

وحسب توسّان Toussaint، جرت المعركة على ما يظهر بعيدا بالجنوب الغربي، وعلى ثمانية فراسخ من مدينة الكاف. إذ يوجد بهذا المكان سلسلة تعرف باسم جَبَل بوعَكّوس Bou Akkous تتوازى مع وادي ملاگ وتبتعد عنه بنحو 25 كيلومترا. فيكون هذا هو الجبل Mons الذي اخترقه ميتلّوس. وتقوم بين هذا الجبل والوادي مجموعة من المرتفعات الأخرى هي «جَبَل الوَسْطَى»، وجَبَل الأجْبال Lajbel، وكُدْية الصنوبر وهي بمجموعها تمثل الكدية Collis. وأخيرا فهناك سهل متسع يمتد بشرق

جبل الأجبال. ويُردّ على هذا أولاً بأن الخط المكون من جبل الوَسْطَى. إلخ... ليس متنا متصلا ينبعث من جبل بوعَكّوس، بل هو سلسلة جبال منعزلة. ثانياً أن جبل بوعَكّوس شديد البعد عن الوادي، ولا يمكن جعله هو الجبل Mons المقصود.

فلاشك إذن، ان هذه المشكلة توجب دراسة جديدة لطبيعة الأرض، ومن الطبيعي أنها لا يمكن حلها إلا إذا أعطانا وصف سالوست الدقة اللازمة لنسترشد بها في بحوثنا في عين المكان.

مكث ميتِلّوس بمعسكر موثول أربعة أيام أعطى أثناءها لجنوده راحة استحقوها عن جدارة. ولا نعلم هل أحدثت له المعركة خسائر كبيرة. ولكن المتأكد هو أن قليلا من الأعداء قتلوا او أسروا، وأن أكثرهم كان قد فر. فخفّتهم أو سرعة مطاياهم كانت تكفي لنجاتهم، حتى ولو أن الليل والإرهاق والجهل بالأرض لم تعق الغالبين عن متابعتهم. وكثيرا منهم انتهزوا هذه الفرصة المواتية ففروا من الجيش، لأن النوميديين – كما يشير لذلك سالوست – لا يتبع أحد منهم الملك في فراره، باستثناء فرسان الملك.

وتدارك يوغرطة الحالة وبتكوين جيش جديد أكثر عددا من الأول. ورغما عما يقوله المؤرخ، فإن هذا الجيش لم تكن قيمته أقل بكثير من قيمة سابقه، لأن النوميديين مَدينون لنمط حياتهم بالمزايا التي تجعلهم صالحين لخوض حرب إفريقية حتى ولو لم يتدربوا عسكريا عليها. فأخذ الملك يحشد جيوشه بالأمكنة المكسوة بالأشجار، والتي تحميها الطبيعة من هجمات العدوّ. وعلى هذا فإن الإخفاق الذريع الذي لاقاه لم يوهن عزيمته.

أما الرومانيون فإنهم بصمودهم ورصانة قائدهم تلافوا كارثة مخيفة. وقد جرت الاحتفالات بمعركة موثول التي صارت نصرا عظيما، وقرر مجلس الشيوخ في رومة إقامة حفلات الشكر للآلهة الخالدين.

## 3

غير أن ميتلّوس لم يكن يجهل أنه أدى عن هذا الانتصار ثمنا أغلى مما أدّاهُ البرابرةِ في اندحارهم. ونظرا لشدة بعده عن إيطاليا، فإنه لا يستطيع أن يعوض خسائره، بينما يوغرطة استطاع ذلك بسهولة، ثم إنه كا يعلم، بواسطة الملتجئين إليه وبواسطة جواسيسه، المجهود العظيم الذي يبذله الملك في الاستعداد لمتابعة الحرب. ولذلك لم يرد أن يعرض بنفسه في معركة قد لا تكون له يد في زمانها ومكانها، ولا ينتظر منها نتيجة حاسمة.

فاتخذ منهاجا جديدا. إنه بتأكيده للنوميديين أن ملكهم عاجز عن الدفاع عنهم، وبإرغامهم على الانفصال عنه، يحطم نفوذ يوغرطة ويشجع الخونة على تسليمه. فقرر إذن أن يخرب البوادي دون شفقة، وأن ينتزع القرى والمدن التي لا يكون في أخذها صعوبة شديدة، وأن يخربها وينهبها، وأن يرعب السكان بأحداث المذابح، وأن يتأكد من خضوعهم بتسلم الرهائن منهم وبإقامة الحاميات في بعض المراكز. وفي الأراضي التي سيستولي عليها بهذه الطريقة، سيجد بعضا من المؤن ومن وسائل النقل اللازمة للعمليات المقبلة، وستكون المدن المحتلة نقط ارتكاز ومراكز للتموين. أما الغنائم، فمهما بلغت ضآلتها، فإنها ستشحذ من عزائم جنوده.

غير أن خوض الحرب على هذه الطريقة، التي تشبه الطريقة التي استعملها بوجو Bugeaud في الجزائر، تفرض سهولة في العمل لم

تتعودها الفيالق مطلقا. فلزم تكوين فرق خفيفة جدا، لا تدع لمن تنقضّ عليهم وقتا يستعدون فيه للمقاومة، وتحمل أقل المؤن، وتعيش أكثر ما يمكن بما تنتجه أرض العدوّ.

وكذلك يوغرطة فإنه - مثل القنصل - لم يرد أن يبادئ بمعركة جديدة. فقد علمته المعركة التي خسرها أن الجنود الرومانيين - وقد حسنت الآن قيادتهم - قد أصبحوا أشداء، يعرفون كيف يقاومون الهجمات الصاخبة التي يشنها الأفارقة. ولكن خوفا من أن يتركه الجميع، لابد له أن يحول دون خراب مملكته. فتخلى عن الحرب الكبرى إلى حرب العصابات. فترك معظم جيشه بالأمكنة التي حشده فيها، وأخذ معه أحسن فرسانه، واستطاع أثناء سيره ليلا بالطرق الخفية، أن يقع فجأة على بعض الرومانيين المتفرقين في البوادي، فقتل منهم أو أسر عددا كبيرا، ثم انسحب بمثل السرعة التي جاء بها.

فكان هذا درسا لميتِلّوس. إن تشتت قواته يجعله عرضة للمفاجآت. لذلك جمع هذه القوات في جيشين يقود أحدهما بنفسه، ويقود الآخر مارْيوس. فكانا يعملان، ويعسكران منفصلين، ولكن على بعد قريب بينهما، بحيث يستطيعان أن يتبادلا العون بينهما عند الاحتياج. وإذا لزم جلب القمح أو العلف، فإن فرقا من الخيالة والمشاة، لا بعض المفرزات الصغيرة، هي التي تصحب المؤن.

ومع ذلك، كان يوغرطة يتلف العلف ويسمم منابع الماء بكل مكان اعتقد أن الرومانيين سيمرون به. كما كان يتبع مارْيوس تارة وميتلّوس أخرى، متخذا طريقه على المرتفعات. ومن غير أن يدخل معهما في المعركة، فإنه لم يكن يتركهما يستريحان، إذ كان يظهر ويختفي، ويهدد ويقلق.

ذكر سالوست من غير أن يوضح، أن ميتلّوس كان قد انقض على أكثر المناطق غنى في نوميديا، وأن سيكا قد فتحت له أبوابها بعد معركة موثول. فلربما أن العمليات التي شغلت نهاية الصيف مع الخريف، لم تجتذب الرومانيين إلى أن يبتعدوا كثيرا عن هذه المدينة. ولربما يكونون قد حاربوا بجنوب مجَرْدة، بموسطة تونس وغربها، من غير أن يدخلوا إلى الجزائر. أما الأمكنة الصعبة والمكسوة بالأشجار، حيث فر يوغرطة بعد اندحاره، وحيث حشد جيشا جديدا، فيمكن الفرض بأنها كانت بشرق الجزائر، جنوبي مجردة كذلك.

كان الشتاء قريبا، ولم تأت غارات ميتلّوس بالنتيجة التي كان ينتظرها منها، لأن يوغرطة بقي صامدا. فأراد القنصل أن يضرب ضربة عاتية قبل أن يلزمه فصل الأمطار بوقف الحرب. فذهب لمحاصرة الجَمّة (زاما Zama) وهي إحدى المدن المهمة في نوميديا (معقل القسم الذي توجه به من المملكة). وكان يعوّل جيدا - كما يروي سالوست - على أن الملك سوف يريد منعه من الاستيلاء عليها، وبهذا ستقع معركة في الميدان الذي يكون قد اختاره هو وفي الظروف المناسبة للرومانيين.

إن قضية زاما Zama هي الفصل الثاني من الحرب التي يعتبرها سالوست أهلا لأن تروى بتفصيل. ولابد أن بروقنصل إفريقيا الجديدة كان يعرف زاما هذه، التي كانت لاشك في ولايته. وبسبب موقعها في السهل، فإنها - كما سبق أن قلنا - لا يمكن أن تكون واحدة من المدينتين اللتين تحملان هذا الاسم واللتين تحدد موقعهما بفضل بعض النقوش، وكانتا تقعان على المرتفعات، ولكن إذا كانت - كما يحتمل ذلك جدا - هي مدينة زاما التي استعملها يوبا الأول عاصمة له، أي زاما

الملكية Zama regia المذكورة في وثائق أحدث عهدا، فيحسن البحث عنها في موسطة تونس بين الكاف ومكْثار.

علم يوغرطة بمسير ميتلّوس بواسطة بعض الفارين من الجيش الروماني. فسبق القنصل وقاد إلى أهل زاما بعض الملتجئين إليه ليساعدوهم في الدفاع عن أنفسهم. وكان يثق بهم، لأن هؤلاء الخونة لا يأملون ان يصفح عنهم القنصل. وواعد بأن يأتي مع جيشه لنجدة المدينة، ثم انسحب إلى حيث لا يعرف أحد وجوده. ولم يلبث أن علم أن ماريْوس مع بعض الفرق قد انحرف عن طريقه، واتجه ليأخذ القمح من سيكا. فذهب إليها ليلا مع بعض الفرسان ووجد الرومانيين وهم يغادرون المدينة، فانقض عليهم وهو يصيح بأهل المدينة أن يهاجموهم من ورائهم. ولكن ماريْوس حمل حملات قوية استطاع بها أن يتخلص، كما استطاع بسهولة – عندما فر النوميديون – أن يتصل بميتلّوس عند وصوله أمام زاما.

هذه المدينة، مع انعدام التحصينات الطبيعية بها، كانت محصنة بأسوار متينة، مزودة بالأسلحة والادوات الحربية. وقد رتب القنصل جيشه حولها فأحاطها به، ثم أمر بالهجوم العام. ولكن هذا الهجوم صد بكل قوة لأن الحجارة الكبيرة وقطع الأخشاب الملفوفة في مشاقة الكتان المشتعل، والقار الملتهب المخلوط بالكبريت، كانت تنهال على الذين يحاولون نقب الأسوار أو الذين يصعدون في السلالم، كما أن الحراب التي ترميها اليد او الآلة، كانت تتطاير لتصيب من وقفوا بعيدا.

وأثناء هذه المعركة ظهر يوغرطة، ومعه قوات عظيمة. وكان على ميتلّوس أن ينتظره، لأن الهجوم على زاما كان يرمي – إذا صدقنا سالوست – لإرغامه على خوض المعركة. ومع ذلك، لم يكن المعسكر

الروماني محروسا حراسة شديدة، فاستطاع الملك أن يقتحمه بغتة. وأصاب الهلع أكثر الجنود الذين تركوا به، ففروا، وقتل أو جرح أكثرهم. ولم يتجمع سوى أربعين رجلا على تل صغير، فقاوموا ببطولة، وصدوا النوميديين الذين يقتربون منهم.

وسمع ميتِلّوس، وهو يسيّر الهجوم، صيحات الأعداء من خلفه، فأدار فرسه، ورأى الفارين مقبلين. فأرسل على جناح السرعة جميع الخيالة إلى المعسكر، ثم أرسل مارْيوس على رأس فرق الحلفاء، فجعل رجال يوغرطة - وهم يبحثون عن مخرج - يَثِبون من فوق التحصينات، أو يتهافتون على الممرات الضيقة بالأبواب. فمات كثير منهم، واستطاع الآخرون ان ينسحبوا مع الملك. ومع نزول الظلام عاد ميتِلّوس بجيوشه من غير أن يوفق في هجومه على زاما.

وفي الغد نشر جميع خيالته خارج المعسكر، بالناحية التي يمكن أن يأتي يوغرطة منها، وترك بالمعسكر نفسه القوات الضرورية للدفاع عنه، ثم عاد للمدينة وعاودوا الهجوم. وظهر الملك، فارتمى على الرومانيين الذين اضطربوا قليلا ثم صمدوا له. وكانت الخيالة عند النوميديين تحارب وقد خالطها مشاتهم. وعوضا من أن تشن الخيالة الحملات ثم تتراجع إلى الوراء كما اعتادت ان تفعل، فإنها كانت تتقدم، وتحدث الاضطراب في صفوف أعدائها، وتسلمهم هكذا نصف مغلوبين إلى المشاة الأخفاء الذين يصاحبونها. فتحمل الرومانيون من جراء ذلك خسائر عظيمة، ومع ذلك لم يسمحوا لهم باختراق صفوفهم.

وأثناء هذا الوقت كانت المعركة لاتزال حامية الوطيس حول زاما. وكان المدافعون عن الأسوار يستطيعون، من الجهة التي كان بها ماريوس، أن يروا المعركة التي يخوضها يوغرطة. وكانوا يتتبعونها

بعاطفة، ويعبرون عن مشاعرهم بالحركات والصياح. ولكي يوجه ماريوس انتباههم كليا نحو هذا المشهد، أمر أن يترك لهم بعض الراحة، وعلى حين فجأة عاود الهجوم بكل قوة. فلم ينتبه المحصورون إلا والجنود الذين صعدوا السلالم قد كادوا يصلون إلى أعالي الأسوار. فتسارعوا ورصوا الرومانيين بانواع القذائف، وانكسر عدد من السلالم فأهوى من كان فوقها على الأرض، وفر الآخرون. أما في غير هذا المكان، فإن محاولات الهجوم لم تحرز على حظ من النجاح. وجاء الليل فوضع حدا لهذه المعارك.

كان الأوان قد آن لوقف الحملة. فابتعد ميتِلّوس عن زاما. وجعل الحاميات في بعض المدن التي تمكنها حالتها من مقاومة الهجمات، ثم جلا عن بقية نوميديا، فذهب الجيش إلى معسكرات الشتاء في ولاية إفريقيا بالقرب من الحدود. وبعد ذلك بقليل نجد ميتِلّوس بمكان دعاه سالوست باسم تيزْديوم Tisidium. ولاشك أنه هو الذي ذكرته بعض الوثائق المتأخرة باسم ثيزيدووم Thisiduum أو كيزيدووم Chisiduum، ويُعرف اليوم باسم كْريش الواد Krich el Oued، على سبعة كيلوميترات شمال شرق مْجاز الباب. وقد أقام به القنصل مع أحد الفيالق. ولا نعلم أين كانت المعسكرات الأخرى التي أسْنِد واحد منها إلى مارْيوس.

## 4

لم يكن في الإمكان أن يشرع في حرب جديدة إلا في فصل الربيع. ومع ذلك فقد كان ميتلوس يودّ أن ينهي الحرب. ولكن، حيث إن أسلحته قد أخفقت، فإنه عاد لتلك الدسائس التي سبق له أن حاولها قبل القيام بحملاته.

فاتجه إلى الشخص الذي يكنّ له يوغرطة أكبر المودة، إلى بوملكار الذي أخذه الملك معه إلى رومة، وكلفه باغتيال ماسيفا وهيأ له أن يفر ليفلت من المتابعات القضائية فداخله ميتِلّوس حتى قبل مقابلته سرّاً، وقطع له الوعد بأن مجلس الشيوخ يهبه العفو، ويترك له جميع ما يملك إن هو سلّم يوغرطة حيا أو ميتا فرضي النوميدي بسهولة، إذ لم يكن يأبه لوازع الضمير، ولأنه كان يخشى - فيما إذا تم الصلح مع الرومانيين - أن يجعل هؤلاء من عذابه أحد شروط الاتفاق.

أما حالة يوغرطة فلم تكن بالغة حد اليأس ولربما كانت المحاولة غير المجدية التي قام بها ميتِلّوس عند زاما، قد زادت من ثقة يوغرطة في نفسه، بل لعل ذلك الإخفاق كان له صدى واسع في نوميديا ولكن بوملكار - حسب رواية سالوست - أبان لسيده الوضع في أسوء حالة، وأكثر من مواربته حتى أوقعه في يأس عميق، ودفعه إلى التخلي عن الصراع وبعث يوغرطة المبعوثين إلى ميتِلّوس يخبره عن استعداده لأن يطيعه في كل شيء، وأن يسلّم إليه نفسه ومملكته من غير شرط.

فاستعدى القائد في الحين جميع من بجيشه من الشخصيات التي لها حيثية في مجلس الشيوخ، وأضاف لها بعض من استحسن أن يستشيره فأصدر هذا المجلس قراره إلى يوغرطة بأن يسلّم للقائد 200.000 لبرة فضية، وجميع أفياله، وقسما من خيوله وأسلحته. وفعلا نُفّذت جميع هذه الأوامر من غير تأخير. فأصدر بعد ذلك ميتِلّوس أمره القاطع ليوغرطة أن يضع في القيد جميع الفارين من الجيش الروماني ويُسلّموا إليه. وقد نفذ هذا كذلك، ولم يستثن منه سوى من استطاع الفرار إلى موريطانية في الوقت المناسب عند الملك بوكوس. أما الذين

سلموا إلى ميتِلّوس فقد ماتوا بعد عذاب شديد. وأخيرا دعي يوغرطة نفسه إلى تيزديوم ليتلقى بها أوامر جديدة.

وإذ ذاك حدث تحول في رأيه. لقد خشي العقاب الذي ينتظره لاشك، وبعد تردد استمر أياما طويلة، قرر العودة إلى الحرب.

لقد ضحى بالكثير من عتاده في غير جدوى. فكون عتادا آخر، بنفس النشاط والذكاء اللذين يحسن الإبانة عنهما حينما لا تكون معنوياته مصابة بالانهيار. فقد جمع الجنود، واشترى السلاح أو أمر بصنعه، وقوى الدفاع بمراكزه الحصينة. واستعمل الوعد والوعيد ليجذب إليه المدن التي استسلمت لميتِلّوس، بل إنه حاول إفساد الحاميات الرومانية بالمال. فاستعاد - على ما يحتمل - جميع مملكته، باستثناء المواقع كانت تحتلها هذه الحاميات. واستطاع طيلة فصل الشتاء أن ينزل قسما من جيوشه قريبا جدا من ولاية إفريقيا ومعسكرات الأعداء.

غادر ميتِلّوس منصب القنصلية في نهاية سنة 109، غير أنه احتفظ من بداية السنة الموالية بنوميديا التي أسندها إليه مجلس الشيوخ أثناء توزيع الولايات مع لقب بروقنصل. وحيث إن المجلس لم يذكر قبل الانتخابات أن نوميديا ستكون إحدى الولايتين اللتين ستسندان إلى القنصلين اللذين سيقع انتخابهما، فإنه أظهر بوضوح نيته في تمديد عمل ميتِلّوس بهذه الولاية.

وكان الفصل لا يزال فصل الشتاء حينما وقعت حادثة قصها سالوست بتفصيل :

كانت إحدى الحاميات التي تركت بنوميديا، تقيم بڤاگا (باجة). واستسلم كبراء المدينة لرجاء الملك فدبّروا مؤامرة. اغتنموا فرصة أحد

الأعياد - ولعلّه عيد البساط - الذي تقام فيه أفراح كبيرة بجميع إفريقيا، فاسْتدعوا لمختلف المنازل قواد المائة والقادة العسكريين، وقائد الحامية ت. تورْبيليوس سيلَنوس T.Turpilius Silanus. وأثناء تناول الطعام قتلهم مضيفوهم جميعا باستثناء توربيليوس. ثم إن الشعب - وقد جره المتآمرون - هجم على الجنود الذين كانوا في يوم هذا العيد يتجولون هنا وهناك من غير أن يتخذوا حيطة كبيرة. فلم يدروا ما يصنعون عندما فقدوا قادتهم، واستولى المتآمرون على الحصن الذي به أسلحتهم، ووجدوا أبواب المدينة مغلقة، والنساء مع أطفالهن من فوق دورهم يرمونهم بالحجارة وجميع القذائف. وجرى التقتيل، ولم يستطع الخروج من فاگا سالما سوى إيطالي واحد هو القائد تورْبيليوس، الذي قال عنه سالوست : لا ندري هل هو مَدين بسلامته لشفقة مضيفيه، أو لاتفاق مع المتآمرين، أو للصدفة. أما حسب رأي بلوتارك فقد عفي عنه لأنه كان أظهر الرحمة بالسكان.

وبلغت أنباء هذه الكارثة إلى سمع ميتلّوس وهو بمعسكرات الشتاء، بتيزديوم لاشك. فكان لابد من عقاب شديد وسريع.

أخذ ميتلّوس الفيلق الذي معه، وأضاف إليه جميع الفرسان النوميديين العَاملين تحت إمرته، وتحرك مع مغيب الشمس، فوصل صباح الغد، حوالي الساعة الثالثة - (التاسعة صباحا) - إلى سهل تحيط به المرتفعات. ورفض جنوده المتعبون أن يسيروا إلى أبعد من ذلك المكان فاستنهضهم، وأعلمهم أن ڤاگا ليست على أكثر من ميل واحد، وأن يدهم تكاد تمسك الانتقام والغنيمة، وأمر الخيالة أن تنتشر في الأمام، ويتبعها المشاة في صفوف متراصة، وأن يخفوا أسلحتهم ويتجهوا للمدينة.

ظن أهل المدينة أول الأمر - وكانوا على صواب - أنه ميتلّوس فأغلقوا الأبواب. ولكنهم لما رأوا الفرسان النوميديين في المقدمة، وأنهم يتقدمون من غير أن يحدثوا إتلافا في الأرض، ظنوا أنه يوغرطة وخرجوا لملاقاته فرحين. ولكن أعطيت الإشارة بغتة، فانطلق الفرسان والمشاة، وقطعوا إربا إربا الجموع المتشتتة عند الأسوار، ثم أسرعوا إلى الأبواب واستولوا على الحصون، وأُسْلمت المدينة للنهب، ولعلها أحرقت. وحكم بالإعدام على جميع أعضاء مجلس شيوخها.

أما تورْبيلْيوس فقد حاكمه ميتلّوس، فثبتت تهمته وضربت عنقه، وحيث إنه كان مواطنا لاثانيا، فقد وقع جلده أول الأمر. وتلك معاملة لا توقع بالمواطنين الرومانيين. ويذكر سالوست أن هذا القائد لم يأت بأعذار صالحة لتبرير سلوكه، كما يرى أن توربيليوس قد لطّخ على كل حال شرفه عندما لم يقاسم جميع الذين كان يقودهم في مصابهم. وهناك كاتب نقل عنه بلوتارك Plutaque تحدث هنا عن تدخل مارْيوس الذي لم يذكر المؤرخ اللاتاني (سالوست) عنه شيئا. فقد أكد هذا الكاتب أن ميتلّوس كان يود تبرئة الرجل الذي كان لأسرته علاقات حماية بأسرة ميتلّوس، غير أن مارْيوس الذي كان يحضر المحاكمة بصفته محكما، طالَب بكل إلحاح أن يحكم عليه. وبعد زمن قليل ظهرت براءة توربْيلْيوس.

وفصل الشتاء هذا، نجا يوغرطة من مؤامرة حاكها نوميديّان لهما أرفع منزلة، وهما بومِلْكار Bomilcar ونَبْدَسا Nabdasa. أما الأول فكانت شكوك الملك تحوم حوله بسبب نصائحه له بالاستسلام. وكان هو أيضا يحس جيدا أن يوغرطة حاقد عليه، فكان لا يفكر إلا في القضاء عليه. وقد وجد شريكا هو نَبْدَلَسَا، ذو المولد الشريف، والثروة الطائلة والشهرة الذائعة، وقد اعتاد الملك أن يسند إليه بعض شؤون الدولة،

وسبق له أن قاد جيشا بجوار الولاية الرومانية. وبعدما حدد الرجلان تاريخا لتنفيذ ما عزما عليه عاد نَبْدَلَسَا إلى معسكره. ولكنه لم يأت في اليوم المحدد لخوفه من العواقب التي تنتظره. فقلق بوملكار جدا من هذا التأخير. وبعث إليه رسالة أشار فيها إلى وعود ميتلّوس. فسلِّمت الرسالة إلى نَبْدَلَسا، لكنها أثناء نومه وقعت بيد كاتبه الذي ذهب من حينه ليريها للملك. وقد حاول نبدلسا عبثا أن يلحق بهذا الرجل، فلما رأى أن جهوده ضاعت سُدًى، ذهب لملاقاة الملك كي يهدئه، وادّعى أن خادما خداعا سبقه وكشف ما كان يتهيأ هو أن يكشفه. فأظهر يوغرطة تصديقه في أقواله، خشية أن تحدث الفتنة إن هو عذّب نَبْدَلَسا. ولكنه عذّب بوملْكار مع آخرين من مشاركيه.

ومن هذا الحين فقد الراحة، وأصبح يحذر من كل شيء وكل شخص. ولكيلا يترك للمتآمرين وقتا للعمل، فإنه أخذ ينتقل بدون انقطاع، ويتحاشى قضاء ليلتين متتابعتين في مكان واحد، وأحيانا كان يستيقظ من نومه مذعورا ويمسك بأسلحته. وكاد الذعر يوقعه في الجنون. وبعد قليل لم يجد حوله أي واحد من أصدقائه القدماء، لأن من لم يُعْدِمْهم، التجأوا خوفاً منه إما إلى الرومانيين وإما عند الملك بوكوس.

## 5

وأَعْلَم بعضُ اللاجئين ميتلّوس بكشف المؤامرة وموت بوملْكار، فاستعد لمعاودة القتال.

ونحن نجهل كثيرا عن معارك سنة 108 ق.م. والقسم الوحيد منها الذي يذكره سالوست هو الحملة على تْهالة Thala. أما الباقي فإنه يتغاضى عنه أو يشير إليه بإيجاز كبير.

فقد قال إن يوغرطة لم يعد قادرا على الاعتماد على مساعديه، لأنه كان يذكر الخيانات السالفة ويخشى وقوع أخرى جديدة. غير أنه كان يصعب عليه أن يسيّر الحرب بمفرده، ثم إن عزيمته داخلها كثير من الاضطراب، ولم يعد يرضيه شيء، ويقرر الشيء ثم ينقضه، فهو تارة يزحف نحو العدوّ، وتارة يتغلغل في الصحراء كالهارب، وقد فقد ثقته في قيمة رعاياه وفي وفائهم. وأخيرا أرغمه ميتلّوس - بغتة على ما يحتمل - على خوض معركة جرت في مكان لا ندريه. واتسمت هذه المعركة بأن الصراع فيها طال بعض الوقت في المكان الذي حضره الملك، أما في غيره من الأمكنة فإن جنوده سرعان ما اندحروا وشتتوا. فاستولى الرومانيون على كثير من الأعلام والأسلحة، ولم يأسروا إلا قليلا من الناس، لأن النوميديين - كما هي عادتهم - عرفوا بسرعة كيف يجعلون أنفسهم بعيدي المنال.

وزاد تضعضع يوغرطة شيئا فشيئا، فاخترق أراضي موحشة شاسعة، واتجه إلى تْهالة يصحبه بعض الملتجئين والفرسان. وكان ذلك - تقريبا - كل ما بقي له من جيشه بعد اندحاره.

في هذه المدينة - تْهالة - الكبيرة الغنية، التي لم تكن - على ما يظهر - مبنية على أرض وعرة، ولكنها محصنة بأسوار وثيقة، كان الملك قد ادّخر مقادير ضخمة من الأموال، كما كان يربي فيها أبناءه الصغار. وكذلك فإن كثيرا من منابع المياه كانت تمكن سكانها العديدين من الحياة فيها. ولكن الصحراء كانت تحيط بها، وأقرب نهر إليها - لا يذكر سالوست اسمه - كان على بعد خمسين ميلاً. (74 كيلومتر).

لقد سبق أن قلنا : إن هذه المعلومات لا تمكننا مطلقا من القول بأن تْهالة يوغرطة هي المكان الواقع تقريبا على بعد 55 كيلومترا في

الشمال الشرقي لِتِبسّة، وعلى 72 كيلومترا جنوب مدينة الكاف، أي بالمكان الذي يحمل إلى اليوم اسم تْهالة، والذي كانت به في التاريخ القديم مدينة كبيرة تحمل نفس الإسم. وقلنا كذلك أن تهالة تعني عين الماء في اللغة البربرية، وأن هذا الاسم كان لابد واسع الانتشار. وحيث إن سالوست صرح بأن أرض تهالة تشبه أرض كَبْسَا، وهي اليوم قَفْصَة، فإن كثيرا من العلماء بحثوا عن مدينة يوغرطة في منطقة كَبْسا نفسها بالجنوب التونسي. وظنوا أنهم عثروا على إشارة ثمينة بوجود أرض تدعى «بلاد تهالة» بين قَفْصَة وخليج قابس. ولكن ذلك كان وهماً، والحقيقة أنها بلاد تاهلا Thala، باسم عربي لا بربري، يدل على غابة واسعة جدا من شجر الطلح. فهذه التسمية لا ترتفع إذن إلى زمن التاريخ القديم. وكل الأمكنة – سواء في بلاد تاهلا أو فيما يجاورها – التي قيل إنها هي تهالة سالوست تقع على أقل من خمسين كيلومترا من نهر دائم الجريان، وليس بها عيون الماء التي يذكرها المؤرخ ولا آثار تشهد بوجود مدينة كبيرة. فالمعطيات التي بين أيدينا لاتكفي لتحديد موقع تهالة. وعَلِمَ ميتلّوس أن يوغرطة بتهالة، فقرر أن يذهب إليها ليأخذه. لأن أمله في إنهاء الحرب على هذا النحو دفعه لهذه الحملة التي كان لا يخفي على نفسه صعوباتها، ولكن أين كان هو آنذاك ؟ إن سالوست نسي أن يذكر ذلك.

قرر القنصل أن أحمال الدواب يجب أن تقصّر على مؤونة من القمح لعشرة أيام، وعلى قرب وغير ذلك مما يصلح لحمل الماء. واستولى في البوادي على أكبر عدد من الدواب وحمل عليها كل أنواع الأوعية التي كان أكثرها من خشب، وجمعت من أكواخ النوميديين. وفرض على أهالي الجهات المجاورة، الذين استسلموا له بعد الاندحار وفرار الملك،

أن يأتوه بأكثر ما يستطيعون من الماء، وحدد لهم يوم اللقاء ومكانه، وذهب بنفسه يتزود بالماء من النهر الذي يجري على خمسين ميلا من تهالة، ثم تابع سيره، فلما وصل للمكان الذي دعا إليه النوميديين، وأظهر هؤلاء مبالغة في الاجتهاد إذ جاؤوه بأكثر مما طلب من الماء، نصب معسكره بهذا المكان. وبغتة هطل مطر قوي تسد غزارته حاجة الجيش. ففضل الجنود لشعورهم الديني ماء السماء على المقدم إليهم. وأيقظ هذا الحادث حميتهم، ولم يعودوا يشكّون في أن الآلهة ترعاهم.

وفي الغد كانوا أمام تهالة. فعجب الناس - كما يقول سالوست - أشد العجب، إذ كانوا يظنون أن موقع مدينتهم يجعلهم لابد في مأمن من عمل كهذا، ومع ذلك فإنهم استعدوا للمقاومة. ويمكن أن نعجب من كونهم لم يعلموا شيئا عما يهددهم، وأن يجعلوا على الخصوص الموعد الذي ضربه ميتِلّوس لجماعة كبيرة من الفلاحين، لمكان لم يكن يبعد أكثر من مسيرة يوم واحد عن تهالة.

أيّاً ما كان الأمر، فإن الملك استطاع أن يفلت من ميتِلّوس. فقد خرج مع أبنائه وقسم كبير من كنوزه. وذلك أحسن ما كان له أن يفعله، حتى ولو بدا وكأنه يتخلى بجبن عن رعاياه الأوفياء.

أنجز ميتلّوس خدمات كبرى بقصد الحصار، كالخنادق المحيطة بالموقع، والممرات الخفية المغطاة بالخشب ليمكن من جهات مختلفة الاقتراب من الأسوار، وتسوية الأرض لدفع الحصون. فتم الاستيلاء على المدينة بعد أربعين يوما من الجهود الشاقة ومن القتال، غير أن أثمن الغنائم أتلفه الملتجئون، لأنهم لما رأوا الثغرة تنفتح بتأثير ضربات الكباش نقلوا لمسكن الملك الذهب والفضة وأثمن الأشياء، وتملأوا خمرا وطعاما، ثم قدموا هذه الكنوز للنار، كما أحرقوا القصر وأنفسهم، لأنهم

لم يكونوا ينتظرون الرحمة من غالبهم. وربما أن ميتِلّوس هدم تهالة. ولاشك أن سقوط هذه المدينة الكبيرة كان انتصارا له، لأنه يزيد في نقصان نفوذ يوغرطة الذي لم يحاول حتى الدفاع عنها. ومع ذلك فلم تكن تلك هي نهاية الحرب التي طالما تمناها ميتِلّوس.

استلزمت الحملة على تهالة نحوا من شهرين. فالإعصار الذي صاحبته أمطار غزيرة كما يذكر سالوست، ليس حجة، بل إنه سبب في الاعتقاد بأن هذه الحملة لم تقع في شدة الصيف الجاف بإفريقيا. ولعل الاستعداد لها جرى من قبل لا من بعد، لأننا سنرى أن يوغرطة بعد مغادرته للمدينة، وقبل نهاية السنة، وجد متسعا من الوقت ليحشد جيشا من الجيتوليين وأن يدرب هذا الجيش وأن يلحق ببوكوس على رأس هذا الجيش، وأن يزحف أخيرا على سِرْتا Cirta.

وبدون شك، فإن ميتِلّوس استولى على مدن أخرى مهمة أثناء حملة سنة 108. بل استطاع أن يخضع سِرْتا عاصمة سيفَكْس Syphax ومسِنيسّا، ومسِبْسا وآذربَعْل. ولم يقل لنا سالوست كيف دخلها، هل حاصرها وانتزعها عنوة، أو تقبل استسلامها من غير أن يحتاج لاستعمال القوة. وقد وضع بها غنائمه وأسراه وأثاثه ثم أقام معسكره على مسافة قريبة. وهنا في قلب نوميديا أمضى الشتاء في معسكراته، لا بالولاية كما فعل في السنة الماضية. وهذا يكفي دلالة – مادام سالوست لا يسعفنا بمعلومات دقيقة – على أن التفوق العسكري الروماني قد تأكد في هذه السنة الثانية من قيادة ميتِلّوس. ومعلوم أن هذا لم يكن هو الأهم.

كانت شهرة البروقنصل واسعة في إفريقيا. وقد نال بذلك شهادة أتته من بعيد، في عهد الاستيلاء على تهالة. ذلك أن مبعوثين عن مدينة

لِبْتيس Leptis صديقة رومة منذ ثلاث سنين، تقدموا إليه وأوضحوا له أن مدينتهم مضطربة بسبب سلوك شخص من أصل نبيل يدعى آمِلْكار Amilcar. وأن سلطة الحكام والقوانين عاجزة أمامه. ورجوه أن يبعث إليهم بحامية وحاكم، وإلا فإن الرومانيين معرّضون لأن يضيعوا حلفاء أوفياء. فلبّى ميتِلّوس هذا الطلب، وذهبت أربع فرق من الليغوريين إلى لبتيس بقيادة ضابط شاب هو ك. أنْيوس C. Annius الذي سيصبح من بعد بروقنصلا في إسبانيا ويحارب بها سِرْتورْيوس Sertorius.

## 6

كان شرق نوميديا وموسطتها في قبضة الرومانيين. ومع ذلك، فإن يوغرطة لم تنهر آماله إلى الحد الذي يذكره سالوست، إذ بحث في الخارج عن الوسائل لمتابعة الصراع، ووجد هذه الوسائل. ذلك أنه قام بحشد الجنود من الجيتوليين بعد فراره من تهالة. ومن جهة أخرى، استطاع بما قدمه من هبات، بل أكثر من ذلك، استطاع بوعوده أن يميل لجانبه حاشية بوكوس. وهكذا جعل هذا الأمير ينضم لجانبه.

كان بوكوس ملكا على موريطانية كلها منذ ما لا يقل عن عشر سنوات. فكان إذن في سن الكهولة. لأن إحدى بناته كانت من قبل – ولا ندري متى – قد تزوجت بيوغرطة، كما أن أحد أبنائه كان يقود الجيوش بعد ذلك بسنتين. وكانت له تلك المساوئ التي نواخذ بها كثيرا من الأفارقة : من قسوة، وخَتْل، وتقلب، وامتزاج الكبرياء بالضّعَة. ومع أن مستشاريه كثيرا ما كانوا يسيرونه، فإنه كان يدّعي أنه السيد في ممالكه، ويطمح لتوسيعها.

والزواج الذي جعل من يوغرطة صهرا له، لم ينشئ بينهما علاقات متينة جدا. لأن ذلك - كما لاحظه سالوست - ليس أمرا ذا أهمية عند الأهالي الذين اعتادوا تعدد الزوجات وقلة تعلقهم بنسائهم. بل إنه أظهر للملك النوميدي شعورا بالعداء. ومع أنه إلى ذلك العهد لم تكن له علاقات بالرومانيين، فقد بعث إليهم سفارة في أوائل الحرب التي خاضوها ضد يوغرطة، أي في سنة 111، ليطلب من مجلس الشيوخ التحالف والصداقة، وفي شتاء سنة 109-108، فرَّ عند بوكوس، طلبا للأمان بجانبه، جماعةٌ من الهاربين من الجيش الروماني كان يوغرطة يتهيأ لتسليمهم إلى ميتلّوس، كما فرّ عنده جماعة من كبراء النوميديين الذين كانوا يخشون أن يعدمهم ملكهم.

وهل تواجه الملكان في حرب علنية ؟ ذلك ما يجب تصديقه، إذا صح حديث يقال إن بوكوس نطق به في نهاية سنة 106، حسب سالوست وأپْيان Appien كذلك. فقد قال إنه استولى من قبل على قسم من نوميديا، على القسم المتاخم لمملكته بعد أن طرد يورغطة منه. ولكن هذا كان أكذوبة، قصد بها تبرير سلوكه تجاه الرومانيين الذين حاربهم بعد التجريدة التي بعثها ماريْوس على نوميديا الغربية، أي على المنطقة التي يؤكد بوكوس أنها له هو، وليست لجاره. والحقيقة هي أن نهر مُلوكا Mulucha (وهو اليوم نهر مَلْوية) الذي كان يفصل موريطانيا في عهد مسِبْسا، كان لا يزال يفصلهما في عهد الحرب بين رومة ويوغرطة، وقرب هذا النهر وضع يوغرطة سنة 106 مقادير ضخمة من المال في حصن حصين تحت حراسة رجال موثوق بهم من رعاياه الذين كانوا نوميديين، لا موريين. ولكن المتأكد هو أن بوكوس كان يطمع في نوميديا الغربية، وأن يوغرطة رأى نفسه ملزما أن يتخلى له عنها، إذا حصل بمعونته على صلح يتركه على عرشه.

ويمكن أن يكون قد واعده بذلك منذ سنة 108 ليجره للحرب، وفوق ذلك، فإن بوكوس كان حانقاً على الرومانيين، لأنهم أهانوه حين لم يستجيبوا لما عرضه عليهم من المحالفة، إما لكون من رشاهم يوغرطة من الرجال دسوا حتى أحبطوا هذا المسعى، كما يذكر سالوست، وإما لكون مجلس الشيوخ رأى أن لا حاجة له بمعونة الموري الذي لابد أن يطالب بالثمن. أما الآن فعلى بوكوس أن يخشى من استيلاء رومة على نوميديا بعد أن تقهر يوغرطة. وقد أفهمه صهره ذلك، لأنه لم يكن يخاف مثل هذه الجارة التي قد لا تقف عند هذا الحد على ما يظهر.

وعند نهاية الخريف أو بداية الشتاء جمعا جيوشهما في مكان معين – في غرب الجزائر طبعا – وحلفا الأيمان على الوفاء ثم اتجها إلى سِرْتا. وكان يوغرطة عازما إما على الاستيلاء على هذه المدينة التي تستحق هذه المشاق، وإما أن يزج ببوكوس في المعركة إذا جاء ميتلوس لنجدة المدينة، وبذلك لا يبقى للموري اختيار بين القطيعة أو الاتفاق مع رومة.

انتظر ميتلّوس الملكَيْن بمعسكره الحصين قرب سِرْتا، لأنه أراد أن يأخذ فسحة من الوقت لمعرفة عدوّه الجديد قبل أن يحاربه، كما أراد أن يختار هو مكان المعركة ومناسبتها، وكان الفصل مما لا يحب الرومانيون أن يحاربوا فيه. ولعله أيضا كان يتمنى أن تسوى الأمور من غير أن يستعمل السلاح.

وفي هذه الأثناء (بقليل بعد بداية سنة 107 ؟) علم أن مساعده السابق ماريوس أصبح قنصلا، وكلفه الشعب بقيادة الحرب بنوميديا. فأحدث له هذا النبأ ألما عظيما لم يستطع أن يخفيه.

كان واجبه هو أن ينتظر على رأس جيشه قدوم خلفه. فاعتبر أن من الغباء الكبير أن يتابع، وعلى مسؤوليته وحده، حربا أصبحت الآن قضية تعني غيره، ولا يرضى أن يأتي عاقٌ يخلفه بكل وقاحة ويستفيد من السنتين اللتين بذل خلالهما جهودا كان لها نتائج سعيدة.

فبعث إلى بوكوس بوفد يدعوه أن لا يصير بدون سبب عدوا للشعب الروماني، ويبيّن له أخطار المشاركة في قضية يوغرطة الميؤوس منها، وعلى النقيض من ذلك فإن التحالف مع رومة يمكن أن يفيده جدا. وكان هذا أسلوبا لدعوة الملك إلى تسليم صهره وحليفه. وإن أكبر انتقام لميتِلّوس هو أن يكون في الوقت الذي سيصل فيه ماريوس إلى إفريقيا بدعوى أنه سيفعل أحسن مما فعل، فقد قدم - ميتلّوس - لوطنه يوغرطة مغلولا ومعه نهاية الحرب التي اتُّهِم بتطويلها بسبب تقصيره وحبه للسلطة !! ولكن بوكوس أظهر التجاهل. فأجاب بأنه يريد السلام، ولكنه يعطف على يوغرطة، وأن الاتفاق أمر ممكن إذا شملت المعاهدةُ المعروضةُ عليه الملكَ النوميديّ. فرفض ميتِلّوس هذا الطلب، وإن كان لم يقطع المفاوضات وهكذا بقي القتال موقوفا.

ولما جاء ماريوس لتسلُّم قيادته، لم يُرد ميتلّوس أن يتقابل معه، وكلف نائبه روتيليوس Rutilius أن يسلمه الجيش.

كان ميتِلّوس قد أبدى قدرة عسكرية عظيمة، ففي الظروف التي سيَّر فيها هذه الحرب الشديدة القاسية، لم يكن هناك من يسيرها أحسن منه. وإذا كان لم يستطع في مدة سنتين أن ينهيها بالقبض على يوغرطة أو بتنحيته، فإن ماريوس - وهو أشدّ مَنْ لامَه على ذلك - لم يستطع بدوره أن ينهيها في نفس المدة. ففي السنة الثالثة لا غير من قيادته مكنته الخيانة من الملك، وأزاحت عن الجمهورية الكابوس النوميدي.

يقول سالوست : «إن ميتلّوس لما ذهب إلى رومة قوبل - على غير ما كان ينتظره - بحفاوة كبرى، وأصبح حين خف الحسد معززا عند الجماهير وعند مجلس الشيوخ». ومع ذلك فإن الأمور لم تجر على هذا النحو.

ولاشك أن مجلس الشيوخ قد وهبه الأموال اللازمة لموكب تمجيده بمجرد وصوله إلى إيطاليا عند نهاية الربيع لسنة 107، غير أن هذا المرسوم لم يكن كافيا. لأن البروقنصلات Proconsuls بعد عودتهم كان لا يمكنهم الدخول للمدينة إلا إذا تجردوا من قيادتهم العسكرية (أي من السلطة) التي كانت لازمة لهم لتمجيدهم. ولذلك كان لابد من تصويت الشعب على اقتراح بإحداث قانون خاص قدمه الخطباء يأذن للمنتصر القادم (ميتلّوس) أن يحتفظ بالسلطة في رومة يوم تمجيده. غير أن هذا القانون أبطأ عدة شهور عن ميتلّوس الذي اضطر للإقامة خارج الحوزة Pomerium التي هي الحد الرسمي للمدينة. فقد تعرض على الاقتراح خطيب أو أكثر. ويمكن أن نفرض بأنهم ساندوا فكرة كون ميتلّوس لا حق له في التمجيد الأعظم، لأنه لم ينه الحرب ولم يعد بجيشه. فليس لنا معلومات عن هذه القضية. وكل ما نعلمه هو أن مجلسا للشعب قد انعقد لاشك خارج الحوزة، وأن ميتلّوس تحدث أثناءه في موضوع تمجيده، وأن خطابه صار نموذجا، ذكر منه النحاة بعض الفقرات. في هذا الاجتماع كان عليه أن يجيب الخطيب ك. مَنْلِيوس C. Manlius، ولعله هو الخطيب مَنْلِيوس مَنْكينوس Manlius Mancinus الذي كان قد نجح بزمن قليل من قبل في الحصول على التصويت الذي خول لماريوس قيادة الحرب ضد يوغرطة، وانتزعها بالتالي من يد ميتلّوس. ومن بين ما كان ميتلّوس يواخذ به، سلوكه تجاه بعض أهل الولاية. ونجهل بأي شيء يتعلق الأمر، غير أنه رد هذه التهجمات بتكبر.

وفي شهر ديسمبر من سنة 107، انتهت مسؤولية مَنْليوس ورفقائه، ولابد أن الاتفاق حصل بين من خلفوهم ليقع التصويت على القانون. وبذلك نال ميتّلوس يوم تمجيده في سنة 106، ولا ندري في أي تاريخ بالضبط، فنال المجد على «النوميديين وعلى الملك يوغرطة» ونال لقب «النوميدي Numidicus». ولكن كثيرا من الرومانيين ربما قالوا إن المشهد العظيم ينقصه شخص هو الملك يسير أمام عربة الغالب.

## الكتـاب الثاني

# رومة والملوك الأفارقة

## الفصل الرابع

# معارك مارْيوس، ونهاية الحرب

### 1

في سنة 109 أظهر مارْيوس مقدرة نادرة المثال. ففي كل مكان، في الحركات والحملات التي جرت بأرض العدوّ، في معركة موثول، وفي الهجوم على زاما، كان لميتلّوس أكثر المساعدين جدوى، بل إنه كان شريكا أكثر منه مساعدا. ولطموحه الكبير، فإنه كان يتمنى بشدة منصب القنصلية الذي يظهر أن وضاعة أصله كانت تنحيه عنه. وكانت خمس سنين بالتقريب قد مرت منذ أن زاول منصب بريطور. وهي مدة تظهر طويلة في عين شخص من أمثال ميتِلّوس.

ففكر في أن يرشح نفسه بمجرد ما تنتهي الحملة، ويكون الجيش الروماني قد عاد لمعسكرات الشتاء بولاية إفريقيا. ونظرا لتصديقه بالوهميات، فإن إرهاصا سعيدا قد شجعه في متمنياته على ما يظهر. ذلك أنه كان ذات يوم بأوتيكا يقدم قربانا، فأخبره العرّاف بعدما فحص الضحية بأنه سيكون له مستقبل رفيع.

لم يعد بإمكانه أن يترشح لسنة 108، لأن الانتخابات تجري في الخريف. ولكنه أراد أن يأخذ متسعا من الوقت يضمن له النجاح في سنة 107، ولذلك طلب، منذ فصل الشتاء، من القائد عطلة بقصد العودة إلى رومة. ومع أن ميتلِّوس كان يقدر قيمة مساعده حق قدرها، فإنه وهو النبيل المتشبت بنبله، رأى أن الطلب غير لائق، ونصح مارْيوس بكلام ودي أن لا يعرض نفسه لإخفاق واضح. فلما لم يستطع إقناعه، وعده بالموافقة على رغبته عندما يسمح العمل بذلك – وحيث إن مارْيوس بعد ذلك أعاد الطلب وألح فيه، فإنه أجابه – على ما يحتمل – بأن وقت تطلعه لمنصب قنصل سيحل عندما يترشح له ابنه هو. وكان ابن ميتلِّوس هذا، آنذاك بالجيش، وسنّه نحو من عشرين سنة. وبهذا يلزمه أن ينتظر ثلاثا وعشرين سنة أخرى ليبلغ السن القانونية للمنصب الأعظم. فأحس مارْيوس بجرح عميق من كبرياء رئيسه وظلمه. ولكنه لم يقلع عما رسمه.

ولكي يستميل الجنود إليه، فإنه على ما يقال، تهاون بالنظام في معسكر الشتاء الذي تحت إمرته. كما أنه، أمام الفرسان وغيرهم من رجال الأعمال الموجودين بكثرة في أوتيكا، والذين من مصلحتهم عودة السلام، أكد بأنه يعتقل يوغرطة في بضعة أيام، إذا أسند إليه نصف الجنود فحسب، مؤكدا أن الأمور تطول، لأن القائد يريد أن يتمتع طويلا بقيادته.

واجتذب إلى جانبه كذلك أخا ليوغرطة، هو گاوْضا Gauda الذي كان بالجيش وأعلن عن موالاته للرومانيين، وكان مِسِبْسا قد عين گاوضا وريثا له من درجة ثانية، فكان له الحق في عرش نوميديا الذي يجب أن ينحى عنه يوغرطة، وكان يشعر كأنه ملك. ومع أنه ضعيف الجسم والعقل، فإنه لم يكن قليل الكبرياء. ولكن ميتلِّوس أهانه. فقد طلب

گاوضا أن يقعد بجانب القنصل في المناسبات العظيمة، وأن يكون رهن إشارته كوكبة من الخيالة الرومانيين يحرسونه ويواكبونه. غير أن ميتِلّوس رفض له القعود بجانبه لأن هذا الشرف لا يسمح به إلا للملوك الذين يعترف بهم الشعب الروماني رسميا، ورفض له الحراسة، لأن من الإهانة للرومانيين أن يكونوا تبعا لنوميدي. بل إنه – حسب ما يرويه ديون كاسْيوس Dion Cassius – رفض لِگاوْضا أن يجعل تحت إمرته حتى الأهالي الذين فروا من جيش يوغرطة. فداخل مارْيوس هذا الأمير، ذا العقل الضعيف ووسوس له بأنه إذا خلف هو ميتِلّوس وأسند إليه تسيير الحرب، فإن يوغرطة سريعا ما يُؤْسَر أو يقتل، وفي الحين ينال گاوْضا مملكة أجداده.

هذه الدسائس، ومعها لاشك الغضب الذي أحدثه طول مدة الحرب بين الجنود، كما أحدثها في أوتيكا، كل ذلك كان له صداه في رومة، لأن گاوضا والفرسان والتجار والجنود كانوا يبعثون إلى أصدقائهم برسائل يتشكون فيها الكيفية التي يسير بها ميتِلّوس الحرب، ويطلبون أن يصبح مارْيوس قنصلا، وأن يكلف بالقيادة في إفريقيا.

وليس هناك من شك في أن ميتِلّوس قد علم بهذه الدسائس التي لابد أنها أحنقته على نائبه. ثم إن الحدة التي استعملها مارْيوس حينما ألحّ في وجوب الحكم على تورْبيلْيوس بعد قضية ڤاگا، قد عكرت ما بينهما، إذا صدقنا ما يرويه بلوتارك. وعلى كل حال، لم يعد بين الرجلين لا صداقة ولا ثقة. ومع ذلك فإن ميتِلّوس – رغما عن إلحاح مارْيوس من جديد – قد أبقاه بجانبه مدة من عدة شهور. ولاشك أنه لم يرد أن يبعث إلى رومة برجل كان ينتظر هجماته كما كان يخشى من نجاحه. وقد سبق سالوست الأحداث، حينما تحدث عن ذهاب مارْيوس وانتخابه

لمنصب قنصل قبل أن يذكر الأحداث العسكرية التي جرت سنة 108. والواقع أن هذا الذهاب سبق بقليل الانتخابات التي لابد أنها جرت في الخريف حسبما تقتضيه العادة.

وما هي المهمات التي أسندها القنصل لمارْيوس أثناء حملته الثانية ؟ إننا نجهل ذلك. ويمكن أن نفرض أنه أبقاه كالمغضوب عليه، يتجنب أن يعطيه الفرصة للزيادة في شهرته، ويحتمل أنه لم يصحبه معه في الحملة على تْهالة.

كان مارْيوس طبعا على اتصال بأصدقائه في رومة. فاستطاع أن يعرف تاريخ الانتخابات قبل أن يعلن عنها رسميا. (سبعة عشر يوما على الأقل قبل اجتماع المجالس). وأخيرا حصل على الإذن بالذهاب بإثنى عشر يوما قبل هذه الانتخابات، وكان آنذاك في قلب نوميديا. ورغما عن سرعته الفائقة، فقد كان لابد له من يومين وليلة للوصول إلى أوتيكا، ومنها أبحر. وبعد أربعة أيام وصل إلى إيطاليا.

وقاده أحد النقباء إلى مجلس شعبي، فانتقد ميتِلّوس بشدة، ووعد بأنه إن أحرز على القيادة أن يقبض على يوغرطة حيا أو ميتا. وقد ساعده على الانتصار الرسائل الواردة من إفريقيا والاضطراب الذي حث عليه النقباء المعادون للنبلاء. فصوّت عليه الناس في غمرة من الحماس الحقيقي.

غير أن مجلس الشيوخ، طبقا للقانون قد عين، قبل اجتماع مجالس «الكوميس»، الولايتين اللتين ستسندان إلى القنصلين المقبلين، ولم تكن نوميديا من بين هاتين الولايتين، فكانت ستبقى لميتِلّوس الذي قد يمدد عمله من جديد عند بداية السنة الموالية. وذلك ما لم يكن بمستطاع

ماريوس وأنصاره أن يقبلوه، لأن انتخابه للقنصلية، حسب الأحوال التي جرى فيها، كان يوجب إرساله إلى نوميديا على رأس الجيش. فطلب أحد النقباء، وهو مانْليوس مانْكينوس Manlius Mancius من الشعب أن يعين طبقا لإرادته الشخص الذي سيحارب يوغرطة، فاتجهت أكثرية الأصوات إلى ماريوس. ويظهر جيدا من نتائج الاستفتاء أنه لم يكلف كسابقيه بولاية نوميديا لمدة قنصليته فحسب، بل كلف بالحرب ضد يوغرطة من غير تحديد للزمن، وبالتالي إلى أن تنتهي هذه الحرب. فلم يكن إذن بحاجة لأن يمدد عمله في سنة 106 لما انتهت قنصليته، ولا في السنة التي تلتها.

وكذلك فالاستفتاء الذي اقترحه النقيب مانْليوس، لم يقع عليه التصويت مباشرة عقب الانتخاب، ولم يكن ذلك ممكنا، نظرا للمدة الواجبة لتقديمه (سبعة عشر يوما على الأقل). ونحن نجهل هل هناك أسباب أخرى أخّرته، وهل جرى التصويت قبل أو بعد فاتح يناير 107، أي يومَ بدأ ماريوس في مزاولة مهامه. فإذا كان التصويت جرى بعد هذا اليوم أمكننا أن نفرض أن مجلس الشيوخ قد مدد في بداية السنة عمل ميتلّوس، وهو القرار الذي يظهر أن الاستفتاء قد ألغاه عمليا.

وسواء كان هذا القرار قد صدر أم لا، فإن ماريوس كان يعلم جيدا أن الكثير من أعضاء مجلس الشيوخ يعادونه. وإذ أصبح رجل الحزب الديمقراطي، إن لم نقل رئيس هذا الحزب، فإنه صار لا يعتبر النبلاء، ويفخر أنه بأخلاقه البسيطة المتينة، وبأعماله وخدماته وتجربته العسكرية يعارض حياتهم في الكسل والمجون، وعدم كفاءتهم، وكبريائهم.

على أن عمله كان أكثر من كلامه، إذ كان يعمل بنشاط في تهيئ الحرب التي سيقودها، فطلب المزيد من الرجال للفيالق، وطلب الجنود

من الإيطاليين ومن الملوك والشعوب الحليفة، وحشد من بين اللاتانيين أحسن الجنود الذين سبق لكثير منهم أن كانوا رفقاءه في الحرب، كما حثَّ قدماء المحاربين على العودة للجيش للسير معه. أما مجلس الشيوخ، فإنه بالرغم عن كراهيته للقنصل لم يكن يستطيع أن يرفض له أي شيء، بل إنه قد أعطاه – وبفرح – الزيادة في عدد الجنود للفيالق، مؤملاً أن فرض العمل العسكري سيقلل من ميل الشعب نحو ماريْوس. غير أنه أخطأ في حسابه لشدة حماس الجماهير، وأملها في انتصار سريع، ورغبتها في المشاركة في نيل الغنائم.

على أن ماريْوس قد تخلى في جمع الجنود عن حشدهم بالقوة، وعن القاعدة التي كانت، في حالة عدم وجود خطر شديد، تنحّي عن الجيش المواطنين الذين لا يملكون شيئا أو لايكادون يملكونه. فلم يقبل إلا المتطوعين. وكان قبولهم من غير نظر لأحوالهم المالية. ومن الطبيعي أنهم كانوا على الخصوص أناسا من الفقراء أو المعدمين بروما، الذين يتطلعون لما سيجنونه من المنافع من الخدمة العسكرية. «وقد عزا بعض الناس – كما قال سالوست – قرار ماريْوس إلى قلة عدد المواطنين ممن لهم شأن. وعزاه آخرون إلى الاحتيال في الطموح لدى القنصل الذي يدين لمثل هؤلاء الناس بشهرته ورفعته، والذي يعلم أن كل من تطلع للحكم وجد في أشد الناس فقراً أحسن أنصاره. فهؤلاء، إذ لم يكن لديهم ما يضيعونه، فليس لهم ما يحافظون عليه، وكل ما جلب لهم نفعا كان صالحا في نظرهم».

وربما كان من غير الصحيح أن يقال إن ماريْوس ما كان ليستطيع جمع العدد الذي كان يحتاجه من الجنود للفيالق – وهو 20.000 على وجه التقريب – لَوْ أنه لجأ إلى طريقة الحشد المعمول بها آنذاك. ولكن

الصحيح جدا هو أن المواطنين الأغنياء والميسورين لم يكن يهمهم أن يتركوا بيوتهم للذهاب للحرب في أمكنة بعيدة، وكانت أمنيتهم العظيمة هي العودة إلى منازلهم في أسرع ما يمكن. فلم يكن إذن في هذه الحالة الفكرية ما يجعل منهم جنودا صالحين. ولم يكن مارْيوس مخطئا لمّا فضل عليهم الأشخاص الذين كانت تروقهم العسكرية ويستطيع أن يمسكهم في قبضته. فهل فكر منذ ذلك الحين في أن يكوّن لنفسه أتباعا عسكريين يمكن أن يساعدوه على تحقيق أسمى المطامح السياسية ؟ ليس ذلك مستحيلا، ولكنه أيضا ليس متأكدا، فبعض الأسباب العسكرية يمكن أن تكفي لتفسير سلوكه. وعلى كل حال، فإن هذه الطريقة الجديدة في حشد الجنود سيكون لها على الدولة الرومانية نتائج مهمة جدا، كثر الكلام في شأنها. وهي تكوين الجيوش المحترفة التي لها خبرة بالحرب وإقبال عليها، والتي مكنت من الفتوح الواسعة في الشرق والغرب، وكذلك الفصل بين الحياة المدنية والحياة العسكرية، ثم المساندة التي تخولها الجنود - دون أي اعتبار للمشروعية - لبعض القادة الطامعين في الحكم، وللجنود تعلقُ شخصي بهم وينتظرون منهم المكافآت الواسعة.

ولم يجد مارْيوس صعوبة في العثور على المتطوعين، بل إنه حشد من الرجال أكثر مما سمح له به قرار مجلس الشيوخ.

قدم مارْيوس بين يديه إلى إفريقيا أحد مفوضيه Legat وهو أ. مانْليوس A. Manlius الذي نقل إليها المؤن وأموال الجرايات والأسلحة وغير ذلك مما يلزم للحرب. ولما أنهى التجنيد والاستعدادات التي استلزمت عدة شهور، ذهب بنفسه مع جيوشه الجديدة ونزل في أوتيكا بعد أن عبر البحر في سلام. وقد قلنا إن المفوض روتيليوس Rutilius سلّم إليه الجيش القديم، في ناحية سِرْتا Cirta على ما يحتمل. ولاشك أن

ذلك حدث عند نهاية الربيع. ثم لزم على مارْيوس أن يمكث بنوميديا نحواً من سنتين ونصف. ولاشك أن القوات التي تحت إمرته قد كانت مهمة جدا، ولكن يستحيل ذكر عدد لها ولو بالتقريب. لقد قيل لنا إن مارْيوس قد ضخّم الفيالق برفع عدد جنودها إلى 6200 رجل. (ومن قبل كان العدد 4200 من المشاة في الأوقات الاعتيادية). ولسنا ندري متى اتخذ هذا القرار، ولعل ذلك كان في حرب يوغرطة، أثناء قنصليته الأولى، حيث لم يكن الجنود يعوزونه لتكثير إطاراته. وربما لم يحدث ذلك إلا من بعد.

ولا داعي لأن نردّ إلى العهد الذي كان فيه مارْيوس على رأس القيادة بنوميديا، تلك الاصطلاحات العميقة التي أدخلت على نظام الفيلق، والتي عُزيت إليه باحتمال كثير، ولكنها ربما تؤرخ بعهد الحرب ضد التوتونيين Teutons والسمْبريين Cimbres. هذه الاصطلاحات هي: إلغاء الجيوش الخفيفة المسماة باسم الڤيليت Vélites، وتوحيد السلاح لجميع جنود الفيالق، والتخلي عن نظام المعركة الذي كان من ثلاثة صفوف تتكون من الهَسْتاتي Hastati، والبرنْسِبِس Principes والترِيَريّي Triarii، والتعويض عن الكتيبة Manipule التي كانت من 120 أو 60 رجلا بالفرقة Cohorte من 600 رجل، كوحدة تكتيكية، (الأمر الذي أعطى للجيوش تلاحما أكثر، وشدة في المقاومة، وقوة شديدة عند الهجوم). وقد ذكر الڤيليت Vélites أثناء حرب يوغرطة في جيش مارْيوس وفي جيش ميتِلّوس، كما ذكر تنظيم المعركة بطريقة الكتائب. ومع ذلك فالفرقة، وهي تشمل ثلاث كتائب، يمكن منذ ذلك الوقت أن تكون قد نظمت كوحدة تكتيكية محل الكتيبة في بعض الأحيان. ولكن يظهر أن هذا التنظيم الاستثنائي لم يكن من ابتكار مارْيوس، لأن سالوست يشير إليه بمناسبة معركة موثول Muthul التي خاضها ميتِلّوس. وهناك علامات تمكّن من الرجوع بهذا النظام لعهد أبعد. نعم إن مارْيوس هو

الذي كان أعطى لكل فيلق عقابا. غير أن ذلك إنما كان سنة 104، وهو على القيادة ببلاد الغالة La Gaule .

وأخيرا لا يظهر أنه في نوميديا سلك بالحرب مسالك مخالفة للنهج الذي سار عليه ميتِلّوس، الذي قسا عليه مارْيوس.

ويمكننا أن نفرض إذا أردنا - والأمر ليس سوى مجرد فرض - أنه ابتكر طريقة تخفف عن الجنود حمل طعامهم وغير ذلك من الأشياء التي يجب أن يحملوها معهم، بحيث كان الكل يُحزم ويُثبت في رأس شيء كالمِذْرى تسند على الأكتاف. فكان الرجال، وهم هكذا يحملون أثقالهم، يدعون على وجه المزاح باسم بِغَال مارْيوس. والاهتمام بتخفيف ثقل الأحمال يمكن أن يبرَّر في إفريقيا أكثر من أي جهة أخرى، إذ الحرارة تجعل السير صعبا، والأحوال الحربية مع ذلك توجب السرعة في السير والسهولة في الحركات.

## 2

عندما سمع الملكان الموريطاني والنوميدي بخبر قدوم مارْيوس انسحب كل منهما على حدة إلى جهات يصعب الوصول إليها. وكان يوغرطة لا يرى من المناسب خوض المعركة، بل يفضل أن ينتظر الرومانيين حتى يطمئنوا فيتفرقوا، وإذ ذاك ينقض عليهم بضربات مفاجئة.

أما القنصل فإنه بعدما أكمل الفيالق والفرق المساعدة تقدم للمعركة. وهنا يجب أن نكتفي بالمعلومات السريعة والغامضة التي أوردها سالوست، قال : «إن مارْيوس اتجه إلى ناحية خصبة، حيث غنم الجنود غنائم كثيرة، فتخلى لهم عنها كليا. ثم هاجم المدن والقرى الموجودة بمواقع غير حصينة أو كانت ضعيفة المقاومة، وخاض هنا

وهناك كثيرا من المعارك التي لا أهمية لها في الواقع». إذن فهو بهذا قد كان يدرب الجنود الجدد الذين لم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا يعادلون القدماء.

ولعلمه جيدا بما ينتظره من جانب يوغرطة وبوكوس، فإنه كان يراقبهما مراقبة دقيقة، وكان من جانبه لا يهمل أن يتخذ أي احتياط. فبعض جيوشه يمكنها عند الحاجة أن تكون سريعة التنقل مثل العدوّ. وقد كان الجيتوليون الذين انخرطوا في جيش الملك النوميدي، كما كان يوغرطة نفسه، يقومون بغزوات في الأراضي الخاضعة للرومانيين، ولكن حدث أكثر من مرة أنهم هوجموا أثناء عودتهم وأرغموا على الفرار والتخلي عن غنائمهم. بل إن ماريْوس قد دحر يوغرطة نفسه في معركة أكثر جدية حدثت غير بعيد عن سرتا. أما بوكوس فكان يلتزم الهدوء، ولعله لم يلبث أن عاد لأراضيه. وقد بعث إلى القنصل عدة رسائل يؤكد أنه يريد صداقة الشعب الروماني، وليس هناك ما يخشى منه. فهل كان تفكيره المضطرب يميل إلى السلام ؟ أو كان حيلة يستنيم بها يقظة ماريْوس ؟ إن سالوست يصرح بأنه لا يدري.

وخلال ذلك، كان الزمان يمر، وماريْوس لم يحرز إلا على انتصارات ثانوية لا تستجيب للآمال التي أنعشتها في رومة شهرته ووعوده. فأراد – كما فعل ميتلّوس من قبل – أن يعجل بالحل، وذلك بمهاجمة المدن التي لها بعض الأهمية، بحيث إن يوغرطة إذا تركها تسقط، فإنه يضعف كثيرا، ويفقد أحسن نقط سنده، وإن حدث العكس فإنه ملزم بقبول المعركة.

واستطاع القنصل أن يستولي على عدد من المدن والقرى المحصنة، إما باستعماله للقوة وإما بالتهديد أو الوعود. ولكن يوغرطة لم

يظهر للدفاع عنها. بل قد وصلت الأخبار بأنه كان بعيدا أو مشغولا بمسائل أخرى[1]. فقرر مارْيوس إذن أن يزحف على كَبْسا، وكانت هي العملية العسكرية الوحيدة في سنة 107 ق.م التي ذكرها سالوست بتفصيل[2].

لقد ذكرنا الأسباب التي جعلت كَبْسا (وهي اليوم قَفْصة بالجنوب التونسي) تصبح مدينة كبيرة. فوجودها في منطقة جافة لا نبات فيها، وتكاد تكون صحراء، قد جعلها ملتقىً لطرق طبيعية، كما أن كثرة مياه العيون قد مكنت من تجميع كثير من السكان وإنشاء واحة. ولم تكن المدينة محمية بالفيافي الواسعة التي تحيط بها فحسب، بل وبأسوار متينة كذلك، وكان السكان يُبدون تعلقهم بيوغرطة الذي أعفاهم من الضرائب[3].

كان يبدو أن العمل الذي يحاوله مارْيوس صعب. فالصيف يقترب من نهايته. وليس بمستطاع الرومانيين أن يجدوا في بوادي نوميديا القمح ليأخذوه، لأن الفلاحين نقلوا بأمر من يوغرطة كل الحاصلات إلى أماكن حصينة، وكذلك المياه، فهي أقل من أي فصل آخر من السنة.

ومع ذلك، فإن مارْيوس كان يفهم أنه يجب أن لا ينهي هذه الحملة من غير عمل عظيم يخلف أثرا. فالمسألة تتعلق بنفوذه بين أفراد الجيش وبين الأفارقة والشعب الروماني. وهو باستيلائه على كبسا، هذه المدينة البعيدة التي تبدو بحكم موقعها عسيرة وممتنعة، هذه المدينة الشهيرة التي قيل أن هرَقْل قد أسسها، سينسي الناس أمجاد ميتِلّوس فاتح تْهالة، لأن موقع إحدى المدينتين يشبه موقع الأخرى، كما قال سالوست[4] كما أنه سيبين للجيتوليين الذين يحشد يوغرطة الآن من

بينهم أحسن جنوده، أنه لا يخشى أن يقتحم براريهم الموحشة ليصل إلى سوق كبيرة من أسواقهم وأن يهدمها.

لم يذكر كاتبنا من أين ذهب مارْيوس. ولكن يمكن أن نقبل - حسب الوارد عن مسيرة القنصل - أنه كان على بعد نحو من 250 كيلومترا من كَبْسا. وتقديماً منّا لإحدى وجهات النظر، نفرض أنه كان آنذاك يوجد بين سِرْتا وسيكا عند ماضور Madaure. وأمر مساعده أ. مانْلِيوس A.Manlius أن يذهب مع بعض الفرق المسلحة بسلاح خفيف إلى مدينة لَريسْ Laris حيث كان له خزينة للأموال والمؤن، وأعلن أنه بعد أيام قليلة سيلحق به، بعد أن يقوم بجولة للنهب. أما هذه المدينة، فلاشك أنها هي التي ذكرتها الوثائق المتأخرة باسم لاَرِس Lares او لارْبوس Larbeus، والتي توجد خرائبها (هي هَنْشير لَرْبوس Henchir Lorbeus) على بعد 18 كيلومترا بالجنوب الشرقي من سِيكا (التي هي الكاف). وهكذا كان مارْيوس يكتم نواياه الحقيقية التي لم يكشف عنها لأحد. ولعله كان يريد أن يوهم الناس أنه سيقترب من الولاية الرومانية، مادامت الحملة قد انتهت. وتبعا لذلك فسيتجه خلف مانليوس من الغرب إلى الشرق، بينما أخذ وجهة أخرى هي الجنوب الشرقي على ما يحتمل.

فقد جمع المؤن التي مكنته الظروف من جمعها، وعلى الخصوص الماشية التي كلف بها الفرسان المساعدين. وبعد أن تجهز أخذ في السير، وفي اليوم السادس - أي بعد أن قطع نحوا من 150 كيلومترا بلغ نهر تَنَايس Tanaï.

هذا النهر الذي مكّن في نهاية الصيف من تزويد عدة آلاف من الرجال بالماء، لم يشر لوجوده بغير هذا المكان. فلابد أنه كان على نحو من 100 كيلومتر من كبسا. لأن الجنود الرومانيين لما غادروا

تنايس وساروا بخطى حثيثة، قضوا ليلتين كاملتين في نهاية الصيف وقسما من الليلة الثالثة كي يقتربوا مباشرة من المدينة. فيحتمل أن هذا النهر - كما أوضح ذلك تيسو Tissot - هو وادي الدّرْب Oued ed-derb الدائم الجريان، والذي يمر على هذه المسافة بمشال قَفْصة.

وأثناء السير إلى النهر، كان ماريْوس يوزع كل يوم على جنوده الماشية اللازمة لطعامهم، ويأمرهم أن يصنعوا من جلودها قربات تصلح لحمل الماء. وعند تَنَايْس أقام معسكرا صانه بتحصين خفيف، وترك به أمتعته، ثم عاد إلى السير مع مغيب الشمس. وكان الرجال - وكذلك الدواب - لا يحملون سوى الماء الذي أخذ من النهر. وبعد سير الليل كله توقف في النهار. وكذلك فعل في الليل والنهار الموالِيين. وفي الليلة الثالثة بلغ قبل الفجر بكثير إلى مرتفع لا يفصله عن كَبْسا سوى ميلَيْن، وهناك أخفى جنوده بأكثر ما استطاع وانتظر.

ولحسن الحظ مع كثير من الغرابة فقد بقي مجهولاً في كَبْسا زحفُ الجيش الروماني (الذي أصبحت غايته لاشك فيها ابتداء من تنايس)، ووجودُه كذلك قرب أسوار المدينة. وكان يكفي فارس واحد لينذر بالخطر.

والحق أن ماريْوس قد جازف كثيرا عندما حاول هذه الأمنية، لأنه لم يكن لديه، لا الوسائل ولا الزمن الكافي للقيام بحصار حسب القواعد.

وعند شروق الشمس خرج من المدينة عدد كبير من سكانها، وهم لا يشكون في شيء. وكانوا - حسبما يمكن أن يظن - من هؤلاء الأشخاص الذين يذهبون للعمل في البساتين كما جرت العادة. فأمر القنصل جميع الخيالة وأسرع المشاة بالعَدْو إلى كبسا والاستيلاء على

أبوابها، وتبعهم بنفسه مسرعا، وهو يمنع جنوده من تضييع الوقت في النهب. فبوغت أهل المدينة، وأصابهم الذعر، ورأوا أن بعض ذويهم المنتشرين خارج الأسوار قد وقعوا في قبضة العدوّ، فأرغموا على الاستسلام. أما مارْيوس فلم يفقد أي واحد من جنوده.

فأمر بإحراق المدينة وتقتيل كل من كان في سن حمل السلاح، وبيع من بقي من السكان. ووزعت الغنائم بين الجنود. وقد كان هذا العمل – كما ذكر سالوست – خرقا لقوانين الحرب. لكن الرومانيين ما كانوا ليعيروا أي اهتمام لمدينة شديدة البعد عن قواعدهم، كما كان يجب منع يوغرطة من استخدامها. وعلى الخصوص، كان لابد من العمل بهذه الكيفية ليكون لهذه الوقعة صدى بالغ، وحتى تظهر وكأنها وَقْع الصاعقة المدمرة، تضرب بأعلى من قوة الإنسان. ويظهر أن مارْيوس في هذا الجانب قد حصل على النتائج التي كان يتمناها من إشاعة الذعر في نوميديا واطمئنان جنوده إليه، ومودتهم له، وزيادة شهرته في رومة.

## 3

نسي سالوست أن يذكر أن فصل شتاء قد مر بين الحملة على كَبْسا والحملة على مُلوكا التي سنتحدث عنها. ونحن لا ندري في أي جهة عسكرت جيوش مارْيوس في الشهور التي لم تخض فيها المعركة. فيحتمل أنه بعد ما احتل كَبْسا بقليل من الزمن، أوقف العمليات في أوائل فصل الشتاء، وأنه لم يعاودها إلا في الربيع، وكان ذلك بصفته بروقنصلا، لا كقنصل، لأنه غادر منصب القنصل في نهاية سنة 107. فهناك بعض الجُمْل المبهمة وردت في «حرب يوغرطة» Bellum Iugurthinum يمكن أن ترجع إلى كل من هاتين الحقبتين اللتين

تبعد إحداهما عن الأخرى بعدة شهور من التشْتِية. وهي قول سالوست : «إن القنصل[5]، شجعه نجاحه في حملته، فاتجه إلى مدن أخرى، فاحتل منها البعض الذي دافع عنه النوميديون، وأحرق كثيرا غيرها مما هجره السكان بسبب ما لحق بكبسا. فحل الحزن والتقتيل في كل مكان. وهكذا استولى على عدد من المواقع، ومن غير أن يفقد – في أغلب الأحيان – جنودا[6]». ثم يقدم سالوست مارْيوس متجها لفتح معقل قريب من نهر مُلوكا Mulucha، وهي عملية عرضها علينا بتفصيل.

إن مُلوكا هي نهر مَلْوِية بالشمال الشرقي من المغرب بعيدا جدا عن الأماكن التي حارب فيها الرومانيون وقضوا الشتاء حتى ذلك الحين. فإذا فرضنا أن مارْيوس عسكر للشتاء سنة 107-106 في ناحية سرِتْا، (كما فعل ميتلّوس قبل ذلك سنة 108-107) كان لزاما عليه أن يقطع 800 كيلومتر ليبلغ نهر مَلْوِية. فلابد أن نسلّم أن هذا العمل لم يكن مجرد جولة عسكرية واسعة. فقد كان يخترق أراضي لم يسبق له أن أخضعها، ولاشك أن المقاومة واجهته وأخضعها، ولابد أيضا أنه توقف أكثر من مرة ليكوّن نُقطاً للسنَد ومراكز للتموين وأخرى للمحافظة على مواصلاته مع نوميديا الشرقية والولاية الرومانية. ويظهر أنه بعد الاستيلاء على معقل مُلوكا لم يسرع بالعودة إلى ناحية سرِتْا التي كان ينوي قضاء الشتاء بها. والواقع أن وقتا كافيا كان لابد أن يمر ما بين حصار المعقل، وهذا الحصار الذي ورد على الجيش أثناءه سولا Sylla الذي لم تكن له خبرة بشؤون الحرب، وبين معركة جرت على بعد بضعة أيام غربي سرتا ونال فيها سولا نفسه قيادة مهمة جدا، أي أنه استطاع خلال هذه المدة أن يصبح ضابطا مقتدرا. فالحملة إذن استمرت عدة شهور ملأت أكبر قسم من حملة سنة 106، بل لعلها استغرقت الحملة كلها. وسالوست كعادته لم يقصّ منها إلا قسما اتسم بهذا الظهور المبالغ فيه.

ورغما عما يقوله كاتبنا، لم يكن حب الاستيلاء على كنوز يوغرطة الموضوعة بالمعقل، هو وحده الذي قاد ماريوس حتى مُلوكا. بل من المستحسن - بعد ان ابتلى نوميديا الشرقية بقوة الأسلحة الرومانية - أن يهدد بها نوميديا الغربية، هذه التي كانت طوال عدة سنين هي كل مملكة يوغرطة، وذلك حين وجب أن يقتسم ميراث مِسِبْسا مع آذربَعْل. ولاشك أيضا أن ماريوس أراد أن يلقن درسا لبوكوس.

لقد رأينا أن ملك موريطانيا قد انضم إلى صهره منذ سنة 108، وأنه مع ذلك لم يقرر الدخول في الحرب ضد الرومانيين. ولم يجعل سالوست وقوع وعد يوغرطة لبوكوس بأن يتنازل له عن ثلث نوميديا إلا بعد انتهاء حملة مُلوكا. وهذا التنازل الموعود سيكون إذا وقع طرد الرومانيين من افريقيا أو - على الأقل - إذا انتهت الحرب وأراضيه غير منقوصة[7].

ولكن يحسن الاعتقاد - كما سبق أن أشرنا - بأن هذا الوعد قد حدث من قبل. فبوكوس لم يكن من قبل على وفاق مع يوغرطة. ولكي يصبح له حليفا، كان لابد أنه منى نفسه بفوائد عظيمة يجنيها من هذا التحول. ولابد ان الاتفاق الذي وقع بين الملكين قد عرفه ماريوس. ويحتمل أن يكون بوكوس قد احتال حتى أخبره به. غير أن رومة ما كانت لتقبل أن يوغرطة عدوها يتصرف هكذا في قسم مهم من مملكة تدّعي أنها وهبتها فيما مضى لمسنيسّا، وتلتزم فيها بالتمسك بنوع من الحق السامي للتملك. فيجوز أن نفرض أن ماريوس أراد الوصول لأقاصي نوميديا، حتى الحدود الحققية لأراضي بوكوس، وذلك ليفهم الموري أن الجمهورية لا تتنازل مطلقا عن هذا الحق، وأنها قادرة على صون حقها بالسلاح.

ولنعد إلى معركة المعقل. يقول سالوست[8] : «غير بعيد من مُلوكا، يقوم وسط أرض مستوية جبل صخري، جوانبه جروف تنزل عموديا، وبقمته فسحة كافية لقلعة صغيرة، ويصعد إليه من طريق واحدة تحيط بها المهاوي، كما أن عين ماء توجد بهذا المكان الذي امر يوغرطة أن تنقل إليه مؤن كثيرة من القمح، وخزن به مقادير ضخمة من المال. ويقوم على حمايته رجال عديدون، ومسلحون جيدا، وقد أقيم سور من جهة الطريق، أما المنحدرات الوعرة فليس هناك داع لإقامة سور يمتد فوقها».

إننا لن نحاول - بهذه المعطيات - أن نجد مكان هذا المعقل الممتاز، لأن إفريقيا يوجد بها كثير من الموائد الصخرية التي ينطبق عليها وصف المؤرخ، وليس قوله : «غير بعيد من نهر ملوكا» هو الذي يساعدنا على الاختيار، لأن سالوست يستعمل هذه الألفاظ مع توسع كثير.

لم تكن مجهودات مارْيوس للاستيلاء على هذا المعقل مجدية في أول الأمر. وإقامة المنشآت للدنوّ منه لم تكن ممكنة إلا في الطريق المؤدية إليه، غير أن المحصورين به كانوا لا يجدون صعوبة في تخريب هذه المنشآت بإحراقها أو بتحطيمها بالحجارة. وبعد عدة أيام من المحاولات غير المجدية، أخذ مارْيوس يتساءل بقلق هل يجب أن يتخلى عن عمليته؟ ولكن الحظ أقبل عليه ليساعده.

كان أحد الليغوريين - وهو جندي بسيط في إحدى الفرق المساعدة - قد خرج من المعسكر ليبحث عن الماء، فرأى حلزونات على الصخور بأسفل المعقل من الجهة الخلفية التي تجري المعركة عندها. فجمع هذه الحلزونات، وتسلق شيئا فشيئا ليعثر على غيرها، وهكذا حتى كاد يبلغ لقمة الجبل. وهناك وجد نفسه منفردا، فسوّلت له نفسه أن

يتمادى في الصعود، وذلك ليرضي فضوله، لا ليستمر في جمع الحلزونات. وبعد تسلق صعب بلغ إلى حافة الساحة التي يحتلها النوميديون. ونظرا لأن المعركة استولت على انتباههم، فإن رجلنا هذا استطاع أن يأخذ على مهل كل الملاحظات التي اعتبرها مفيدة، ثم نزل. ولم يكن نزوله عفواً كما صعد، بل نزل وهو يتأمل جيدا الطريق التي يسلكها. وفي الغد ضم إليه خمسة رجال خفاف اختيروا من بين نافخي الأبواق، كما أخذ أربعة من الجنود الذين عوضوا عن سلاحهم الثقيل المدوي بترس إفريقية من جلد وبسيف مشدودين على الظهر، وكان الليغوري يقودهم ويساعدهم في الممرات الخطيرة حتى أنهت الجماعة الصغيرة صعودها الشاق الخطير. وكان سطح الجبل من هذه الجهة خاليا، لأن جميع النوميديين كانوا، مثلما فعلوا في اليوم السابق، قد حولوا وجوههم نحو المحاصرين لهم.

وعاد إلى مارْيوس الأشخاصُ الذين كُلّفوا بمراقبة الليغوري ورفقائه، وأخبروه بنجاح عملية الصعود. وإذ ذاك ارتمى القائد بنفسه وسط الخطر، وأمر جيوشه أن تتقدم وتكوّن السلحفاة[9]، بينما الآلات ورماة السهام والمقلاعيون يرمون العدو من بعيد بوابل من القذائف. وكان الأعداء الذين شجعهم نجاحهم السابق يقفون عند السور ويشتمون مارْيوس وجنوده، وعلى حين غرة صاحت الأبواق من خلفهم، فحدث ذعر أصاب المتفرجين في المعركة من النساء والأطفال، ثم أصاب المدافعين أنفسهم. وشدد الرومانيون في هجومهم بقوة فمروا على الجرحى والقتلى حتى بلغوا السور، واستولوا على القلعة بالقوة[10].

وأثناء هذا الحصار قدم على المعسكر ل. كُرْنيلْيوس سولا L.Cornelius Sylla الذي سيصبح من بعد دكتاتورا. وكان في سنة 108

قد انتخب متصرفا ماليا Questeur في السن القانونية التي هي ثلاثون سنة، ووقع ضمه بالاقتراع إلى القنصل مارْيوس الذي تركه في إيطاليا ليحشد له الفرسان، ثم قدم بهم عليه آنذاك، وكانت سَنَته قد انتهت، فبقي مرتبطا بصفته بروقسطور Proquesteur (أي متصرفا ماليا بالنيابة) مع قنصل سنة 107 الذي أصبح هو أيضا بروقنصل.

قضى سولا Sylla حياة الشباب في لهو ودعة، وإن كانت الملاذ لم تفقده لا قوته البدنية ولا طموحه للمجد. وكان أرستقراطيا ينتمي لأسرة بَطْريسية Patricienne تدهورت من بعد، كما كان ذا هيئة حسنة وفكر مثقف. ومع ذلك لم يكن يظهر الكبرياء. وسرعان ما عرف كيف يجذب إليه الجنود الذين كان يحادثهم، ويمزح معهم بلطف، بل ويساعدهم عن طواعية بأمواله. ولم يلبث نظرا لذكائه ونشاطه أن نال الخبرة العسكرية التي كانت تنقصه. وكذلك فإن تودده، وما كان يبديه من الجرأة قد ساعداه على أن ينال سلطة حقيقية. ويقال إن مارْيوس أبدى أسفه على أن الحظ فرض عليه متصرفا ماليا اشتهر بالمجون. لكنه غير رأيه فيه لما رآه في ميدان العمل، فخوله كل ثقته، وصار سولا مساعدا ممتازا للبروقنصل. ثم إن كياسته وذلاقة حديثه، والمهارة التي كان يستعملها عند الحاجة في إخفاء نواياه، كل ذلك جعل منه أيضا دبلوماسيا ماهرا. وأضاف سولا لهذه المحامد إيمانا عميقا بحظه الزاهر الذي كان يصدق بمواتاته ولا يتوانى عن فعل كل ما يحققه. وكانت كبرياؤه كذلك تختفي خلف أعمال لطيفة، إذ كان يتحاشى شتم الغير، ويؤدي من الخدمات أكثر مما يود من الغير أن يؤديها له، ويظهر أنه لا يهتم بالمال، وإن كان ذلك لم يمنعه من أن يصحب معه من إفريقيا ثروة طائلة بعد سنة واحدة من الإقامة بها.

## 4

وماذا فعل يوغرطة أثناء الحملة الطويلة التي قام بها مارْيوس على نوميديا الغربية ؟ إن سالوست لم يقل عن ذلك شيئا. كما لم يشر إلى حادثة نعرفها بواسطة بول أوروز Paul Orose (نقلا عن تيت ليڤ) وكذلك بواسطة ديون كاسيوس Dion Cassius، وهي أن الرومانيين أضاعوا سرتا التي لاشك أنها كانت في حوزتهم عند نهاية سنة 108، والتي يحتمل أيضا أنها كانت في حوزتهم في ربيع سنة 106، إذ من المستبعد أن يكون مارْيوس أقدم على القيام بحملته الواسعة في اتجاه الغرب لو لم تعد في قبضته هذه المدينة المهمة التي تضمن سيطرته على قسم كبير من نوميديا وتؤمن مواصلاته من جهة الولاية الرومانية. فتكون سرتا إذن – وبمقدار ما يحتمله الظن – قد انفصلت عنه طيلة صيف سنة 106، أي حينما كان بعيدا عنها جدا. وليس لدينا عن هذا الموضوع أي تفصيل. وقد كان هذا الأمر خطيرا، استلزم سرعة رجوع الجيش الروماني المفصول عن قواعده. فلما عاد مارْيوس إلى المؤخرة اتجه إلى سرتا[11]، وكان ذلك – حسب قول سالوست[12] – ليذهب بجيشه لمعسكرات الشتاء بأماكن قريبة من ساحل البحر، وعلى الخصوص ليستعيد مدينة سرتا نفسها، التي لم يذكرها سالوست.

وهناك نتيجة أخرى للحملة على نوميديا الغربية، وهي دخول بوكوس Bocchus في الحرب. لقد كانت هذه الحملة إنذارا له. ولكنها عوض أن تخيفه – كما تمنى مارْيوس لاشك – فإنها دفعت به في الأخير لأن يستجيب لرغبات يوغرطة. وهي رغبات كانت تساندها التوصيات الملحة من حاشيته التي استمالها من جديد الملك النوميدي بأمواله[13]. فجمع جيشا كثيفا، والتقى بصهره الذي كانت معه قوات من الخيالة

مكونة على الخصوص من الجيتوليين[14]، وقررا مهاجمة مارْيوس في طريقه إلى سرتا.

هنا يحكي سالوست خبر معركتين يفصل بينهما يومان، جرت الثانية منهما على بعد قريب، من سرتا، إذ لم يمر سوى ثلاثة أيام بين هذه المعركة وبين المقابلة التي سمح بها مارْيوس لمبعوثي بوكوس في سرتا التي دخلها مارْيوس في نفس اليوم أو الذي قبله أو الذي قبلهما. جرت المعركة الثانية في سهول واسعة[15]. فهي إذن قد جرت خارج الأراضي الوعرة الممتدة على أربعين كيلومترا غربي المدينة، وراء وادي الثمانية Oued Athménia، وربما جرت في ناحية «شاطُدان الرّومل» Chateaudun-du-Rhumel. فأثناء المدة المتراوحة بين المعركتين كان مارْيوس قد تقدم في أرض سهلية، كما يشهد بذلك تنظيمه لسيره في فرقة مربعة كبيرة. فهو إذن قد اخترق السهول الواسعة التي تقوم بها اليوم سْطيف، وسانْت أرْنو St-Arnaud، وناڤران Navarin، وسانت دونات St-Donat. ولعل المعركة الأولى جرت غربي سطيف. والمعطيات التي بين أيدينا بالغة في الغموض إلى حد أنه لا طائل – حسبما أرى – في البحث عن الجبلين المتقاربين اللذين أمضى الجيش الروماني الليل عليهما. ويمكن أن نفرض أن مارْيوس بعد قدومه من ناحية الغرب مر على طريق وادي شليف، ثم على طريق بَرْواغية Berrouaghia وأومال Aumale، وإنه عندما سار مع سلسلة جبال البيان، خرج إلى سهل مجانة Medjana.

وهل كان يعلم أن الملكَيْن كانا يتقدمان ليلقياه ؟ على كل حال فإن معركة قد جرت من غير أن يكون قد احتاط للزمان والمكان ليخوضها فيهما.

كان يسير في آخر النهار عندما انقض عليه بوكوس ويوغرطة ومعهما الخيالة، بينما بقي المشاة في المؤخرة بقيادة فولكس Volux ابن بوكوس. وكان الملكان قد اختارا هذه الساعة المتأخرة على أمل أن الليل يسترهما إذا اندحرا، وأنه لن يعوقهما إذا غلبا، لأنهما يعرفان الأرض. وظهرا في نفس الوقت الذي عاد فيه الكشافة من مختلف الجهات يخبرون ماريْوس بقدوم العدو.

وقبل أن يأخذ الرومانيون صفوفهم، ويجمعوا أمتعتهم ويتلقوا الأوامر، رأوا جموع الفرسان الموريين والجيتوليين تنقض عليهم وتدور حولهم، لا في نظام للمعركة، ولكن في جماعات تكونت عرضا. فبهتوا واضطربوا، ودافعوا بقدر ما استطاعوا في فوضى شاملة، ولكن كثيرا منهم أحيط بهم وقتلوا. ومع ذلك فإن الجنود القدماء أعطوا المثال، فكوّنوا الرحى[16]، وصمدوا بكل جهة للمهاجمين وقاوموا حملاتهم. أما ماريْوس، فقد احتفظ برصانته فكان ينتقل من هنا إلى هناك مع النخبة من الفرسان الذين يكونون حرسه، وينجد الذين يضعفون، ويرتمي على الجماعات الكثيفة من الأعداء، ويسترخص نفسه بكل شجاعة.

ونزل الظلام، ولكن الأفارقة انصاعوا لأوامر الملكين فاستمروا يحاربون بشدة أكثر، وإذ ذاك أراد البروقنصل أن يهيئ ملجأ للجيش فأمر باحتلال جبلين متقاربين. وكان بأحدهما عين غزيرة المياه، وهو لا يتسع لأن يقام عليه معسكر، وعلى النقيض من هذا، كان بالجبل الثاني مكان مناسب، وكان الجبل عاليا وعرا، ولا يتطلب سوى تحصين قليل. فأصدر ماريْوس الأمر إلى سولا أن يقضي الليل مع الفرسان قرب عين الماء، واستطاع هو أن يجمع جنوده ويقودهم بسرعة إلى الجبل الثاني. أما يوغرطة وبوكوس فإن وعورة الأرض أرغمتهما على إيقاف المعركة،

ولكنهما لم يأذنا لجنودهما بالابتعاد. وأحاط «الباربار» بالجبلين وأشعلوا النيران، ونظروا إلى أنفسهم وكأنهم الغالبون، وقضوا أكثر الليل في مسرات صاخبة.

أمر مارْيوس أصحابه بالصمت العميق، بل منعهم حتى من تطبيق نظام النفخ في الأبواق. ولكن، عند انبثاق الفجر، وبينما الموريون والجيتوليون نائمون بعدما أنهكهم التعب، إذا به يأمر بالنفخ في جميع الأبواق، وأن ينقض جميع جنوده وهم يصيحون صيحات عالية. فاستيقظ الأعداء فزعين مضطربين، وانكسروا من غير أن يخوضوا المعركة، وتركوا في الميدان كثيرا من الأعلام والأشعرة، ومن الرجال أكثر ممن قتل لهم في المعركتين السالفتين لأن النوم والذعر منعا الكثير منهم من الفرار.

استطاع مارْيوس أن ينجو من الخطر ومن كارثة تقتيل جيشه، أو من استسلام لا يقل عاره عما أصاب أ. بُسْتومْيوس A. Postumius. ولكنه شخصيا كان يعلم أنه لم يمنع الملكين من إمكان معاودة الهجوم، ولذلك اتخذ احتياطات كبيرة ضد أي مفاجأة جديدة، ونظم جيشه وهو يخترق السهول في طريقه إلى سرتا في وحدة مربعة. وهو ترتيب لم يكن جديدا، إذ سبق لميتِلّوس أن استعمله في إفريقيا. فكان سولا Sylla مع الخيالة على الميمنة، وكان أ. مانليوس على الميسرة مع المقلاعيين وأصحاب الأقواس وفرق الليغوريين، وفي المقدمة والمؤخرة سار بعض النقباء على رأس فرق خفيفة غير حاملة للأمتعة ومستعدة للمعركة. بينما الموالون الذين لا تعد حياتهم ثمينة، والذين يعرفون الأرض جيدا، قد أرسلوا للكشف والاستطلاع. أما المعسكرات التي تحدث فكانت تحصن تحصينا قويا، وتقوم عليها حراسة شديدة. كما أن مارْيوس كان يشجع جميع أصحابه، فيضرب المثل بنفسه، وينوه بهؤلاء ويوبخ الآخرين.

وبعد ثلاثة أيام، كان الجيش يسير، وإذا بالكشافة يقبلون مسرعين من كل جهة ويخبرون بالعدو. وكان يوغرطة قد قسم جيشه إلى أربع وحدات، مؤملا أن الرومانيين الذين يقع الهجوم عليهم من الجهات الأربع في آن معا، قد تصيبهم وحدة على الأقل من هذه الوحدات من جانبهم. ولكن أمله خاب، لأن مارْيوس تنبه للخطر، فلم يطبق النظام المعتاد في المعارك، بل حافظ على نظامه للسير، لأن ذلك النظام يصونه من جميع الجهات، ثم توقف وانتظر.

وقع الالتحام أولاً على اليمين، أي الجنوب حيث سولا على القيادة. فقد تقدمت جماعة متراكضة من الفرسان الموريين، فترك سولا بالمكان قسما من خيالته الذين كانوا يتّقون الحراب الموجهة إليهم، ويعترضون طريق من يتقدم إليهم أو يقتلونه، ثم حمل على الأعداء بمن بقي معه من الفرسان بعد أن جمعوا في كتلة متراصة. وفي الغرب تقدم بوكوس بمشاته الذين وفد عليه بهم فولكس منذ المعركة الأخيرة. أما في الشرق حيث وقف مارْيوس، فإن يوغرطة كان بنفسه يرسل قوات عظيمة من الخيالة على الجنود الذين يكونون - حسب نظام السير - أول الجيش الروماني.

ولما علم الملك النوميدي أن بوكوس قد بدأ الهجوم في الجانب الآخر، ذهب مع بعض الرجال للانضمام إلى المشاة الموريين. وهناك اتجه نحو الرومانيين، وأظهر لهم سيفه المصبوغ بالدم، وصاح عليهم باللاتانية يقول : إنه قتل مارْيوس وان كل مقاومة من جانبهم لا تجدر، فحل الأسى، وكانوا على وشك أن يَسْتسلموا بينما «الباربار» يضاعفون جهودهم. كان الموقف حرجا، وإذ ذاك كان سولا قد دَحَر من حمل عليهم، فعاد وهاجم جناح مشاة بوكوس، فتراجع هذا في الحين. أما

يوغرطة الذي رفض الاعتراف بالغلب فقد أحاطت به خيالة سولا، ومات جميع من كان حوله، ونجا هو بمشقة بين السهام. وفي الحين قدم ماريْوس مسرعا، وصد خيالة يوغرطة، ففروا. ولما علم أن جنوده يحدق بهم الخطر في الجهة المقابلة ذهب لمؤازرتهم. وهكذا صار الموريون والجيتوليون يفرون بكل مكان، والرومانيون يتعقبونهم في السهل ويقتلون ويأسرون الكثير منهم.

تلك هي القصة التي خلفها لنا سالوست عن هاتين المعركتين، ولا شك أنها قصة صحيحة في خطوطها الكبرى، وإن كانت مصادرنا الأخرى لا تساعدنا على نقدها.

وهناك قصة مخالفة جدا لهذه أوردها بول أوروز[17]. ولاشك أنها استقاها من تيت ليف الذي يظهر أنه أخذها من أحد كتاب الحوليات. وتتخلص في أنه : بالقرب من سِرْتا التي كان الرومانيون يتأهبون للاستيلاء عليها بالقوة، قدم يوغرطة وبوكوس ومعهما 60.000 من الفرسان النوميديين والموريين، وهاجموا ماريْوس. واشتدت المعركة طوال ثلاثة أيام. وكان جيش ماريْوس الذي أحاط به الأعداء يجد صعوبة في المقاومة بسبب الظلام الذي تحدثه غمامات الغبار، وبسبب الآلام الناتجة عن الظمأ والحرارة. وفي اليوم الثالث أشرف الجيش على اليأس، لكن مطرا غزيرا هطل فجأة، فبرد الحرارة ومكن المقاتلين من ري عطشهم. أما الأفارقة فقد كان المطر نحسا عليهم لأنه بلل رماحهم، فجعلت تنزلق من أيديهم، وصارت لا نفع فيها، وكذلك تروسهم التي كانت من جلد الأفيال فإنها ثقلت وانتفخت كالإسفنج، الأمر الذي ألزم الباربار بالفرار. وفي معركة جديدة غير هذه كان مع الملكين 90.000 من الرجال، ولكن الرومانيين قضوا عليهم.

ومن الواضح أن هذه الأرقام والتفصيلات عن المعركة الأولى لا تستحق أي اعتبار. ولابد من أن نبقى عند ما رواه سالوست.

كان الانتصار هذه المرة حاسما. وقد فهم ذلك أهل سرتا الذين أسرعوا إلى الاستسلام. هكذا انتهت حملة كسب فيها مارْيوس مجدا، وكان قد بدأها بكثير من عدم التروي، وجعلت من ملك موريطانيا القوي عدوا لدودا لروما. بينما استطاعت مدينة سرتا العظيمة ان تستعيد حريتها، وهي بين جيش روماني متغلغل في غرب نوميديا، وبين ولاية افريقية.

## 5

جرت المعركتان اللتان تحدثنا عنهما قبل فصل الشتاء، وربما حدثتا في شهر أكتوبر، وقد مكث مارْيوس بإفريقيا بعد ذلك أكثر من سنة. ولم يشر سالوست خلال هذه المدة إلا لحادثة حربية واحدة. وهي الحملة التي قام بها البروقنصل أثناء شتاء سنة 106-105. ذلك أن يوغرطة لم يترك السلاح. وسواء أكان يقيم في البراري الجيتولية، أو يقترب من السواحل، فإنه لم يكن معه سوى جيش قليل العدد. ولاشك أنه كان يعلم أن معاودة الهجوم لم تكن بمستطاعه بدون مساندة من بوكوس.

غير أن هذا الأخير ضعف عزمه بسبب الاندحارين اللذين أصيب بهما، فوطد العزم على أن يتفاوض. وبالفعل فإن المبعوثين وصلوا إلى سرتا بعد مرور أربعة أيام على المعركة الأولى، ورجوا مارْيوس أن يبعث إلى سيدهم رجلين يمكن أن يتحادث معهما بكل ثقة، فأسرع القائد

بإيفاد سولا ومعه أ. مانليوس. أما التفصيلات التي يوردها سالوست عن هذا الاجتماع وعن المفاوضات التي شارك فيها سولا من بعد، فيمكن أن تكون مستقاة من مذكرات سولا[18].

رأى المبعوثان الرومانيان من الأحسن أن لا ينتظرا حتى يعرض عليهما بوكوس الأسباب التي من أجلها استدعاهما. لذلك أسرع سولا بتناول الكلام لأن مانليوس تنحى عنه لصاحبه الذي كان أحدث منه سنا وأبلغ منطقا، فهنأ الملك على اختياره للسلم عوض الحرب التي كانت من قبل عليه سيئة، ولن تكون من بعد إلا كذلك، بينما صداقة الشعب الروماني ستكون له على - النقيض من ذلك - مفيدة جدا، وأنه سينال هذه الصداقة إذا عوض عن أخطائه ببعض الخدمات، فلديه الوسائل لذلك. فأجاب بوكوس بأنه بعث فيما مضى إلى رومة سفارة تطلب هذه الصداقة، وأن طلبه قوبل بالرفض. وإذا كان قد حمل السلاح، فاللادفاع عن مملكته، لأنه لم يقدر على رؤية ماريوس وهو يعيث في ذلك القسم من نوميديا الذي أصبح ملكا له بمقتضى قانون الحرب، لأن أسلحته طردت منه يوغرطة. وأخيرا فإنه مستعد لأن يرسل بمبعوثيه إلى مجلس الشيوخ إذا قبل ماريوس ذلك.

يظهر أن الحديث الذي وضعه سالوست على لسان سولا كان يعبر بصدق عن نوايا حكومة رومة تجاه بوكوس. فقد أصبح الآن الملك الموري هو الذي يمكنه أن يطيل أمد حرب ترجى نهايتها من الأعماق، وهو أيضا الذي يمكنه أن ينهيها بسرعة إذا سلم يوغرطة. فليس من المستحسن - إذا فهم ما ينتظر منه - أن يواجه بشدة بسبب سلوكه الماضي. ولا خوف من أن يصير خطيرا في المستقبل، لأن أراضيه

ستبقى بعيدة عن الولاية الرومانية، حتى ولو أمكن أن يضم إليه نوميديا الغربية. على أنه – عند الحاجة – قد يكون حليفا حسنا على جانب مملكة نوميديا.

أما بوكوس فقد علمته انهزاماته أن مصلحته ليست في مساندة يوغرطة ضد رومة. فكانت أمنيته الغالية هي أن تجازيه رومة على خيانته، بأن تعطيه القسم من نوميديا الذي كان قد ألح في طلبه من صهره. لذلك كان لابد أن يستمر في الاحتيال بإظهار عواطف المودة نحو يوغرطة كي يقبض عليه ويسلمه في الوقت المناسب للرومانيين. ولكن، ألا تثيرُ هذه الخيانة الشنعاء، التي لم يَثُرْ لها ضميرُه، غضبَ رعاياه ؟ وعلى الخصوص غضبَ النوميديين الذين سينضوون إليه ؟ إن الأمر فيه مخاطرة جسيمة تبرر الاضطراب في الرأي. فكان بوكوس تارة يميل طويلا لهذا الجانب، ويميل تارة لذلك، وحسب حالته الفكرية، وحسب النصائح المجردة أو غير المجردة التي كان مستشاروه ينصحونه بها. فإذا هو قرر الخيانة، فلابد أن يظهر وكأنه أكره عليها فترك الرومانيين يقبضون على يوغرطة، ومن غير أن يقوم هو بالفعل الشنيع، أي أن يسلمه بنفسه لهم.

أما العرض الذي تقدم به أثناء اجتماعه بسولا Sylla ومانليوس Manlius بأن يرسل سفارة عنه إلى مجلس الشيوخ، فقد قبله مارْيوس، ولكن بوكوس لم يبعث بالسفارة، لأن يوغرطة لما علم بخبر هذا الاجتماع دفع على ما يحتمل أموالا طائلة لبعض مستشاري بوكوس ليقنعه بتغيير رأيه.

وكان مارْيوس قد أقام معسكرات الشتاء لجيشه على الساحل، وذلك ليضمن للجيش أقواته. ولاشك أن هذه المعسكرات أقيمت بأمكنة لا

تبعد كثيرا عن سرتا التي عاد إليها بعد حملة أجمل سالوست الحديث عنها في بضع كلمات[19]، رغما عن كونها طالت قليلا (ستة أسابيع على الأقل). ترك مارْيوس لسولا قيادة الجنود الذين بقوا بمعسكرات الشتاء، وأخذ هو فرقا خفيفة وقسما من الخيالة وذهب لمحاصرة (حصن ملكي) كانت حاميته كلها متكونة من الموالين. وقد قال سالوست أن هذا الحصن يقع في ناحية صحراوية. أما أپْيان Appien فإنه لم يزدنا علما بشيء حينما قال إن مارْيوس ذهب عند الجيتوليين. وعلى كل فإن الحملة أخفقت.

أثناء ذلك غير بوكوس رأيه وأصغة على ما يحتمل إلى المستشارين الذين لم يستطع يوغرطة أن يجذبهم إليه، أو استمالهم بعض العاملين سرا لمصلحة الرومانيين. فاختار من حاشيته خمسة من الرجال الذين يثق في إخلاصهم وذكائهم، وأمرهم بالتوجه عند مارْيوس، ثم إلى رومة إذا وافق على ذلك، وأعطاهم التفويض الكامل لإنهاء الحرب بأي ثمن. ولكن قُطّاع الطرق من الجيتوليين هاجموا هؤلاء الموفدين أثناء الطريق وسلبوهم. فوصلوا وهم على حالة سيئة عند سولا الذي استقبلهم بلطف وزودهم بنصائح ثمينة. وكان لابد لهم أن ينتظروا مدة أربعين يوما حتى يعود مارْيوس.

فلما عاد البروقنصل إلى سرتا وأُخْبر بقدوم الموفدين استدعاهم، كما استدعى سولا والقاضي Preteur ل. بيلْينوس L. Billienus حاكم الولاية الرومانية، واستدعى معهما جميع من كان آنذاك موجودا بإفريقيا من الشخصيات التي لها حيثية بمجلس الشيوخ. وبعد أن أعلم الحاضرين بمطالب بوكوس، اتفق رأي سولا والأكثرية على تخويل الملك الموري الهدنة التي يلتمسها، وعلى الإذن للموفدين بالذهاب إلى رومة.

فتوجه لها ثلاثة منهم مع متصرف مالي كان قدم بالجرايات، وعاد الإثنان الآخران إلى بوكوس وأطنبا له في مدح المعاملة الحسنة التي عاملهم بها سولا. أما في رومة فإن السفراء اعتذروا عن سيدهم الذي قالوا إن يوغرطة هو الذي جره للحرب، ثم التمسوا الصداقة والمحالفة. فأجيبوا: «بأن مجلس الشيوخ والشعب الروماني تعودوا أن لا ينسوا، لا خدمة ولا إهانة. ولكن حيث إن بوكوس ندم، فقد عفي عن ذنبه، وأما المحالفة والصداقة فستوهبان له حين يكون قد استحقهما»[20]. فإذا كان هذا حقيقة هو الجواب الرسمي، فالمعتقد هو أن «الباربار» قد أفهموا في المحادثات الخاصة ما كان ينتظر من ملكهم.

فلما اطلع بوكوس على نتيجة السفارة، كتب إلى مارْيوس يرجوه أن يبعث بسولا، ومعه التفويض التام للمذاكرة.

صحب سولا معه حرسا يمكّنه من السير بسرعة، فكان فيهم الخيالة والمقلاعيون من أهل الباربار، وأصحاب الأقواس، وفرق من البيلينيين الذين عوضوا عن أسلحتهم المعتادة بعدّة أخف، كالتي يحملها الفِيليت Vélites. وفي اليوم الخامس كان يخترق السهول. وعلى هذا، فإذا كان قد انطلق من سرتا، يكون قد استطاع قطع أربعين فرسخا ووصل لناحية مجانة. وفجأة رأى الرومانيون عددا كبيرا من الفرسان يتقدمون في اتجاههم. فظنوا لأول وهلة أنه العدو، وتأهبوا للقتال. ولكن بعض الكشافة طمأنوهم. وكان القادم هو فولكس ابن بوكوس أمره أبوه أن يذهب مع ألف من الرجال لمقابلة سولا.

وساروا جميعا ذلك اليوم والذي بعده من غير أن يقع حادث. ولكن بعدما أقيم المعسكر في مساء اليوم الثاني أقبل الأمير الشاب يعدو إلى سولا ووجهه ممتقع، وأخبره أن يوغرطة حسبما وصله من الأخبار ليس

بعيدا. وحثه على الفرار صحبته سرا أثناء الليل. فرفض سولا أن يقترف هذا الجبن، ولكنه قبل مع ذلك نصيحة فولكس بمغادرة المعسكر بعدما ترك به أكثر ما يمكن من النيران (الأنوار المضيئة). وسار بجيشه الليل كله. وبينما كان الجنود المتعبون يتأهبون عند شروق الشمس لأخذ الراحة بمعسكر جديد رسم لهم سولا حدوده، إذا ببعض الفرسان الموريين يأتون ويعلنون أن يوغرطة قد عسكر عند الأمام، على بعد نحو من ميلين. فظن الرومانيون أن فولكس قد خانهم. ومع أن سولا كان له نفس الرأي، فإنه صان الأمير عن الذين كانوا يطالبون بالانتقام منه، وأمره بمغادرة المعسكر نظرا لسلوكه مسلك الأعداء. فبرأ فولكس نفسه باكيا. وقال إن يوغرطة احتال حتى علم بسيرهم. ولكن حيث إن الرجال الذين معه قليلون، وحيث إن كل آماله وكل أفعاله متوقفة على بوكوس، فلاشك أنه لن يقدم على عمل جهرا بمحضر ابن بوكوس هذا. والأحسن هو اختراق معسكره من غير مواراة، وأنه على استعداد لأن يصاحب بمفرده سولا، وأن يبعث بأصحابه الموريين أمامه، وأن يتركهم حيث هم. فقبل سولا، ومر فولكس والرومانيون من غير أن يقع أي حادث تحت أعين يوغرطة الذي أخذته الدهشة، فلم يدر ما يفعل. وبعد أيام قليلة وصلوا لمقصدهم وهو معسكر بوكوس.

إذا قدرنا أن سير سولا استغرق خمسة عشر يوما (على فرض أنه انطلق من سرتا) فإن الملك الموري كان آنذاك بمكان ما بولاية الجزائر، لا بأراضيه التي ما كانت الهدنة المعقودة مع الرومانيين لتلزمه بالعودة إليها، وإنما كان في ذلك القسم من نوميديا الذي تخلى له يوغرطة عنه، واخترقه مارْيوس في السنة السالفة.

وكان في ذلك الوقت بمعسكر بوكوس نوميديان لهما منزلة رفيعة. فأحدهم، وهو أسبار Aspar، قد بعثه يوغرطة لما علم أن ملك موريطانيا

طلب قدوم سولا، وكانّ مكلفا بالاطلاع على ما سيجري والدفاع عن مصالح سيده. والثاني، وهو دابار Dabar ينحدر من مسنيسّا، ولكنه ليس من أعضاء الأسرة الملكية المسيلية Massyles، لأن أباه ماسوگرادا Massugrada ابن إحدى المحْظِيات. وقد أعطى للرومانيين في عدة مناسبات البرهان على إخلاصه، عسى أن يثقوا به.

فبعث به بوكوس في الحين إلى سولا، قائلا : إنه مستعد لأن يفعل كل ما تريده رومة، وطلب من سولا أن يحدد بنفسه يوما ومكانا للاجتماع، وأنه لايزال على رأيه كما كان يوم لقائهما الأول. لكن، نظرا لكونه ملزما بقبول ممثل يوغرطة في هذا الاجتماع، فإنه يرجو سولا أن لا ينزعج لذلك. وقد تساءل سالوست[21] هل كان الملك لايزال متحيرا بين يوغرطة والرومانيين. على أنه، لكي يوقع صهره في المكيدة التي لاشك أنه عزم عليها، كان لابد من أن يجعله يشارك في مفاوضات مصطنعة ترمي لعقد الصلح. وقد أجاب سولا بأنه لن يتكلم طويلا بحضور أسبار، وأنه سيوضح رأيه فيما عدا ذلك في اجتماع سري، ثم أدلى بالجواب الذي يجب على بوكوس أن يجيبه به في الاجتماع العمومي.

فلما انعقد هذا الاجتماع أعلن أن مارْيوس أوفده ليعرف هل يريد الملك السلم أو الحرب. فطلب منه بكوس أن يعود إليه بعد عشرة أيام – وكان هذا الجواب حسب إشارة سولا – وقال إنه لم يتخذ بعد أي قرار، ولكنه سيعطيه الجواب في ذلك الحين. ثم افترقوا وعاد كل منهم إلى معسكره.

وقبل بداية الليل، طلب بوكوس سراً حضور سولا. ولم يقبلا أن يحضر معهما سوى المترجمين الموثوق بهم ودَابار Dabar. فأكد الموري – حسب رواية سالوست – أنه يتخلى عن كل ما حازه وراء نهر

مُلوكا الذي هو الحد بين أراضيه وأراض ميسِبْسا، وأنه لن يسمح بدخول يوغرطة لأرضه، ولن يشارك مطلقا في الحرب التي تقوم بها رومة ضد الملك النوميدي. وإذا كان لِسولاّ Sylla شيء غير هذا يطلبه منه فإن رغبته ستلبى. فهو معجب بسولا ويرجو صداقته أكثر من كل شيء. وقد قيل إن سولا أجاب بوكوس بأنه إن نفذ وعده بالحياد فإنما يكون قد عمل بحسب مصلحته لا غير، ولم يعمل ما يوجب له اعتراف الرومانيين المنتصرين. وذلك أمر يسهل عليه لأن يوغرطة موجود تحت يده، ويستطيع تسليمه لهم. وهكذا ينال دون عناء صداقتهم ومحالفتهم، والقسْم الذي يريده من نوميديا. فأظهر بوكوس التمنع في أول الأمر، مبدياً أنه لا يمكن أن يخون قريبه وحليفه، وأنه يخشى غضب رعاياه الذين يحبون يوغرطة ويكرهون رومة. وأخيرا تنازل بعد أن كرر سولا Sylla إلحاحه عليه، ووعده أن يفعل كل ما يطلبه منه، ثم تذاكرا في الوسائل القمينة بالايقاع بملك نوميديا.

وفي الغد طلب أسبار Aspar وقال له إن سولا Sylla أنبأه بواسطة دابار Dabar بأن الصلح يمكن أن يتم بعد إجراء مفاوضات بين الأطراف، فعليه إذن أن يستخبر مَلِكه عن نواياه، فسُرّ أسبار، وذهب إلى معسكر يوغرطة، وتلقى منه تعليماته وعاد مسرعا بعد ثمانية أيام. وكان يوغرطة قد كلفه بأن يخبر بوكوس أنه سيوافق على كل ما سيطلب منه، غير أنه قليل الثقة بمارْيوس، لأن كثيرا من الاتفاقيات المبرمة مع القادة الرومانيين لم تقع الموافقة عليها. ولذلك فهو يطلب من صهره - لمصلحتهما معا - أن يعقد اجتماعا تدعى له جميع الأطراف المعنية، بحجة المذاكرة في الصلح، ثم يسلم بوكوس سولا إليه. فشخصية لها مثل هذه الأهمية - إذا كانت في قبضته - لا يتركها مجلس الشيوخ والشعب الروماني بين أيدي الأعداء، وسيرضخون للتفاوض.

لما استولى بوكوس والرومانيون على يوغرطة بخداع ماكر اعتذروا عن ذلك بأنهم إنما فعلوا بالنوميدي ما كان هو ينوي أن يفعله بسولا. ومع ذلك، فإن هذا لا يؤكد أن يوغرطة قد وقع اتهامه كذبا بهذا الاقتراح الذي يغري بوكوس، إذ يجعله يؤمل صلحا مربحا مع روما، ويدرأ عنه خطر ثورة رعاياه. ولكن هل تتدنى روما إلى حد التفاوض في مثل هذه الأحوال ؟ من الممكن أن يكون يوغرطة اعتقد ذلك، أو أنه رأى في هذا العمل الوسيلة المحققة لإرغام بوكوس على أن يبقى وفيا له بإفساد ما بينه وبين الرومانيين إلى الأبد.

وبعدما فكر الموري كثيرا، واعد في الأخير. فهل كان صادقا ؟ أو أراد أن يجذب يوغرطة كثيرا ؟ لقد كان في انتظار اليوم المحدد للاجتماع يرى سولا تارة، وأسْبار أخرى ويعبر لهما عن نفس المودة، ويمنيهما بنفس الآمال. وفي الليلة الأخيرة، دعا أصدقاءه ثم لم يلبث أن غير رأيه، فنحاهم عنه، ودخل وهو صامت في تأملات طويلة، وأخيرا دعا سولا ورتب معه تفاصيل المكيدة.

ولما علم بوكوس في اليوم التالي باقتراب يوغرطة أظهر الحفاوة به. فخرج لملاقاته، ومعه سولا وبعض الحرس. فتقدم لتلّ يسهل أن يراه عليه كمينٌ كان قد نصبه، وتقدم يوغرطة أعزل من السلاح حسبما اتفق عليه. وفجأة أعطيت الإشارة وأحيط به من كل جهة. فقتل أصحابه وسلّم وهو مغلول إلى سولا الذي قاده إلى مارْيوس.

يقول سالوست[22] : «حوالي نفس الوقت» اندحر القائدان كايْبيو Caepio ومانْليوس Manlius في بلاد الغال[23] فهو إذن يتحدث عن كارثة معركة أورانج Orange التي حدثت يوم 6 أكتوبر 105 [24] ولكنه يضيف قوله : «بعد أن أعلن أن الحرب انتهت في نوميديا، وأن يوغرطة أسرَ وهو

في طريقه إلى رومة، انْتُخب ماريْوس قنصلا وهو غير حاضر»[25] فيتضح أن المؤرخ يؤكد بجلاء أن خبر اعتقال يوغرطة وصل إلى رومة بعد وصول خبر معركة أورانج إليها، ونحن نعلم من جهة أخرى[26] أن انتخاب ماريْوس كان نتيجة لهذه المعركة. فنستطيع ان نستنتج من هذا أن يوغرطة لم يقع تسليمه إلى سولا قبل نهاية الصيف أو بداية الخريف. غير أن سالوست لا يعني نفسه كثيرا بالتدقيق في التسلسل التاريخي، ولربما لم تكن السنة آنذاك قد تقدمت كثيرا. ومع ذلك، فالمؤكد هو أن المفاوضات مع بوكوس التي استمرت في نوميديا ورومة، وتأخرت لعدة أسباب، قد طالت شهورا عديدة. فإذا كان الحادث الذي أنهى هذه المفاوضات - وهو أسر يوغرطة - قد جرى في الصيف، فإن ماريْوس يكون قد مكث بإفريقيا لتسوية شؤون نوميديا إلى اليوم الذي دعاه انتخابه على عجل إلى رومة، وكان ذلك بزمن قليل قبل نهاية سنة 105.

فأرجع جيشه، واحتفل بانتصاره في نفس اليوم الذي أخذ فيه مهام القنصلية، يوم فاتح يناير سنة 104، أما الغنائم التي نشرها أمام أعين الشعب فإن ما اشتملت عليه من سبائك وعُمْلة مسكوكة لم يبلغ ما كان ينتظره أولئك الذين يتذكرون الانعامات المنسوبة للملك النوميدي. فقد كانت - على حد قول بلوتارك : «3008 لبرة ذهبية، و 5775 فضية، و17028 درهما فضيا»[27] لكن كان يسير أمام عربة القائد المنتصر يوغرطة وأبناءه بعد أن صمد طيلة سبع سنين، واجه فيها الجمهورية، ومر بفيالقها تحت النِّير، حتى أصبح اسم هذا «الباربار» يثير في الرومانيين خلال العصور شعور الحياء والهلع.

أما الذين كانوا آنذاك يصيحون بالتحيات لماريْوس، فإنهم كانوا يضعون فيه آمال الوطن الذي يهدده الجرمانيون، وكانوا - حبا منهم في

تقوية ثقتهم في المستقبل - يبالغون في تمجيد ذلك الماضي الذي لا يزال قريبا منهم. نعم ! إن مارْيوس أثناء السنين الثلاث من قيادته قد استطاع الحصول على بعض الانتصارات العظيمة، ولكنه لم يحصل على الانتصار الحاسم، وانتهت هذه الحرب الطويلة والفادحة الثمن من غير تشريف ولا فائدة لرومة. والحق أن القدرة على إنهائها كانت عملا كبيرا، وكان لمارْيوس يد طولى في الوصول لهذه النتيجة، بحيث إنه لو لم يعرف كيف يتغلب على يوغرطة وبوكوس، لما خان بوكوس يوغرطة.

فالكيفية التي وقع بها الاستيلاء على الملك النوميدي، لم يكن بها ما يدعو للفخر العظيم، ومع ذلك فقد تَمجّد مارْيوس بذلك. لأن هذا العمل عمله، ومتصرفه المالي إنما تصرف بحسب أوامره. ويبدو أن سولا الذي قاد بدهاء كبير تلك المفاوضات الصعبة الخطيرة لم يجهر في أول الأمر بادعاء الميزة لنفسه، وقد اختاره مارْيوس ليساعده سنة 104، وهذا الاختيار برهان على أنهما لم يتخاصما بعد عودتهما من إفريقيا. غير أن سولا حفر على فصّ خاتَمه صورة تمثله وهو يتسلم يوغرطة من يد بوكوس، ومنذ ذلك الحين صار هذا النقش الخاتم الوحيد المستعمل لديه. وقد أخذ الأرستقراطيون الذين يحسدون مارْيوس أو يكرهونه يتساورون فيما بينهم، ثم يقولون جهرا بأنه سرق مجد سولا، كما سرق مجد ميتلِّوس، لأن ميتلِّوس لما دُعِي للعودة كان قد شارف القضاء على يوغرطة. وأما سولا فقد أنهى الحرب. ولو أن أحد الغاضبين حدّث بمثل هذه الأحاديث عند مرور القائد المنتصر، لندم على قوله من غير شك.

ففي هذا اليوم كان مارْيوس وهو زعيم الحزب الشعبي يحتفل بانتصاره حتى على النبلاء الذين استولوا على الجمهورية منذ اغتيال كَيُوس گْراكوس. وقد ختم سالوست الديمقراطي كتابه بعدما لاحظ هذا

الانتصار، فقال : «إن المدينة في ذلك الوقت كانت تضع فيه أملها وقوتها». وحيث لم يعد ليوغرطة أي دور يلعبه في الرواية، فإن سالوست لم يشر حتى إلى وجوده في موكب التمجيد، وكان غيره من المؤرخين هم الذين أخبرونا كيف مات.

واقتيد بعد الاحتفال إلى التولْيانوم Tullianum أي إلى السجن الذي كان تحت الكابِتول، وقد ضاع رشده، وانتزع الذين كانوا يقودونه رداءَه، وخرقوا أذُنه ليستولوا على القرْط الذي كان معلقا بها، ثم رموا به إلى أعماق السرداب وهو يرتعش من البرد. ثم قال مستهزئاً : «أقسم بِهْركول إن حمّامكم لبارد !». ومكث ستة أيام يعاني الجوع.

وأخيرا وقع خنقه بأمر من مارْيوس[28]. أما ابْناه فقد احتفظ بهما. وبعد مرور خمسة عشر عاما، كان أحدهما سجينا في ڤِينوسْيا Venusie بمقاطعة أبولْيا Apulie، فجاء به إلى كَمْبانيا Campanie أحدُ القادة الإيطاليين الثائرين ضد رومة، وألبسه الرداء الأرجواني الملكي، وأظهره للنوميديين الذين كانوا مع الجيش الروماني. وكما كان يأمل، فإن الكثير من بينهم قد انضموا لذلك الذي كانوا يعتبرونه ملكا لهم، في حين أن الآخرين كانوا على استعداد كبير لأن يحتذوا حذوهم، الأمر الذي دعا إلى التعجيل بإرجاعهم إلى أوطانهم، مما يدل على أن ذكرى يوغرطة قد بقيت عزيزة على نفوس الأهالي.

## 6

لم يعتقد سالوست أنه يجب عليه أن يبين لنا كيف سُويت شؤون إفريقيا بعد الحرب. وليس لدينا عن هذا الموضوع معلومات دقيقة. لكن

المتأكد هو أن رومة لم توسع ولاية إفريقيا، إذ في سنة 46 كانت هذه الولاية لا تزال على ما كانت عليه بمائة سنة من قبل. وسبب ذلك أن الاهتمام كان منصبا على ما كان يجري خلف جبال الألب، عوضا عن شغل البال بحفظ أرض باربارية تقع على الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، وتدعو المحافظة عليها إلى نفقات الجيش، كما تستلزم من المصاريف أكثر مما يعود منها من المنافع. ومن ذلك فإن لِبْتيس الكبرى (لبدة) التي تخلت عن يوغرطة منذ بداية الحرب لم يقع ضمها إلى الولاية، واعتبرت مدينة صديقة وحليفة للشعب الروماني، وبقيت مفصولة عن أفريقا Africa بمملكة نوميديا.

أما ميراث يوغرطة، فقد كان لگاوْضا Gauda فيه حق ناله بمقتضى وصية مسبْسا Micipsa الذي نذكر أنه سبق أن جعله وريثا له من الدرجة الثانية في حالة تغيب ابنيه ويوغرطة. وكان گاوضا قد ثبت على وفائه للرومانيين. ولاشك أن الوعود التي قطعها له مارْيوس قد وقع تنفيذها، ويظهر من صفة ريكس Rex التي أسبغها عليه نقشان لاتانيان[29]، أن گاوضا صار حقيقة ملكا. ويقول سيسرون Cicéron إن مارْيوس قد «جاء متضرعا عند أولئك الذين كان قد أعطاهم الممالك». وذلك أن هيمْسيال الذي فر مارْيوس إلى مملكته سنة 88 ق.م، كان ابنا لگاوضا. والحق أنه يمكن كذلك أن نفرض أن گاوضا كان قد مات سنة 105، وإن هيمْبسال أخذ الملك منذ هذا التاريخ. وعلى هذا يجب أن نقبل القول بأن كلمة ريكس Rex التي وُصف بها گاوضا، وذُكرت في النقشين اللاتانيين، يكون معناها «الأمير الملكي» لا «الملك» وهو أمر غير محتمل.

وربما أن جميع أراضي مسنيسّا (باستثناء ما حازه بوكوس منها) لم تُسلّم إلى گاوضا. وسنرى أن إفريقيا كان بها في سنة 62 وفي 47-46

مملكة نوميدية غربي مملكة هيْمبسال ويوبا الأول ملك سِرْتا. فمن الممكن أن هذه المملكة الثانية قد تكونت منذ سنة 105 على أساس تقسيم مشابه للتقسيم الذي قام به مجلس الشيوخ حوالي سنة 117 بين آذربَعْل ويوغرطة. وهي تجزئة أفادت الرومانيين اطمئنانا وأمنا.

أما الجيتوليون الذين حاربوا تحت قيادة ماريْوس فإنهم نالوا منه حق المواطنة الرومانية، كما نالوا أراضي تقع خارج الولاية، ولعلها كانت واقعة حول ثيبَريس Thibaris وأوكِي الكبرى Uchi la Grande بناحية دوقّة Dougga.

وأحرز الملك بوكوس على لقب صديق وحليف للشعب الروماني. وفي حديث عزاه سالوست إلى سولا نجد المتصرف المالي لماريْوس يَعدُ الموري بتنازل رومة عن المقاطعة التي كان يوغرطة قد تخلى له عنها من قبل، وهي الثلث من نوميديا. فيمكن أن نستنتج من ذلك أن بوكوس قد نال بهذا ثمن خيانته.

إلى أي حد بلغت مملكته شرقاً ؟ إننا إذا قمنا بقياس الساحل من مُلوكا نهر مَلْوية، وهو الحد بين بوكوس ومسيبْسا، إلى نهر توسْكا Tusca وهو حد الولاية الرومانية، نجد ثلث المسافة يقع بين مصب نهر شليف وتنيس. ولكن، لاشك أن مملكة يوغرطة قد كان عمقها غربا (أي غرب الجزائر وموسطتها) أقل منه شرقا، حيث كانت تحيط بإفريقيا. أما خارج إفريقيا فإن المملكة امتدت إلى جوار خليجي سدرة. فإذا اعتبرنا الثلث من الملكة على عمومها، يكون ما أعطي لبوكوس قد أخر الحد إلى ما وراء نهر شليف على البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك فإن هذا الحد لم يبلغ لمصب نهر أمْبساگا Ampsaga (وهو الوادي الكبير في الشمال

الغربي لقسنطينة)، لأن بوكوس لم يستول على الأرض حتى نهر أمبساگا إلا في سنة 46، عندما انتهت المملكة النوميدية الثانية. وقد قلنا إن هذه المملكة كانت تمتد غربي مدينة سرتا التي كانت تابعة للمملكة الأولى. ولاشك أن المملكة الثانية كانت واسعة، وإلا فإن سيسْرون [30] ما كان ليتعب نفسه بذكرها في هذه الجملة التي ذكر فيها الطريق التي اجتازها ڤاتينْيوس Vatinius سنة 62 في رحلته من إيطاليا إلى أسبانيا، حيث قال : «ألا تَذكرُ أنك مررتَ بسردانية، ثم إفريقيا، وأخيرا... بمملكة هيمْبسال ومملكة مسْتانِسوسُوس Mastanesosus (هذه هي المملكة المقصودة) وبلغت مضيق موريطانيا ؟» وقد فرض بعضهم أن بوكوس القديم حاز سنة 105 الساحل إلى صَلْداس أي إلى بجاية[31]. ولكن هذا الفرض لا يعتمد على حجة قوية[32]، على أننا لكي نترك مكانا واسعا لمملكة مَسْتانسوسُوس هذا، نستطيع أن نبعد بالحد إلى الغرب، ولكننا لا نستطيع تأكيد أي شيء في هذا الموضوع.

الكتـاب الثاني

# رومة والملوك الأفارقة

الفصل الخامس

## أفريقيا الشمالية من ماريوس إلى قيْصر

### 1

نكاد لا نعرف شيئا عما جرى بشمال إفريقيا أثناء أكثر من نصف قرن، بين حرب يوغَرْطة وحملة يولْيوس قَيْصر ضد أنصار بومْبي Les Pompéiens. بل لا نستطيع حتى إعطاء لائحة مؤكدة بالملوك الأهالي وحدود ممالكهم، فأما أن تكون عهودهم قد اضطربت بثورات وحروب، فذلك ما يمكّننا من تصديقه بعض الإشارات المختصرة التي وصلتنا بطريق الصدفة. وهناك نصوص أخرى أكثر عددا، وتتعلق بعلاقات هؤلاء الأمراء بالرومانيين. فبعد نوميديا دخلت موريطانيا في نفوذ الجمهورية. لكن، حيث أن الأحزاب المتعادية كانت في هذا العهد تتصارع على حكم رومة، فإن الملوك الأفارقة كان لابد لهم أن يختاروا بين هذه الأحزاب وأن يَنْساقوا طوعاً أو كرهاً للمشاركة في الصراع الواقع بينها.

كان بوكوس، منذ سنة 118 ق.م، على أبعد تقدير، مَلكاً على شمال المغرب، وضم إليه في 105 غرب الجزائر وربما حتى موسطتها، وعاش

بعد ذلك طويلا. والواقع أن سْترابون قد ذكر أميرا كان يحكم موريطانيا عند بداية القرن الأول وسماه باسم بـوگـس βoyoσ، غير أن هذا الاسم – كما تـشـهد بذلك فقرات أخرى مـن سْترابون – إنما هـو الـصيغة الإغريقيـة للإسـم الذي يكتـب في اللاتانيـة بوگـوتْ Bogout، بُگـوسْ Bogus، بـُگـــودْ Bogud (وفي حالـة الإضافـة : بوگديس Bogudis) في حين أن بوكوس βχχοσ، Bocchus كان لا يزال حيا في سنة 93 وسنة 91، فيحسن أن نقبل أن ما رواه سترابون كان متأخرا عن سنة 91، وأن شخصا يحمل اسم بُگودْ Bogud قد خلف آنذاك بوكوس Bocchus، فإما أن بـگـود Bogud هذا قد كان شريكاً لـبوكوس في مـزاولة الملك، وإما أن يكون اسم بُگوسْ Bogus – وهذا هو الأرجح – قد كُتب خطأ عوضاً عن بوكوس βχχος، فمن السـهل التخليط بين هذين الإسمين، وكثيرا ما يحدث هذا الخلط.

أصبح بوكوس بفضل خيانته حليف الشعب الروماني وصديقه، وقام بكل دقة بالواجبات المنوطة به. ففي الحروب التي خاضتها رومة خارج إفريقيا وضع رهـن إشارتها جيوشا مساعدة[33]. على أنه بقي بصفة خاصة مرتبطا بالشخص الذي سبق له أن سلّم إليه يوغرطة، ويساهم أحسن مساهمة في روعة الألعاب التي كان سولا Sylla يقيمها حين كان قاضيا، وهكذا بعث إليه بمائة أَسَد مع القناصين لصرعها[34]، كما شيّد برومة في الكابِتول تماثيل للنصر تحمل شعار الغلبة، وبجانبها صورا ذهبية تمثله وهو يسلم يوغَرْطة إلى سولاّ. ولم يكن هذا العمل ليدخل السرور على مَرْيوس الذي أغضبه أن يُعزى شرف إنهاء حرب نوميديا إلى متصرفه المالي سابقا. ولهذا ألح في إزالة هذا الأثر الذي طالب سولاّ وأصدقاؤه ببقائه طبعا. وكان الخلاف سيشتد، لولا أن أوقفته ثورة الإيطاليين.

أما التاريخ الداخلي لموريطانيا في عهد بوكوس، فنعلم عنه حادثاً واحدا وهو أن شخصا يدعى ماگُدولُسّا Magudulsa، وكان ذا حيثية، تخاصم مع الملك بعد أن كان من مستشاريه الخواص، ثم فر إلى رومة لكن ليڤيوس دْروسوس Livius Drusus الذي قتل في 91 ق.م أثناء سَنَته نقيباً، أصغى على ما يقال لإغراء بوكوس، وعمل حتى وقع تسليم ماگْدولُسّا للملك، وأُسْند أمر قتل التعيس لفيل داسه.

ونجهل متى مات بوكوس الذي كان عمره سنة 91 لا يقل عن الستين سنة. ومن بضع كلمات وردت عند بول أوروز Paul Orose [35]، استنتج البعض أن بوكوس كان لايزال على قيد الحياة أثناء حملة بومبي على إفريقيا سنة 81. فقد روى هذا الكاتب أن هيَرْتاس Hiartas (الصواب هِيَرْباس Hiarbas) ملك نوميديا فرّ من وجه بومبي، فجرده من جميع جيوشه بگود Bogud ابن بوكوس ملك الموريين. فالظاهر أن هذا يشهد في الواقع بأن المُلك كان آنذاك لبوكوس، أما ابنه فإنما كان أميرا ملكيا[36]. ولكن لا سبيل لتأكيد ذلك. فلربما أن أوروز Orose عثر عند الكاتب الذي ينقل عنه على ذكر بُگود ملك الموريين ابن بوكوس، فروى هذه الألفاظ من غير تدقيق وعلى شكل اضطرب له المعنى.

والمتأكد هو أنه في نفس العهد جرت في أقصى غرب موريطانيا أحداث من الصعب أن يبقى بوكوس خارجاً عنها، لو كان لايزال ملكا على هذه الجهة. لكن القصة التي وصلتنا عن هذه الأحداث ليس فيها ذكر له ولا لابنه بُگود.

في بداية سنة 82 ق.م استولى أحد أنصار مَارْيوس، وهو سِرْطورْيوس Sertorius على الحكم في ولاية أسبانيا القريبة. وفي السنة الموالية لها اضطر للفرار أمام الجيوش التي بعثها سولا Sylla لتستولي

على الهضبة الإيبيرية، بعد أن، تمت له السيطرة على إيطاليا. فركب سِرْطورْيوس البحر من قرطاجنّة Carthagène[37] ومعه 3000 رجل، ثم نزلوا بساحل موريطانيا. لكن أصحابه، بعدما نزلوا إلى الأرض وانشغلوا بالتزود من الماء، باغتهم الأهالي الذين قتلوا كثيرا منهم. فاضطر سِرْطورْيوس إلى الابتعاد على عجل.

ورغما عن مساعدة القراصنة السّيليسيّين Ciliciens له، فإنه لم يستطع التمكن في جزيرة بِتْيوس Pityuse. (هي اليوم جزيرة يابِسة Ibiça).

وبعد ذلك بقليل عبر المضيق ونزل بالقرب من مصبّ نهر بايْتِس Baetis (الوادي الكبير). وهناك التقى بالبحارة العائدين من زيارتهم «للجزائر السعيدة»، أي من ماديرا Madère وبورْتوسانْتو Porto-Santo. فأثنوا له كثيرا على مناخها وثروتها حتى فكر بعد الوقت في النزوح إليها.

غير أنه عدل عن ذلك وعاد إلى إفريقيا. وكان السيليسيّون قد انفصلوا عنه، وذهبوا لينضموا إلى أمير ذكره بلوتارك باسم أسْكاليس بن يفثاسْ Ascalis Fils d'Iphthas، كي يساعدوه على استرجاع مُلكه على الموريين. أما سِرْطورْيوس فقد انضم، على العكس منهم، إلى خصوم أسْكاليس.

فمن كان هذا الأمير الذي بقي – كما سنرى، ورغما عن ثورة عدد كبير من رعاياه – سيّد تِنْجي (طنجة) أهم مدن موريطانيا، والذي ساعده أصحاب سولا ؟ إننا نعرف أن العلاقات كانت متينة بين بوكوس وسولا. ونعلم كذلك أن بـُكـود ابن بوكوس قد كان في هذا الوقت بالذات المناصر النشيط لبومْبي الذي بعثه سولا إلى إفريقيا لمحاربة

أصحاب مَارْيوس وأصدقائهم النوميديين. فيجوز الاعتقاد إذن أن أسكاليس ما كان ليحرز على نون حزب سولا، لو أنه كان مغتصبا وعدوا لأسرة بوكوس. ومن ناحية أخرى، إذا فرضنا أنه كان مجرد تابع لملك موريطانيا فليس من السهل علينا أن نفسر كيف تخلى الملك له عن أهم المدن بمملكته. ولعل «يفْثاس Iphthas» أبا أسْكاليس قد اختلط بشخص آخر هو «ليبْتاسْتا Leptasta» الذي ورد ذكره في إحدى فقرات كتاب التواريخ لسالوست، وكان ملكا على موريطانيا[38]. فيحسن إذن إصلاح هذه الفقرة بجعل يَبْتاسْتا Ieptasta أو يَبْتاس Ieptas محل ليبْتاسْتا Leptasta. فلعل أحد الناسخين اعتبر أن الياء "I" لام "L" ثم كرر مقطع "تا ta" خطأ. ونفس الإسم يوجد في نقوش ليبية وبونيقية ولاتانية : [39] على صيغة ي. ف. ت. ن I.F.T.N، ي. ب. ت. ن I.P.T.N يبتا Iepta، يَبْتان Ieptan، يَبْثا Iptha. إذن يظهر أن الأمر يتعلق بأميرين، لا ندري هل هما من قرابة بوكوس أو لا، كما يظهر أنهما توليا الملك من بعده في القسم الغربي من أراضيه، بينما أحد أبناء بوكوس هذا، وهو بُكود قد تولى الملك – على ما يظهر – بالقسم الشرقي، أي فيما وراء نهر ملوكا. غير أننا لا نخفي ضعف هذا الافتراض.

نزل سرْطوريْوس بموريطانيا، فاستقبله الثائرون بابتهاج، وإن كنا نستطيع القول بأن اتفاقا قد حدث بينه وبين أصحاب مَارْيوس، الذين كانوا مستولين على ولاية إفريقيا إلى أن غلبهم عليها بومبي، والذين كان يناصرهم ملك نوميدي هو هِيَرْباس Hiarbas ويحاربهم ملك نوميدي آخر هو هِيمْبسال hiempsal ومعه بُكود الموري، وعلى كل فإن سرطوريوس بعدما انتصر على أسكاليس في معركة أولى، تقابل مع الجيوش التي بعثها سولا – من أسبانيا على ما يحتمل – لنجدة أسكاليس، وكانت تحت إمرته قائد يدعى باكْيانوس Paccianus. وقد

انْدحر هذا القائد وقتل، وانضم جنوده إلى سرطوريوس الذي احتل طنجة بعدما حاصرها، وكان أسكاليس وإخوته قد التجأوا إليها.

وحكي بأنه فتح بالقرب من هذه المدينة تلاً قيل إنه كان يضم عظام العملاق أَنْطي Antée، الذي غلبه هِرْكول، ويقال إنه قد وجد بالفعل جسدا طوله ستون ذراعا.

وبعد استيلائه على جميع الأرض التي حول طنجة رأف بالأهالي ولم يلزمهم بأكثر مما كانوا مستعدين أن يعطوه. لكن اللوزيطانيين (سكان القطر البرتغالي) بعثوا إليه الرسل آنذاك يرجون منه القدوم ليرأسهم. فاستجاب لهذه الرغبة وعاد إلى أسبانيا. وصاحبه إليها سبعمائة من الموريي كان قد ضمهم لجيشه.

إن تاريخ هذه الوقائع لايمكن تحديده بدقة، لأنها على ما يحتمل كانت موزعة بين سنة 81 وبداية السنة الموالية لها.

ولم يعد سرطوريوس إلى إفريقيا، لأنه مات غيلة سنة 82. أما بعض ضباط جيشه الرومانيين الذين شاركوا في هذه الجريمة، فقد فروا إلى موريطانيا، بعدما اندحر جيشهم أمام بومبي، ولكن الأهالي قتلوهم.

ثم يتوارى عن أعيننا تاريخ الموريين. وفي سنة 39، أي عند بداية الحرب الأهلية بين قَيْصر وبومْبي، كانت موريطانيا مقسمة إلى مملكتين يفصل بينهما نهر مُلوكا (مَلْوية). فأما المملكة الشرقية فكان عليها الملك بوكوس[40]، وأما الغربية فكان عليها بُكود[41]، ولا نستطيع أن نقول متى صارا ملكين[42] أما بُكود فإنه لما مات سنة 31 ق.م كان لا يزال رجلا قويا قادرا على خوض الحرب[43]. وذلك ما يسوغ لنا أن نفرض أنه لم ينل المُلْك في وقت بعيد كثيرا عن أواسط القرن الأول[44].

ويغلب على الظن، نظرا لتشابه الأسماء أن هذين الملكين بوكوس وبُگود ينتميان لنفس العائلة التي ينتمي لها بوكوس المعاصر ليوغَرْطة وبُگود ابنه[45]، ولكن هذا ليس مؤكدا، كما أن من المشكوك فيه جدا أن يكون بوكوس وبُگود - المعاصران لقيصر - أخوين.

متى انقسمت إلى مملكتين تلك الأراضي التي جُمعت عند نهاية القرن الثاني في قبضة بوكوس القديم ؟ لعل ذلك جرى بعد موت بوكوس، ويمكن بهذا أن نقترح للمملكة الغربية لائحة ملوك تشمل كلا من يَفْثاسْ Iphthas، وأسْكاليس Ascalis، ثم بُگود Bogud وللمملكة الشرقية لائحة تشمل بُگوداً آخَرَ يكون ابنا لبُكوس القديم، ثم بكوس الشاب. ولربما أن التقسيم جرى في عهد أحدث، فنحن هنا أمام التباس كامل. والنصوص لا تعطينا سوى معلومات غير كافية. وليس لدينا وثائق أخرى، إذ لم تذكُر العُمْلة قبل يوبا الثاني - المعاصر لأوغُسْت - من الملوك الموريين سوى بوكوس الأخير، وبُگود الأخير.

وسنذكر من بعد الدورَ الذي قام به هذان الملكان في الحروب الأهلية الرومانية على عهد قيصر وأوكْتاف Octave. أما بقية حياتهما فمجهولة. على أن سْترابون[46] روى - نقلا عن كاتب إغريقي - [47]خبر حملة قام بها بُگوس Bogos ملك الموريين - وهو لاشك بُگود - ضد الأثيوبيين الذين كانوا يقيمون بساحل المحيط جنوبي مملكته. روى ذلك ليخبرنا أن الملك بعث من هذه الأرض بالقصب والسّكوم الضخم[48] إلى زوجته. ولعلها هي أونْوي Eunoé التي يظهر أنها وهبت محاسنها إلى يوليوس قيصر[49] (وإن كنا لا ندري أين ومتى حدث هذا). كما جرت حروب أخرى في غرب الشمال الإفريقي، هذا كل ما تمكننا من قوله إشارة مختصرة تتعلق بسِتْيوس الكَمْباني Sittius. ذلك أن هذا المغامر جمع في موريطانيا جموعا تتكون من إيطاليين وأسبانيين، واشتغل

طوال عدة سنين - من 64 إلى 47 ق.م - بمهنة رئيس للعصابات، يتدخل في خلافات الملوك فيساند هذا حينا، وذاك حينا آخر.

## 2

أما عن نوميديا، فقد توفي بها گاوْضا Gauda قبل سنة 88 ق.م. ولاشك أن گاوضا كان قد نال الملك بعد انتصار الرومانيّين على أخيه يوغرطة. وكان هيمْبسال Hiempsal ابنه ملكا آنذاك، على الأقل على قسمها المجاور لولاية إفريقيا. وقد كان هذان الأميران - بقدر ما استطاعا - حليفين وفيَّين، بل تابعين طيِّعين لرومة، إذ يخبرنا أپْيان[50] Appien أن جيوشا مساعدة من النوميديين بعثت إلى إيطاليا لتشارك في محاربة الحلفاء. وفوق هذا، فإن مجلس الشيوخ كان يعمل لضمان عدم حدوث أي خيانة. فقد ورد أن ابناً لملك النوميديين، واسمه آذربَعْل[51]، كان في بداية القرن الأول، يقيم كرهينة برومة. وأن م. ليڤْيوس دْروسوس M.Livius Drusus[52] قد أخذه عنه، مؤملا على ما يقال، أن يؤدي له الملك إتاوة في السر، إذا استطاع الشاب أن يستعيد حريته.

ولا داعي لأن نحكي كيف استطاع مَارْيوس النجاة من الموت بعدما احتل سولا Sylla رومة عسكريا سنة 88. فمن منْتورْن Minturnes وصل إلى هذه الأرض الإفريقية التي سبق له أن نال بها مجدا عظيما، والتي كان يقيم بها كثير ممن عملوا تحت إمرته، والتي كان مَلِكها ابن گاوْضا نفسه، الذي سبق له هو أن وهبه نوميديا.

ولم ينزل بالولاية، وإنما بالجنوب بعيدا عنها بجزيرة منانْكس (جَرْبة) Meninx. وهناك علم أن ابنه[53]، وهو محكوم عليه مثله، كان في

سلامة، وأنه قد ذهب صحبة كُرنيلْيوس سِيتِگُوس Cornélius Céthégus عند هيمْبسال ليطلب منه العون. فلما سمِعَ هذه الأخبار تشجع، وغادر منانْكس، متجها إلى الولاية التي كان عليها آنذاك حاكم باسم سَكْستيلْيوس Sextilius الذي لم يكن أصابه منه لا خير ولا شر. فنزل حيث كانت قرطاجة، وسرعان ما تقدم إليه أحد حَمَلَة الأشعرة Licteur، ومنعه باسم سيكْستيلْيوس من الدخول إلى إفريقيا، وإلا فإن القاضي Preteur سينفذ قرار مجلس الشيوخ ويعامله بمعاملة أعداء الرومانيين. وحز الألم في نفس مَارْيوس، فالتزم الصمت، وإذ ذاك سأله الرجل عن الجواب الذي يحمله إلى رئيسه. فكان ذلك الجواب – الصحيح أو المختلف – الذي نعرفه، وهو : «أخبره إذن أنك رأيت گايوس مَارْيوس طريداً، يجلس على أنقاض قرطاجة[54]». ثم عاد الطريد الجليل، فركب البحر واتجه إلى سدرة الصغرى Petite Syrte بعيدا عن الولاية[55]، وبعدما حل بها ألحق به ابنه.

كان هيمْبسال عازماً على أن لا يعمل إلا ما فيه مصلحة نفسه. لكن، نظرا لأنه لم يكن يدري ما سيفعله، فإنه قابل مَارْيوس الشاب بحفاوة. ولما أراد هذا الأخير أن يرحل عنه، تذرع الملك بمختلف الوسائل ليثنيه عن الذهاب، كي يستطيع، نتيجة لذلك، أن يستولي عليه إذا لزم الأمر. وفي ذلك يقول بلوتارك : أن الروماني مَدين بنجاته للحب الذي أحدثه جماله في قلب إحدى حظايا هيمْبسال، لأن هذه المرأة هي التي هيأت له وسائل الفرار مع أصحابه، حتى وصل عند أبيه[56] . غير أن علامات السوء (ظهرت لمَارْيوس وابنه)، ودفعت بهما لأن يركبا في الحين قاربا للصيد، ويذهبا إلى جزيرة قَرْقَنة القريبة. فحمدا ما فعلا، إذ بمجرد إقلاعهما أبصرا بالفرسان الذين بعث بهم همبسال يصلون متراكضين إلى الساحل.

ولم يطل أمد نفي مَارْيوس، لأن سولا كان قد ذهب إلى المشرق لمحاربة مثْريدات Mithridate. وكانت الحرب الأهلية قد اندلعت في إيطاليا بينَ قنصلي سنة 87، اللذين كان أحدهما – وهو سنّا Cinna – ينتمي للحزب الديمقراطي. فقرر مَارْيوس الذهاب بقصد الانضمام إلى سنّا الذي كان يدعوه لذلك. فألّف جيشا من ألف فارس من الأهالي الذين استطاع أن يحشدهم(57)، ونزل بهم في أتْرورْيا Etrurie بميناء تيلَمون Télamon. وبعد أسابيع دخل إلى رومة وملأها تقتيلا.

وفاجأه الموت في يناير 86، في بداية قنصليته السابعة، لكن أصحابه احتفظوا بإيطاليا إلى أن عاد سولا في ربيع سنة 83. ولم ينتصر عليهم عدوّهم نهائيا إلا في خريف سنة 82.

أما في إفريقيا فإن الولاية الرومانية كانت منذ سنة 84 (58) ميدانا للصراع بين الديمقراطيين والأرستقراطيين. ولا نعرف عن هذا الصراع شيئا بالتفصيل. وكل ما نعلمه هو أن أحد رؤساء النبلاء – وهو ك. كايْسيلْيوس ميتلّوس بيوس Q.Caecilius Metellus Pius – قدم إلى إفريقيا واستطاع أن يكوّن بها جيشا ضخما(59). وكان هذا القادم ابن ميتلّوس الذي قاد الحرب ضد يوغرطة من سنة 109 إلى 107، وقد شارك في هذه الحرب تحت قيادة أبيه. ولهذا فلم يكن مجهولا لدى الأفارقة، ثم وافاه بها م. ليسينْيوس كْراسوس M.Licinius Crassus وكان هذا الشاب قد نجا من المحاكمة في عهد مَارْيوس وَسنّا Cinna اللذين حكما على أبيه وأخيه حكما شنيعا. فالتجأ إلى أسبانيا حيث اختفى طويلا، فلما علم بعد ذلك بموت سنّا (مات في ربيع سنة 84) خرج عن تستره، وحارب بعض الوقت هنا وهناك بالهضبة الإيبيرية بجيش كونه من 2500 رجل. ثم عبر بهم البحر إلى إفريقيا ليمد يد النجدة لميتلّوس.

لكن القائدين لم يتفاهما. فأما ميتلّوس فقد طرده ك. فابيوس هادْريانوس C.Fabius Hadrianus الذي نصبه المريَنُوسيون على حكومة الولاية، ففر ميتلّوس إلى ليغوريا Ligurie، ولم يلبث أن انضم إلى سولا الذي كان قد نزل بميناء بْرانْدس Brindes. وأما كراسوس فقد فارق ميتلّوس، وغادر إفريقيا كذلك، وذهب لينضم إلى سولا، قبل أن يحل هذا الأَخير بإيطاليا على ما يحتمل. وبذلك بقي هادريانوس سيد الموقف بولاية إفريقيا.

مات هادريانوس سنة 82، حيث أُحْرِقَ حياً بمنزله الرسمي في أوتيكا، أثناء فتنة قام بها المواطنون الرومانيون الذين عاقبوه بهذا العمل على طمعه الذي لا يطاق كما قال سيسرون. وقال بولس أوروز أنه سلك سلوك طاغية واعتمد على العبيد. أما الذين أعدموه بهذه القسوة، فإن العدالة لم تحاسبهم أبدا. ولاشك أن سولا الذي أصبح سيد رومة المطاع، ما كان يكره أن تتخلص إفريقيا بهذه الصفة من حاكم يناصر مَارْيوس.

على أن اغتيال هادريانوس، لم ينتج عنه ضياع الولاية من أيدي الديمقراطيين. ففي خريف سنة 82 هذه، كانت إفريقيا أول مكان انتقل إليه القنصل بابيْريوس كَرْبو Cn. Papirius Carbo عندما يئس من التغلب على حزب سولا في إيطاليا، ولكنه سرعان ما اجتاز البحر إلى صقلية، ولما علم بخبر نزول بومبي بالجزيرة فرّ إلى كُسورا Cossura (أي بَنْتِلاريا Pantelleria) بِنيّة التوجه إلى مصر، غير أنه اعتقل وقدم إلى بومبي الذي أمر بإعدامه.

في هذه الأثناء كان بإفريقيا عدد كبير من المهاجرين المرْيَنيسيّين Marianistes ينظمون صفوفهم في كلوبيا Clupéa (قليبية في

شبه جزيرة الرأس الطيّب) وذلك تحت قيادة كنيوس دوميتْيوس آهنوبارْبوس Cn. Donitius Ahénobarbus. وهو شاب من أسرة مجيدة، أصبح صهراً لسنّا Cinna، وانضم إلى الحزب الديمقراطي، فنفاه سولا. وكان أصدقاء آهنوبارْبوس يمدحون طهارة أخلاقه، ووطنيته. وكان حليفه هو هيَرْباس Hiarbas ملك النوميديين.

ونحن نجهل من كان هيارْباس هذا. لقد سبق أن رأينا أن هيمْبسال كان ملكا سنة 88 ق.م. غير أن أبْيان[60] Appien، يخبرنا أن هيمْبسال عزله النوميديون من بعد، وأن بومْبي قاهر المَرْيَنيسيّين بإفريقيا هو الذي أعاده للملك، ثم أن سالوست[61] يخبرنا أيضاً أن هيمْبسال أعيد للملك على يد بومبي، كما يروي بلوتارك[62] أن بومبي بعدما أسَر الملك هيَرْباس، أعطى المُلك لهيمْبسال. والحقيقة هي أنه أعاد إليه الملك. إذ إن هذا النص من بلوتارك إذا ضُمّ إليه النصان السابقان (أبْيان وسالوست) أمكننا الاعتقاد بأن هيمْبسال كان قد خُلع عن الملك لفائدة هيَرباس.

أما مؤلف كتاب «حياة العظماء»De Viris illistribus[63] فيروى أن بومبي أعاد نوميديا لملك يدعى مسنيسّا، وكان ذلك بعد أن انتزعها من يد هيَرباس، لكن يظن – على العموم – أن اسم مسنيسّا قد ذكر هنا خطأً في محل هيمْبسال. ومع ذلك، فيظهر من الصعب أن نفسر كيف أمكن حصول مثل هذا الخطأ. فوجود ملك نوميدي، يحمل في ذلك الوقت اسم مسنيسّا – أو اسما يقرب منه جدا – ليس أمرا مستبعدا. وبعد ذلك بقليل، كانت هناك بكل تأكيد مملكة أخرى نوميدية تقع بين موريطانيا وبين المملكة النوميدية التي خضعت لهيمْبسال ثم ليوبا الأول، وأنها كانت خاضعة سنة 62 ق.م، لأمير سمّاه سيسرون باسم

مَسْتانسوسّوس Mastanesosus، كما خضعت سنة 46 - 47 لأمير سماه أَيْيان هكذا إلى مملكتين - شرقية وغربية - يمكن أن يصعد به إلى عهد سابق: فلربما أنه حدث بعد حرب يوغرطة مباشرة، أو بعد موت گوْضا. وعلى هذا فمن الممكن أن مسنيسّا الذي ذكره صاحب «حياة العظماء» قد تعاصر معه هيمْبسال في الحكم. فكان أولهما ملَكاً بغرب نوميديا والثاني بشرقها. هذا، ولا نستطيع القول بقرابتهما في النسب. وأزيح كل منهما عن العرش - على ما يظهر - وخلفهما هيارْباس الذي يكون قد أصبح ملكا على جميع نوميديا.

وهناك علامة تسوغ لنا القول بأنه اختار مدينة بولاّ ريجْيا Bulla Regia[64]، بالقرب من نهر مَجَرْدة لتكون عاصمة له، وقد انضم هيَرباس إلى حزب مَرْيوس في الحرب الأهلية التي مزقت الجمهورية الرومانية. ولاشك أن المرْيَنوسيّين سرَّهم أن يحل هيارْباس محل هيمْبسال الذي كان سنة 88 ق.م قد اتخذ موقفا مريبا جدا من مَارْيوس، وانضم بعد ذلك علانية على ما يحتمل إلى الحزب الأرستقراطي.

## 3

كان سولا Sylla يهمه أن لا يترك الأعداء مستولين على إحدى المناطق التي كانت رومة تستفيد منها قسما من القمح الذي يغذيها. لذلك كلف بومْبي بالتوجه لقهر دوميتْيوس Domitius وهيَرْباس، وذلك بعد أن كان بومْبي ساعد سولا الأيمن في إيطاليا، وبعد أن استولى حوالي سنة 82 على صقلية وقد جرت الحملة على إفريقيا سنة 81، وفي الخريف على ما يحتمل. وكل ما نعرفه عنها إنما وصلنا عن طريق بلوتارك.

كان بومْبي قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن بعد قد مارس أي منصب. ولكن مجلس الشيوخ كان قبل ذهاب بومبي إلى صقلية قد منحه السلطة Imperium، وذلك ليستطيع أن يقود جيشا بصفة قانونية، وكان استدعاؤه للذهاب إلى إفريقيا بقرار من المجلس ورسالة من الديكتاتور. ومن المشكوك فيه أن يكون قد مُنح سلطات واسعة، كالسلطة القنصلية عوضا عن السلطة البريطورية. فهناك نص من سيسرون Cicéron يمكن أن يفهم منه أن بومبي لم يحرز على لقب بروقنصل إلا فيما بعد، أي حينما كُلف بمحاربة سرِطورْيوس، كما أن نصا آخر يؤكد أنه انتصر في إفريقيا بصفته بروبريطور[65]. ومن ناحية أخرى، هناك قطعة نقد ذهبية، ضربت تخليدا لانتصاره الإفريقي، وتصفه بلقب بروقنصل[66]. فمن كل هذا يتضح أن في الأمر تناقضا لا يسهل تفسيره.

ركب بومْبي البحر على رأس ستة من الفيالق الكاملة، و120سفينة حربية، و800 سفينة للنقل. وكان نزول بعض هذا الجيش بأوتيكا، وبعضه الآخر بقرطاجة. ويظهر أن أوتيكا – وهي عاصمة للولاية الرومانية، ومدينة حرة في نفس الحين – لم تقم أي عرقلة لنزول القائد الشاب فيها. كما أن سبعة آلاف من الجنود المرْيَنوسيّين تسارعوا بالانضمام إليه، إذ كانوا على ما يحتمل يقيمون بمعسكر قريب من هذا المكان. ويحكي بلوتارك أن بعضا من الجنود الذين نزلوا بقرطاجة، قد واتاهم الحظ فاكتشفوا كنزا ثمينا، أو أن هذا ما جرى – على الأقل – على ألسنة الناس. فسرت الحمى إلى رفقائهم بالجيش، الذين اعتقدوا أن هذه التربة مليئة بالثروات التي دفنها أصحابها قبل حلول الكارثة التي قضت على المدينة. وهكذا فإن عدة آلاف من الرجال أجروا – طَوال أيام كثيرة – التفتيش في كل اتجاه. وإذ لم يستطع بومبي أن يمنعهم من ذلك، فإنه

جعل يضحك منهم، وقرر أن يتريّث حتى يعودوا إلى رشدهم. ثم هاجم بهم العدو، وكان اللقاء غير بعيد عن أوتيكا.

أما دوميتْيوس، فرغما عن تخلي قسم من جيشه عنه، فقد كان لا يزال رهن إشارته نحو من عشرين ألف محارب. ولعل أكثرهم كانوا نوميديين من رعايا هيارْباس. وقد صفّهم دوميتيوس خَلْف شعب وَعْر، غير أن مطراً غزيرا هطل منذ الصباح، وكانت معه رياح شديدة، فعدل عن خوض المعركة في نفس اليوم، وأمر بالتراجع إلى المعسكر. فرأى بومبي أن الفرصة مناسبة، فتقدم بسرعة، واخترق الشعب، ثم انقض على هذه الجيوش وهي تسير دون نظام، بينما المطر الشديد يعوق الرجال عن النظر. وقد كانت العاصفة تعرقل السولانيين (أنصار سولا Sylla) كذلك، وتعوق البعض عن أن ينظر البعض الآخر، حتى إن رئيسهم كان على وشك أن يقتله جندي لم يعرفه، وطلب منه كلمة السر، فأبطأ في الجواب. ومع ذلك فإن المرْيَنوسيّين لم يلبثوا أن اندحروا. ولم ينج منهم من التقتيل - على ما قيل - سوى ثلاثة آلاف. ولما حيّى المنتصرون بومْبي بلقب إمبراطور Emperator، أعلن لهم أنه لن يقبل هذا اللقب مادام معسكر دوميتْيوس قائما. ثم انطلق ومعه الجيش إلى التحصينات، وخلع خوذته حتى لا يتعرض لمثل الخطر السالف، وسرعان ما استولى على المعسكر. أما دوميتيوس فقد مات وهو يقاتل، حسب رواية بول أوروز Paul Orose، أو أعدمه بومبي بعدما أسره، حسب رواية أخرى. وأما مدن الولاية فإنها استسلمت أو انتزعت قهرا.

أما هيارْباس الذي يظهر أنه قد شارك حقيقة في هذه المعركة، فإنه فر. وقد تعقبه بومبي. بينما تسارع من ناحية موريطانيا بُگود ابن بوكوس الذي كان يبدي الفخر بصداقة سولا. وكان مجيئه لمحاربة حليف المرْيَنوسيّين. فتصادم معه هيارْباس الذي فقد في هذه الوقعة

جميع جيوشه، فتولى عنه وذهب إلى بولاّ Bulla ليعتصم بها. ولكن المدينة استسلمت لبومبي الذي اعتقل هيارْباس وأعدمه.

لم يغادر بومبي في الحين، لأنه رأى من المفيد أن يشعر «الباربار» (النوميديين) خوف الرومانيين. فوجد متسعا من الوقت ليصيد بالبلاد الأسد والفيل. وأعيدت لهمْبسال السيادة على أراضيه. وربما أعديت حتى لمسنيسّا، إذا استنتجنا ذلك من جملة واردة في "حياة العظماء" حاولنا تفسيرها فيما سبق(67). وكان بعض الجيتوليين قد أحرزوا من مَريْوس قبل ذلك بربع قرن على بعض الأراضي، جزاء لهم على المساعدات التي قدموها له أثناء حرب يوغرطة. ومن الممكن أن يكونوا قد انضموا – هم أو أبناؤهم – لصفوف المَرْيَنوسيّين 81. وبهذا فإنهم فقدوا استقلالهم وأصبحوا من رعايا هيمْبسال بعد انتصار السولانيين.

جرت هذه الحملة الباهرة الحاسمة بسرعة فائقة، بحيث أن بومبي لم يستغرق أثناءها على ما يظهر سوى أربعين يوما للقضاء على أعدائه، وإخضاع ولاية إفريقيا وتسوية الأمور المتعلقة بالملوك.

ولما عاد إلى أوتيكا بَلَغته رسالة من سولا تأمره بتسريح جيشه، باستثناء فيلق واحد، وأن ينتظر في هذه المدينة وصول البريطور السابق الذي سيحل محله. فغضب لذلك غضبا شديدا، ولكنه أخفى غضبه. أما الجنود فإنهم لما دعوا للذهاب، أظهروا علانية غضبهم الشديد على الدكتاتور. وصرحوا بأنهم لن يتخلوا عن قائدهم، ولن يقبلوا استئمانه لهذا الطاغية. فحاول بومبي في أول الأمر أن يسكنهم، ولما عجز عن إقناعهم نزل عن منصته باكيا وانزوى في خيمته. ولكن العصاة ذهبوا وأخرجوه منها، ومر قسم كبير من اليوم في اللجاج والإلحاح بين الطرفين، وأخيرا أقسم بومبي أنهم إذا أكرهوه، فسيقتل نفسه، وبهذا

استطاع أن يهدئ الضجة. فإذا كانت الرواية قد مثلت كما حكيت لنا[68] فقد كان فيها ممثلا بارعا.

لما بلغت الأنباء الأولى من إفريقيا إلى سولا، جعلته يعْتقد أن بومبي قد انفصل عنه. ولما استوثق من الأخبار اطمأن، ولكنه رأى من الحصافة أن يتنازل عن رأيه، فعاد القائد المنتصر إلى إيطاليا ومعه جيشه، وتسارع الجميع إليه يقدمون له التهاني ويسيرون في موكبه. وحتى سولا فإنه ذهب لاقتباله، وحياه بلقب "العظيم Magnus" أي اللقب الذي ربما كان الجنود خاطبوه به في إفريقيا من قبل.

غير أن بومبي طالب بموكب التمجيد Triomphe فأجابه الديكتاتور ومعه أصحاب النفوذ من أعضاء مجلس الشيوخ بمعارضة القانون الذي ينص على أن هذا الشرف لا يناله إلا القناصلة والبريطورون. فلم يتخل بومبي عن مطلبه، بل ألح في صيغة التهديد، أكثر مما ألح في صيغة الرجاء، حتى تغلب على سوء نية سولا. وفي يوم 12 مارس من سنة 80 أو 79 تمّ الاحتفال خارج إفريقيا Ex Africa. وكان قد جلب معه كثيرا من الفيلة من الحظائر الملكية، فأراد أن يربطها إلى مركبته، ولكن باب المدينة كان أضيق من أن يسمح بمرورها، فعوض عنها بالخيول.

4

مكث هيمْبسال على الملك، بعد عودته إليه، عشرين سنة على الأقل، فالنصوص تشير إليه في سنة 75 و63 و62 ق.م[69]. أما ابنه يوبا الذي كان سنة 23 لا يزال شابا، فقد كان ملكا سنة 50، ولاشك أنه تولى الملك منذ بضع سنين.

كانت أراضي هيمْبسال ويوبا تمتد في اتساع كثير عند جنوب الولاية الرومانية وغربها. وقد رأينا أن هيمْبسال كان سنة 88 يملك ساحل سدرة الصغرى، وبالطبع فإنه لما عاد للملك استرجع هذه المنطقة. أما يوبا فإنه كان سنة 46 مستوليا على ثيناي Thaenae المدينة الواقعة عند المدخل الشمالي لسدرة الصغرى، والقريبة جدا من الحدود الرومانية. وبعيدا من هذا المكان، أي عند الجنوب الشرقي كانت مملكته تتصل بمنطقة لبتيس Leptis الواقعة بين سدرة الكبرى وسدرة الصغرى. ومن ناحية أخرى كانت مملكته تحد الولاية غربي بيزاكيوم Byzacium (ناحية هَدْروميت، وهي اليوم سوسة)[70] أما عاصمة مملكة يوبا – أو إحدى عواصمها – فكانت مدينة زاما Zama التي يجهل موقعها بالتدقيق. لكن يجب أن يبحث عن هذا الموقع في موسطة تونس، وكانت عبادة الملك هيمْبسال ما تزال تقام في عهد الإمبراطورية في ثوبُرْسيكو نوميداروم Thubursicu Numidarum بشرق الجزائر[71]. وذلك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هيمْبسال وابنه قد ملكا هذا الموقع. واخيرا فإنّ سرْتا (قسنطينة) العاصمة العتيقة لملوك هم سيفاكس Syphax ومسنيسًا Massinissa ومِسِبْسا Micipsa كانت تابعة لمملكة يوبا، بل كانت أغنى مدن المملكة.

لكن هذه المملكة لم تكن تتصل ترابيا بموريطانيا، لأن قسما كبيرا من أرض الماسيسيليين Masaesyles سابقا، قد تحوّل إلى أيد أخرى. ففي نهاية القرن الثاني، كان بوكوس قد استطاع أن يستولي، شرقي نهر ملْوية، على منطقة شاسعة نجهل حدها الشرقي، ونجهل كذلك هل تغير هذا الحد خلال نصف القرن الذي تلا. ولكننا نعلم أن مملكة أخرى قد قامت بين الأراضي الخاضعة لمن تولوا الملك بعد بوكوس، وأراضي هيمْبسال ويوبا[72]. وقد تساءلنا : ألم تكن هذه المملكة موجودة قبل 81 ؟

ألم يكن ملكها هو مسنيسّا الذي قال صاحب «حياة العظماء» أن بومبي أعاده للملك بعد أن كان هيارْباس قد حل محله بعضا من الزمن ؟ وعلى كل حال فإن هذه المملكة الوسطى يشهد لوجودها سنة 62 فقرة من سيسرون سبق أن أوردناها[73]. وكان ملكها آنذاك ماسْتَنسّوسُوس Mastanesosus. ولعله هو الملك الإفريقي لهذا العهد، الذي لدينا منه بعض النقود المنقوشة بالحرف البونيقي الحديث Néopunique. فهي تذكر اسمه كما يلي : م.ت.ن.س.ن. M.S.T.N.C.N (من غير ذكر للحركات). ويمكن فيما عدا ذلك أن تكون هذه النقود للأمير الذي ذكر في "حياة العظماء" باسم مسنيسّا Masinissa أو لملك نُحي عن الملك سنة 46 وذكره أپْيان Appien باسم مَسَناسيسْ Masanàsses (وهي الصيغة الإغريقية المقابلة لصيغة مسينيسا Masinissa اللاتانية) فشهرة مسنيسّا الكبير ألصقت اسمه على ما يظهر بأمير نوميدي كان في الحقيقة يحمل اسما مغايرا بعض الشيء[74] بل ربما وجب أن نبعد عنا احتمال كون هذه الأسماء لا تدل إلا على شخص واحد، لعل عهده بدئ في 81 وانتهى سنة 46، وذلك إذا لم نفضل القول بتتابع ثلاثة من الملوك، هم مسنيسّا Masinissa، وماسْتَنسوسوس Mastanesosus ثم مسنيسّا آخر وهو مَسَناسيسْ Masanassès الذي ذكره أپْيان.

وكان مَسَناسيسْ هذا أباً للملك عَرَبْيون [75] Arabion الذي كان سنة 44 في سن تمكنه من قيادة الجيوش. وبهذا لابد أنه ولد قبل ذلك بأربعين سنة على الأقل. وقد ذكر أپْيان أنه كان حليفا ليوبا[76]. ولما انتصر يوليوس قيصر على مَسَناسيسْ أعطى أرضه لبوكوس ملك موريطانيا الشرقية ولسِتّيوس Sittius الذي نال أحسن قسم من هذه الأرض. وتذكر نصوص أخرى[77] أن بوكوس وستيوس انقضّا أثناء حملة قيصر على مملكة يوبا، وأنهما استوليا على سِرْتا التي أعطاها الديكتاتور من بعد

لستْيوس. فكانت النتيجة أن امتدت مملكة مَسَناسيسْ بين موريطانيا وسرْتا. وصارت من ناحية الشرق قريبة الجوار مع سرتا، لأن ستيوس كانَ قد نال المدينة وقسما من المملكة في آن واحد. فلابد أن يكون بوكوس وستيوس القادمان من موريطانيا قد احتلا هذه المملكة (مملكة مَسَناسيسْ) واخترقاها ليدخلا أرض يوبا. ولم يكن عمل قيصر سوى أن صادق لهما على ذلك الاستيلاء. وأين كانت الحدود ؟ ذلك ما نجهله. لكن المؤكد هو أن هذه المملكة كانت أقل سعة من مملكة هيمْبسال ويوبا التي كانت تمتد من سرْتا إلى ما وراء سَدْرة الصغرى. ويظهر أن يوبا، الملك القوي، كان قد فرض سياسته على «حليفه» مَسَناسيسْ. وفيما عدا هذا، فإننا لا نعلم عن مملكة نوميديا الغربية وأصحابها سوى ما سبق ذكره.

أما نوميديا الشرقية، فإن معلوماتنا عنها أحسن بقليل. فهيمْبسال الذي خلع عن العرش ثم أعيد إليه بإنعام بومبي عليه، لاشك أنه لم يشتهر بكونه رجل حرب. بل كان له ميل إلى الأدب مثلما كان لجده مَسْتَنَبَعْل وحفيده يوبا الثاني. فسالوست استقى قصته عن الأصول الوهمية للشعوب الإفريقية من مؤلف كتب باللغة البونيقية، يظهر أن هيمْبسال هو مؤلفه[78].

أما يوبا الأول فلم يكن له نفس الاهتمام بالشؤون الفكرية، بل كان يريد أن يظهر بمظهر حسن. فكان يرتدي أفخم الملابس[79]. ويعنى كثيرا بشعره ولحيته[80] حتى أن ترتيبه لشعر رأسه كانت عبارة عن تشكيلة عجيبة من الخصل المتراكبة[81]. تلك عادة بلادة، وكان يسير عليها، فلم يكن يعني نفسه – وهو الملك الإفريقي – بالتشبه بالإغريقيين والرومانيين. وكان متكبرا وقاسيا، وغالبا ما كان يسوّي الخصومات

بقوة السلاح[82]. إذ نراه بالجنوب يقوم بحملة[83] واسعة ضد بعض القبائل الثائرة الجيتولية على ما يحتمل – فينقضّ على مقاطعة لِبْتيس[84]. كما نعلم أنه كان في خصام مع الملكَيْن الموريين بوكوس وبوگود. ولم يكتف بتزيين عاصمته زاما Zama بالمباني الفاخرة، من قصور ومعابد، بل جعلها موقعا حصينا تحيط به ثلاثة أسوار، بحيث يمكن أن يكون له في حالة الخطر ملجأ لا ينال.

ويظهر أن هيمْبسال لم يقم بما يسبب غضب رومة التي خولته لقب ملك صديق. كما أن الجنود المساعدين من النوميديين قد أشير إلى وجودهم في جيش قيصر، عند بدء حرب بلاد الغال[85]. ولعل سكّ النقود النوميدية بدأ في عهد هذا الأمير يتأثر بالطريقة الرومانية[86]، وفي عهد يوبا الأول نلاحظ نظام الموازين الرومانية قد استعمل بالتأكيد في النقود الفضية التي يذكر أكثرها اسم الملك ووصفه باللاتانية[87].

لقد تحدثنا من قبل[88] عن اتفاقية عقدت سنة 75 ق.م بين هيمْبسال وبين القنصل ك. أوريلْيوس كوتا C. Aurelius Cotta في موضوع أراضي الملك العمومي المخوّلة للملك في ولاية إفريقيا، فحدث أن يوبا أثناء إقامته برومة بين 64-63، وكان آنذاك لايزال أميرا ملكيا، قد وزع جهرا الأموال اللازمة حتى لا تلغى هذه الاتفاقية[89].

ولاشك أنه لم يكن قدم إلى إيطاليا للمذاكرة في هذه المسألة فحسب، ذلك أن شخصا اسمه ماسينْثا Masintha – هكذا سماه سَويطون Suétone – [90]، وهو شاب نوميدي ذو منزلة رفيعة، بل لعله كان ينتمي للأسرة المالكة، قد وقع بينه وبين هيمْبسال خلاف شديد[91]، فالتجأ إلى رومة. فبعث هيمْبسال يوبا يطلبه، ونجح في الحصول على حكم بالموافقة على طلبه. غير أن يوليوس قيصر دافع عن ماسينْثا دفاعا

قويا، بل لقد بلغت به الحمية أثناء النقاش إلى حد أنه أهان يوبا بأن أخذه من لحيته. وبفضله نجا ماسينثا من الحكم الصادر عليه بأن يُسلَّم للملك النوميدي، لأن قيصر انتزعه من يد الذين كانوا يقبضون عليه، وأخفاه في بيته مدة طويلة. وفي سنة 61، بعدما انتهت مدته في القضاء Préture ذهب لتولي الحكم في أسبانيا البعيدة، فأخذه معه إليها وحمله داخل محفته[92]. وبهذا نفهم مقدار الحقد الذي كان يوبا يكنه للدكتاتور.

وبعد سنين، خلف يوبا أباه على الملك، فكان على رومة أن تتدخل في قضية تتعلق به، وهي أنه هاجم ونهب مقاطعة لبتيس الواقعة بين السدرتين[93]. وكانت هذه المدينة حليفة وصديقة للشعب الروماني. فاشتكى إلى مجلس الشيوخ الذي عين الوسطاء، فأعلن هؤلاء أن الذنب من يوبا، فأعاد ما كان أخذ. وخلت سنة 49 وليس بينه وبين لبتيس وئام. أما سلوكه في هذا الخلاف فكان مما لا يرضى عنه الرومانيون. ولعله أوجد السبيل لانتقاده في مناسبات لا نعرفها.

في سنة 50 تقدم النقيب كورْيون Corion – الذي جعل من نفسه عميلا لقيصر – بمشروع قانون يرمي للاستيلاء على المملكة النوميدية[94] – ونحن نجهل الأسباب أو الدواعي التي تذرع بها، ونجهل كذلك لماذا لم يقبل هذا الاقتراح. على أن حقد القيصريين على يوبا، كان من شأنه – على ما يظهر – أن يجذب إليه عطف خصومهم. ولكن شيئا من هذا لم يقع، حتى أن يوبا، بعد ما تولى الملك عدة سنين – لم يكن قد حصل بعد من مجلس الشيوخ على لقب حليف وصديق للشعب الروماني[95]. بل إن أعداء قيصر رفضوا له هذا اللقب عند بداية الحرب الأهلية. ولذلك فإنه سيفهمهم عما قريب بأنهم في حاجة إليه.

# شروح وإحالات

1) يوغرطة لِـ سالوست 89. ولم يعط المؤلف أي إيضاح في هذا المجال.

2) نفس المصدر : 89 إلى 91.

3) نفس المصدر : 89.

4) «حرب يوغرطة» لِـ سالوست، 89.

5) يستخدم سالوست كلمة قنصل حتى في محل بروقنصل.

6) سالوست : «حرب يوغرطة» 92.

7) «حرب يوغرطة» لِـ سالوست : 97.

8) «حرب يوغرطة» : 92.

9) هي أن يتجمع الجنود متراصين ويستروا أنفسهم بتروسهم ثم يتقدموا إلى الأسوار لينقبوها من الأسفل كي يدخلوا المدينة.

10) انظر وصف هذه المعركة في «حرب يوغرطة» لِـ سالوست : 92-93-94.

11) سالوست : 102.

12) نفس المصدر : 97 و100.

13) نفس المصدر : 97.

14) نفس المصدر : 109.

15) سالوست : 101.

16) عبّر الكاتب بكلمة دائرة Cercle وهي أن يقف الجنود في المعركة على شكل دائرة لمواجهة العدوّ، ولذلك فضلتُ استعمال الرّحَى لأنها اصطلاح عسكري عربي يفيد نفس المعنى تقريبا.

17) بول أوروز Paul Orose في الكتاب 5، الفصل 15 من 10 إلى 18.

18) ضاعت مذكرات سولا Sylla، ونحن لا نعلم شيئا عما ورد فيها، ولكننا نفرض فرضاً أن سالوست قد اطلع عليها حين كتابته عن «حرب يوغرطة».

19) سالوست : 103 و104.

20) سالوست : 104.

21) «حرب يوغرطة» : 108.

22) «حرب يوغرطة» : 114.

23) السّمْبريون Cimbres الذين تغلبوا في هذه الوقعة جِرْمانيون، ولكن لاشك أن بعضا من الغالبين قد ناصروهم.

24) التاريخ بالتوقيت الرسمي.

25) «حرب يوغرطة» : 114.

26) بلوتارك Plutarque ترجمة مارْيوس، الفصلان 11 و12.

27) ترجمة مارْيوس، الفصل 12.

28) انظر القصة في الفصل 12 من ترجمة مارْيوس في بلوتارك. وإن كان هذا الكاتب لم يذكر أن يوغرطة مات خنقا.

29) C.I.L (ديوان المنقوشات اللاتانية، القسم الثاني رقم 3417) وكذلك اگْصيل Gsell : «النقوش اللاتانية بالجزائر»، القسم الأول رقم 1242.

30) In Vatinium 5, 12.

31) مومْسن Mommsen في التاريخ الروماني، الترجمة الفرنسية بقلم الكسندر، ج 5 ص 117 التعليق رقم 1، وج 8 ص 24 التعليق رقم 1.

32) سترابون Strabon، الكتاب 17 الفصل 3 الفقرة 12 يذكر أن بين قيصرية (شَرْشال) ورأس تْريتون، ميناءً كبيراً يدعى صَلْدا، ويضيف: «وهو الحد بين أرض يوبا (يوبا الثاني) وأرض الرومانيين، لأن هذه المقاطعة جزئت بكيفيات مختلفة، وكان ملوكها عديدين، وكانوا إما أعداء وإما أصدقاء للرومانيين الذين أعطوا الأرض لهؤلاء وأولئك أو انتزعوها منهم على وجه غير قار». فهذا النص يدفع إلى الاعتقاد بأن الحد الشرقي لمملكة بوكوس القديم لا يتطابق مع حد مملكة يوبا الثاني. ويحسن أن يضاف، بأنه يشتمل على خطأ، وهو أن مملكة يوبا كانت تنتهي عند أمْبساگا لا عند صلداس.

33) روى ديودور الصقلي Diodore de Sicile في الكتاب 36 فصل 5 أن نخبة من الجنود الموريين كانوا سنة 104 بقيادة شخص يدعى گومون Gomon ينجدون مدينة ليليبي Lilybée التي كان يحاصرها العبيد الثائرون.

34) لم يذكر أحد اسم من بعث بهذه الأسود، ولكن لاشك أن بوكوس هو مرسلها.

35) بول أوروز : الكتاب 5، الفصل 21 الفقرة 14. (نقلا عن تيت ليف من غير شك).

36) الواقع أن بعض العلماء فرضوا أن بوكوس هذا ليس هو الذي سلم يوغرطة، وأن هذا خلف ذاك على الملك. وليس هذا سوى فرض لا يدعمه شيء. ثم نحن لا نعرف سوى شخصين باسم بوكوس. أحدهما عاصر ماريوس، والثاني عاصر قيصر. ولا مبرر للقول بوجود ثالث نزح به بين الإثنين.

37) قرطاجنّة Carthagène بإسبانيا وهي غير قرطاجة Carthage الإفريقية.

38) II, 20. édit. Maurembrecher.

39) Gsell : Inser, lat, de l'Algérie, 1 au n°735.

40) بوكوس هذا امتد عهده إلى سنة 33، وكانت عاصمته يول Iol وهي شَرْشال.

41) قصة الحوادث التي شارك فيها الملكان تشهد باسم بُگود على هذا القسم من موريطانيا.

42) يقول سترابون ك 17، فصل 3، فقرة 7 : «قَبْلَنا بزمن قليل كان الملكان بوكوس وبگود يمتلكان هذا القصر». ولا معنى لأن يفهم من هذه الفقرة أن التقسيم قد وقع قبل ميلاد الكاتب (حول 64 ق.م).

43) سترابون : ك 8، فصل 4، فقرة 3، دِيون كاسْيوس : ك 50، فصل 11، فقرة 3.

44) يروي ديون 41 ,42 ,7، (في سنة 49 اعترف قيصر والشيوخ في رومة ببوكوس وبُگود مَلِكَيْن. فلو أنهما كانا قد وليا الملك من قبل لوقع الاعتراف الرسمي بهما قبل 49.

45) يذكر قيصر في الحرب الأهلية 3, 6,1 : «في بداية 49 طرح اقتراح يقضي بتعيين ف. ك. سولا Sylla في موريطانيا» فاختيار هذه الشخصية إذن يكون مفهوما إذا كان للملكين الموريين أسباب عائلية ليحسنا اقتبال سولا ابن سولا صديق بوكوس الأكبر.

46) سترابون، 17 ,3 ,5.

47) هيپْسيكْراط Hypsicrate كان مؤرخا معاصرا لقيصر.

48) نبات السّكوم Asperge هو المعروف في المشرق باسم الهِلْيون.

49) سْويطون Suétone في ترجمته لقيصر الفصل 52.

50) الحرب الأهلية لأبيان : 1 ,52.

51) لا يعرف عنه شيء غير اسمه، وأنه أمير.

52) سبق أن رأينا أنه كان متهما بتسليم ماگدولسا Magudulsa إلى بوكوس.

53) لم يكن ابنه من صلبه، وإنما تبناه ماريوس.

54) بلوتارك، ترجمة ماريوس الفصل 40.

55) ليس مقبولا أن يكون أقام قليلا بقرطاجة كما ادعى ذلك فِلِيوس بَتِرْكلوس Velleius Paterculus.

56) كان فراره برا، لأن الملك بعث الفرسان للقبض عليه.

57) ذكر بلوتارك في الفصل 41 من ترجمة ماريوس أنهم فرسان موريون، والراجح أنهم كانوا نوميديين أو جيتوليين.

58) بلوتارك : ترجمة كراسوس Crassus، فصل 6.

59) نفس المصدر.

60) الحرب الأهلية لأپيان : 1 ,80.

61) التواريخ : 53,4 نَشْر Maurenbrecher.

62) ترجمة بومبي فصل 12.

63) De Viris Illustribus.

64) يقول بولس أوروز، 14,21,5 : «فَرّ هيَرباس من وجه بومبي الذي كان آتيا من أوتيكا، كما فر من وجه بُگود الذي كان آتيا من موريطانيا وعاد إلى بولا Bulla، وحتى مع فرض أن بولا كانت عاصمته فإنها لاشك كانت من قبل تابعة لهيمْبسال الذي جُرّد من مملكته لفائدة هيَرْباس.

65) الفقرة 36 ص 31 من گْرانْيوس ليكيْنيانوس، نشره فْليميش Flemisch.

66) Babelon : Monnaies de la Rép. rom. II, P. 342, n°6.

67) ارجع لصفحة 282 من الأصل الفرنسي، ولصفحة 461 من ترجمتنا هذه.

68) بلوتارك : ترجمة بومبي فصل 13.

69) (عن سنتي 75 و63) انظر سيسرون Cicéron في De Lege agraria فصل 1 الأبواب : 4، 10-11 والفصل 2 الأبواب 22 و58 وعن سنة 62 سيسرون كذلك في In Vatinium : 12,5 وترجمة يوليوس قيصر بقلم سْويطون : 71 (حوالي سنة 63).

70) يشهد بذلك مسلك كونْسيدْيوس Considius خلال مملكة يوبا، في سيره من آشولا Acholla إلى هَدْروميت، انظر فصل 43 من الحرب الإفريقية .Bell. Afric.

71) Inser, Lat de l'Algérie, I, 1242.

72) الواقع أن هيمْبسال قد كان لايزال بعد موته بكثير يُعبد في توبوسوبتو Tubusubtu غير بعيد من بجاية Bougie، أي في جهة لم تخضع – أبدا ودون شك – لهذا الملك. ولكنها كانت تابعة لذرية هيمْبسال : يوبا الثاني وبطلمي اللذين أمكن أن يجلبا لها عبادة جدهما. أما في ثوبرسيكو فإن هذه العبادة لم تتركز إلا في العهد الواقع بين موت هيمْبسال وتكوّن ولاية إفريقيا الجديدة أي في عهد يوبا الأول.

73) 12,5 : In Vatinium.

74) اسم مسنيسا كان يكتب في البونيقية م. س. ن. س. ن. M.S.N.S.N.

75) Appien : Bell. civ, IV, 54.

76) نفس المصدر.

77) Bell. Afric, XXV, 2-3 ; XXXIV, 4. Appien : Bell. civ, II, 96.

78) سالوست : «حرب يوغرطة»، الفصل 18.

79) Bell. Afric. (2) الفصل 57، الباب 5.

80) الأصل الفرنسي ج 6، ص 18 و21.

81) انظر صورته على نقوده. في مولّر Muller ج 3 ص 42. (وفي بريثْ J. D. Brethes) الجدول السادس رقم 264, 265, 267. وقد عثر على رأس حجري في شرشال يمكن أن يكون له. وكانت شرشال عاصمة لابنه يوبا الثاني. انظر الأصل الفرنسي ج 6 ص 21 تعليق رقم 1.

82) كما سيثبت ذلك من بعد بمناسبة الحرب بين قيصر وبومبي.

83) إيلْيان Elien في 23، Nat, anim. وقد وقف يوبا في هذه الحملة التي طالت – ربما – سنة كاملة.

84) الأصل الفرنسي ج 5 ص 165/6.

85) Bell. Gall, II, 7, 1, 10, 11-24, 4.

86) الأمر مشكوك فيه. انظر الأصل الفرنسي، ج 5 ص 150-260.

87) الأصل الفرنسي ج 5 ص 160 وج 6 ص 118.

88) الأصل الفرنسي ج 7 ص 80.

89) Cicéron : Leg. Agrar, II, 22, 90.

90) لعل اسم ماسيثا هو مسنيسا، وأن حرف الثاء يمثل هنا حرفا صافرا آخر. ولعل هذا النوميدي الذي حُمي ودوفع عنه بهذه القوة في رومة ينحدر من مسنيسا العظيم. ونظرا لكونه في 61 كان شابا، فلا يمكن أن يكون هو مسنيسا الذي يقول عنه كتاب «حياة العظماء» إنه أعيد للملك سنة 81. وحيث إنه كان في كنف قيصر، فيجب لاشك تمييزه عن مسناسيس الذي انضم إلى يوبا وحزب بومبي في الحروب الأهلية. ولكن لا مانع من أن يكون هو مسنيسا

الذي ذكره ڤيتْروڤ Vitruve (VIII, 3, 25) باسم گـايوس يولْيوس مسنيسا Gaus Julius Masinissa. فهذا الاسم يشهد أنه نال – هو أو أبوه قبله – حق المواطنة الرومانية. وانظر : سْويطون في ترجمة يوليوس قيصر، الفصل 71.

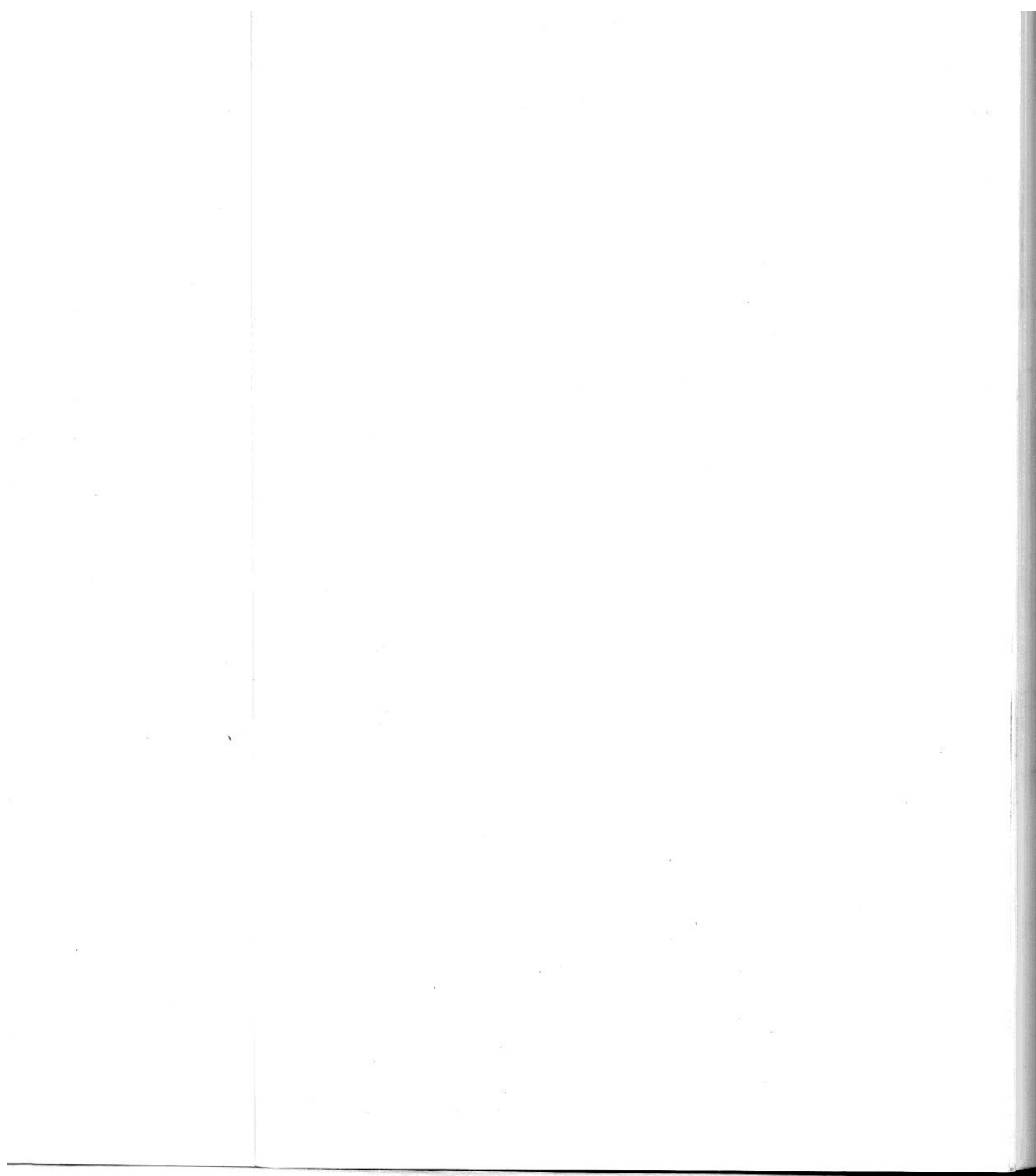
91) يذكر سْويطون في نفس المصدر أعلاه : أن الحكم الصادر على ماسينثا هو أن هذا الأمير كان : (Stipendiarium Pronuntiatum) أي خاضعا تابعا ل... أو يجب عليه أن يؤدي ل... (وبالطبع فإن أداء الضريبة ناتج عن الخضوع والتبعية). إذن فهل نفهم من هذا الحكم أن الأمير النوميدي أعلن استقلاله في إحدى المقاطعات عن الملك هيمْبسال ورفض أن يؤدي له الواجب المالي المفروض؟ ذلك ما يتبادر للذهن.

92) سْويطون، نفس المصدر السابق.

93) أوضحتُ في الجزء 5 ص 200، التعليق 9 أن الأمر يتعلق بلبْتيس الكبرى (لَبْدة) لا بلبتيس الصغرى (لَمْطة) الواقعة غير بعيد عن هَدْروميت.

94) Bell. civ. II, 25, 4. Dion Cassius, XLI, 43, 3. Lucain, IV, 689-691.

95) César : Bell. civ. 1, 6, 3-4



# الفهرس

## الجـزء السابع

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط -